سليم بركات


الفلكيون
في
ثلاثاء
الموت:


الكون
SCANNED BY
JAMAL HATMAL


دار النهار

سليم بركات

الفَلَكيّون في ثلاثاء الموت :

الكَون

الطبعة الأولى، حزيران ١٩٩٦

ص ب ٢٢٦-١١، بيروت، لبنان
فاكس ٩٦١-١-٧٣٨١٥٩

I

زوابع المنظومة الثالثة

(ما بعد الأبدية)

المطر قويٌّ فوق قرية «تافْ». السماء تختطف الأرضَ، من أضلاعها الطينية، بكلَّاباتٍ لا تُرى في رماد المطر، لكن الأرضَ تعود فتنتزع نفسها من تلك البراثن وهي تتلوى في الثّقل الباذخ للمشهد، حتى أنَّ قِطعاً من السماء تنهار كأعمدةٍ من زجاجٍ داكنٍ فوق الجروح المائية للمسالك بين البيوت، وفوق البحيرة المترامية في أفقٍ معتم، أمام النَّهد الترابيِّ الذي تغطّيه القريةُ بشاماتِ منازلها المتساوية حجوماً وارتفاعاتٍ.

المطر قويٌّ، نَهِمٌ وشَرِه. مُسْتَبسلٌ سلَّمتْهُ مقاديرُ الغيوم أنوالَها لينسجَ ما يشاءُ للأرضِ من كَلِيْمِهِ البارد، المديد، ذي النقوش التي من وحلٍ مُتْرَفٍ في أنحاء تلك الأصقاع السهليَّة. فيما تكاد المنازلُ أن تتلاصقَ من لجوءِ واحدها إلى الآخر فَزَعاً، وأن تنكمش على ظلمات أعماقها في ذلك النهار المرتعش من قمة سمائه المُحْتَجَبَة حتى أخمصيْ ضيائه الشحّاذ. أما الناس، داخل جحورها الموصودة، فكانت تتحلَّق صامتةً، حول مدافئها البارزة من الجدران السميكة، ذات الأفواه الواسعة التي تتلقَّفُ روثَ البهائم اليابس في أحشائها الصلصالية، فتتوهَّج الوجوهُ بانعكاس الضّرامِ الضاحك عليها.

هَمْسٌ خفيضٌ، متقطّع، داخل منازل «تاف»، وكثيرٌ من

الشاي الداكن السيلاني ، ولفافات التبغ التي تشتعل الواحدةُ من جمرةِ أختها . الأطفال يسعلون أحياناً ، صامتين كالكبار ، وهم يلتصقون بعباءات آبائهم السميكة ، أو يختبئون في الأكمام الواسعة لسترات أمهاتهم الصوفيّة . الأغنام ، التي لا تربي قرية «تاف» غيرها ، مستسلمة لزرائبها الملاصقة للبيوت ، لم يعكِّر عليها انصرافَها إلى التسبيح للكون أحدٌ . وهي كانت معتادة أن يزودها الزائرون بالعلف مرَّة ، وبسطول التوتياء لاحتلابها ، في أيام الشتاءات المشاكسة التي ينصرف فيها الرعاة إلى لعبة المِنْقَلة أمام المدافئ الطينية ، مفوِّضينَ من الطبيعة أن يستريحوا ، فيعود إلى وجوههم رخاءُ البقاءِ في الظلّ ، والقعود المريح ، والشبع غير المنقطع .

الرعد يحطم تماثيل البرق الأفعوانية فوق «تاف» ، والغيوم تتشاجر بمخالبَ من ريحٍ ، عمياءُ ، هَلِعَةٌ ، تتلاحم متبادلةً أعضاءها المبتورة في سخاءٍ شرس ، عبثيٍّ ، قاسٍ ، لا رجاء فيه .

البحيرةُ المرميةُ ، في إهمالٍ ، إلى الشرق من «تاف» ، هي صورة السماء ذاتها في اللوح الأزلي : رمادية ، مثل غربالٍ شاسع من شِباكِ الرَّصاص ، جروحٌ متوالدةٌ ملأى من ماءٍ . تنتشل قطراتُ المطر الجامحة من مائها فتنةَ الطين وشهواتِهِ الغريقةَ ، فيزبدُ السَّطحُ الداكن ويرغي ، فيما تتشابك الشهقاتُ وتتقاطع فوق الغَمْر ، كأنما تلتهم الذكورةُ الأرضيةُ ذاكرتَها .

هي ليست بحيرةً إذا رُوعي التحديدُ مجرّداً : إنها انهدامٌ قديمٌ ، طولانيٌّ ، توسَّعت أنحاؤه باستخراج التراب منه لبناء البيوت ، فصار حفرةً بيضوية الشكل تقريباً ، بقُطرٍ يجاوز نصف كيلومتر ، وعمق أربعة أمتار في مركزها ، ومترين أو

أقل في ضفافها. يلقي الشتاءُ إليها، عادةً، قشْدةَ ألْبانه، ويخبّئ في طينها جِرارَه المكسورةَ، حتى ليخال للمرء أن فيها عيوناً تذرف المياهَ من مسامها، فلا تنضب إلاّ أواخر الصيف، حيث يبقى مركز الحفرة وحده موحلاً، تدرُّ آلاتُ الطين فيه الضفادعَ بصُنْعٍ قويٍّ، تهاجم بهياكلها اللزجة، القاسية كخمائر الصيف، دجاجات القرية التي تصير مسعورةً في تقاسم الدعاميص السوداء، واليرقات، والخراطين الحمراء. وفي المركَز الموحل ذاك تتناهش الكلابُ كبدَ الصيف المتشقّق، بضراوةٍ هي طباعُ العائدين من جحيم الوحشة. ولربّما امتلأت رقعة البحيرة، في جفافها الصيفيّ، بالمجاهرات الغامضة لأقران الليل ذوي الأرواح الأزلية الساهرة على تميمة الخَلْق، فيتفادى الناسُ المتسامرون على سطوح منازلهم أن يسمعوها، لأنها مجاهراتٌ تُغوي.

الشتاء، الذي لا تخيب مصبَّاتُه في أرجاء أرض «تاف»، وحدَه، يُنْعم على تلك الحفرة الشاسعة بلقبها النبيل: البحيرة. وهي تزهو حين تمتلئ عن بُكرتها، وتغدو مُهَابةً يرجّح الناسُ أن في أحشائها أفعواناتٍ. لكنها أفعواناتٌ تتضاءل كلما اقتربت أحناشُ الجفاف الناريةُ من أرض «تاف»، ثم تغور مع المياه إلى أسفل حيث الرَّحِمُ الكتيم، الذي تتغذّى القُوى العريقةُ من ظلامه، وتستمدُّ منه مهاراتها.

ثلاث عشائر على موعد مع «تاف» ذلك اليوم الضاري. ثلاث عشائر قادمةٌ بوجهائها المختارين، لتضع أختامَها على صحيفة العزاء الأكبر بموت الآغا الكهل «جواني صَالْ»: واحدة من الشرق، وواحدة من الجنوب، وواحدة من الشمال. دون اتفاقٍ مسبق على اختيار الوقت لِما بينها من تباعدٍ يستحيل معه تحديد موعد بما تملك من رُسُل بطيئين،

بل بالمصادفة التي أملتْها وصولُ الأخبار، متواقتةً، إلى الجهات كلها، عن موت سيّد قرية «تاف» القويّ، وهو كهل بعد، لم يشهد فيه أحدٌ وَهَناً من قبل، أو انقياداً لعلَّةٍ.

كان عاصفاً نبأ موته، وهو مَنْ هو: وريثٌ وحيدٌ لأبٍ جعل البنادق العثمانية رخيصةً على أهل الأقاليم الكبرى والصغرى، من منابتِ الظلال في سفوح جبل طوروس حتى الضياء المتشقّق كأَخْفافِ الجِمال على تخوم بادية الشّام. وقد استكمل العُهْدةَ فأغرق أرضَ الجزيرة السورية بالبنادق الفرنسية، والمسدّسات البريطانية التي كانت تعبر ضفافَ دجلة والخابور، من صوب أرض العراق، كفراشاتٍ متوهّجةٍ في معدنها الأزرق.

لم يُسمِّ تجارتَه وتجارةَ أبيه باسمٍ يُشتمُّ منه ربحٌ مّا، بل مَنَحها لقبَ «حصانة الله». وقد وهَبَ كلَّ طالبٍ للسلاح، في الأقاليم المتجاورة بأعراقها غير المتجاذبة، بحسب مقدرة الشُّراةِ: فالقِنْيةُ الحديدية للمقتدرين هي بحسب جودتها ثمناً، وللمتوسطين حالاً بحسب ما يملكون من مقايضةٍ بالقمح. وللمعسورين بأيِّما تمتلك أيديهم، أدجاجاً كان أم حُصُراً من القشّ مهما بخستْ أثمانها. وقد نصب زيراً ضخماً من الفخَّار، محيطه تسعون خطوة، فوق قمة النهد الترابيّ الذي تنبثق منه بيوت «تاف»، جعله مخزناً مُعْلَناً للسلاح الفائض، على نحوٍ لم تشهد الأرض مخزناً مثله، من قبل، حتى في أساطيرها.

ستّةُ خزّافين من الشّركس أَجْهَدوا طينَ الله الصَّلصالَ فاستوى وعاءً هو الأضخمُ في ما يعرف العارفون. وقد صنعوه حيث هو، على الرابية نفسها، بعدما سوّوا الأرض مسطَّحةً كقاعدةٍ، ومدّوا فوقها قشرةً سميكة، دائرية، من

حجر البازلت الأسود ألصقوا بعضَه إلى بعضٍ بغراءٍ من دقيق النشادر، وصمغ جذورِ القُلقاس، وقَطْرانِ الساطريون اليوناني، وهي إذا جُمعتْ في خليطٍ واحد تتجمَّد بعد أربعة أيام فتصير كالزّجاج السميك لا يُختَرَق ولا يحترق. ومن تلك القاعدة السوداء، الكتيمة، الصلبة، ارتفعتْ، يوماً بعد آخر، جدرانُ الزِّير كأنها سور يحيط بقمة الرابية، حمراء، ملساء، نضح الخزّافون من حولها عَرَقاً كثيراً وهم يدهنون القشرةَ الصلصالية بشحمٍ مغليٍّ صُفِّيَ من جِلْدِ الإوزّ الأبيض، يمتصُّ أشعةَ الشمس فيذهبُ ما في الصلصال من رطوبةٍ.

طبقةً دائريةً فوق طبقةٍ دائرية كان الوعاءُ الفاتنُ يتطاول، بجوف واسعٍ من منتصفه، يضيق - من ثمَّ - في قمته. وقد نُصبت من حوله سلالم خشبية صلبة، دائرياً، متصلة كمساطب الزّرع على محيط الهضبات، يصعدها العمّالُ بصحافٍ عليها الطين فيتلقَّفها الخزّافون الواقفون على ألواح سميكة، ويقطّعون الجِبلَّةَ الحمراءَ بأيديهم المبتلة بالزيت الذي يحفظونه قربهم، في طاسات من الرصاص الداكن، ثم يرقّقون ما اقتطعوه براحاتهم قبل وضعه على الحواف التي أنجزوها من قبل، ويمسّدون عليه، كلٌّ بمسحاجه الخشبيِّ، ليستوي الجدارُ الصلصاليُّ بلا شقوقٍ أو آثار أصابع.

كانوا ينجزون في اليوم ارتفاعاً لا يجاوز شبرين من الوعاء الهائل، ويتركونه ليجفَّ يوماً قبل أن يعودوا إلى إنجاز المزيد من الأشبار. وفي كل مساء، من ذلك الصيف الطويل الذي استغرقه الصلصالُ الأحمرُ في تكوين هيكله الطولانيّ على الرابية، كان «جواني صال»، المربوع القامة، ذو الشعر الطليق على قمة رأسه، والحليق من فوق أذنيه نزولاً إلى

قذالِهِ، يُلصق جناحَ جرادة على الحواف الطرية للطين: «أُعطِيْ ما للشيطان للشيطان»، ويذبح بيديه خروفاً يتسامرون على رائحة شوائه حتى الفجر.

حين اكتمل هيكلُ الزِّيرِ التنينيُّ على الرابية، مهيباً وجليلاً كأنما هو هِبةُ القرون، أُبقيت السلالمُ الخشبية والألواحُ من حوله، وقد دعموها بحطبٍ كثيرٍ من جذور نباتِ السُّوس، وعظام الحيوانات التي تتوكَّلُ الكلابُ والرياح بتجفيفها بعد المآدب، وأشعلوا فيها حريقاً هائلاً استعرتْ من لهاثِهِ طبقاتُ السماء القريبة، حتى أن أسراباً مشويةً من الجراد تساقطت على سطوح البيوت وساحاتها، فبَلَغَ تسبيح الدجاج، على هذه النعمة، تخومَ القرى المتناثرة من حول «تاف».

لقد جرى شَيُّ الصلصال الفَخَّارِ في وهجِ العظامِ القويِّ، وتوالتْ ألسنةُ اللهبِ الحلوِ في نبات السوس على تمليس جدرانه بتؤدةٍ كما تفعلُ البقرةُ بوليدها السَّبِخ. ولم ينقطع رعافُ الجمر في الرماد، من حول الزّير، أربعة أيام. بعدها عُولجَ الرمادُ بالمعاول فَنُقِلَ إلى الحافة الشرقية للبحيرة، التي كانت جافّة آنذاك، وأُهرِقَ في جوفها، حيث نبتَ، في ما بعد، قصبٌ كالح على شكل دوحة، كان يجفُّ بدوره مع جفاف الرحَم المائيّ ذاك، ثم يخضرُّ ويورق حين يُسقىٰ من ميازيب الغيم، فاتخذه البطُّ وكراً وموئلاً، وكذلك الثعابينُ المؤرَّقةُ من ضجيج منازل «تاف» وطيش أطفالها.

كيف تسنّى لذلك الوافد الأسمر، ذي الجلد المائل إلى زرقةٍ داكنةٍ، أن يُقنع «جواني صال» بمستودع لخَزْن السلاح على النحو ذاك؟. اسمه الشَّهْرُوْدِي، وأضيف إليه لقب المَنشأ فصار «الشهرودي اليمنيّ». وهو لم يَفِدْ إلى «تاف»

من اليمن، بل من «قونيه» ببلاد التّرك، حتى أن لغته العربية، الخفيفة المخارج، كانت مشوبةً بطنينٍ تُركيٍّ، أما أمُّه العجوز الذابلة، فلم يفقه أحدٌ سوى ابنها حرفاً من الكلام اللزج، المتزحلق على لسانها، ولثّتها العارية. ومع ذلك تدبَّرت لنفسها إشاراتٍ مهيبةً في مخاطبة النساء الكرديات، فتودَّدن إليها على رهبةٍ من قناعتهن أن العجوز ترطُنُ برموزٍ من سِحْر بلاد بلقيس وأتباعها المردة.

قبل ست سنين من بناء الزّير، المعافى بطلَّسماتِ الصلصال، قَدِم «الشهرودي اليمني» مع أمه إلى «تاف»، راكبين بغلين، يتربعهما حمارٌ بمتاعٍ ذي رنينٍ وصخبٍ في أكياس الخيش الغبراء كجلود الضَّبِّ. ولمّا جاوروا البحيرة، وقد تحلَّق حولهما صِبْيةٌ لهم وجوه الزيزان، ألقى «الشهرودي» نظرةً مستطلعةً من عينيه المظلَّلتين بيده اليسرى على الجهات، ثم تَشهَّدَ، ونزل عن بغله فدلّى ساقه في الماء حتى ركبته، فيما قلَّده الصِّبْيَةُ الشُّعْثُ فأدلوا بسيقانهم في المياه، وتشهَّدوا مثله بألفاظٍ مُهشَّمةٍ لا معنى لها.

كان ذلك في عصر يوم من أواخر الربيع، وقد عَلا شحوبُ الأعمار القصيرة أوراقَ العشب البريّ، وقستْ سيقانُ الخُبيِّز وأخشوشنتْ أوراقُه. أما البابونج الكثير فانطفأ أو كادَ، إلاّ شُعَلاً صفراءَ كرؤوسٍ مائلةٍ في أطباقٍ من ورقِ زهرهِ المتهدّل: ذلك ما تبقّى من النبتة الكريمة، التي سيحملها الجفافُ إلى الأباريق لتغدو شراباً كالشاي يُسْتَرْوَحُ به من قولنج الأمعاء، وبُخارات الأبدان الداخلية.

كلابٌ معروقة، حذرةٌ ونزقة، حامتْ قليلاً من حول الموكب الضئيل للوافديْنِ، اللذيْنِ أذابَهُما المغيبُ في قَدَح

شرابه المليء بشُقْرَةِ الشفق. ولمّا انطفأ آخرُ شعاع متشبث بالسهول الغربية لقرية «تاف»، انطفأت البحيرةُ أيضاً، فتساوت الأشكالُ الغريقة في الظلام، وأسدلَ الظَّاهرُ نقابَه السميكَ على أشباح الشهرودي، وأمه، والبغلين، والحمار الذي لا يفاضل حنينُهُ الغامضُ بين الأمكنة، فيراها كسولةً أبداً بعينيه الكسولتين.

أَلْهَبَ الصباحُ التالي لمجيء الشهرودي، وقافلته الضئيلة، خيالَ أهلِ «تاف»، وبيوتِها، وكلابها، ودجاجاتِها، وإوزِّها الطائشِ الهرطوقيِّ. فما أن أفاقتْ جهاتُ المكان حتى رأتْ خيمةً صغيرةً من وبر الماعز، سوداءَ بُنِّيَّة، تستيقظ بدورها على حافة البحيرة، وقد التصق بها، من خارجها، بغلان وحمار، كأنّما تتدفَّأُ بها وتُدَفِّئُها. وما أن أخرج الشهرودي وأمه رأسيهما من الشّقِّ الخشن للنسيج ذي اللّحمة القاسية حتى صارا نَهْباً للعيون الكثيرة، اللامتجانسة، في مزيجها الآدميّ والحيوانيّ، التي تستعرضُ العائلة الطارئة على أرض لم تشهد، من قبل، طارئيْنَ لم يتوجَّسوا شيئاً من «تاف». وهو أمر غير معهود، على أية حال.

لربما كان اطمئنان الشهرودي المُرْتَجَل عفوياً، وثقتُه البادية في نصب خيمة دون استئذان أحد، ضربةً من سحر فتَّقت الفضولَ الصارخ في قلوب الأحياء، الذين لم يتوانَ بعضهم عن الجلوس على العشب المتداعي، مثنى مثنى، يصيرون ثلاثة حين تنضم إليهم دجاجة، أو إوزَّة، أو جرو كلب هزيل، وهم ينتظرون، في البكور الرطب للصباح، أن تنفتق أحشاء الخيمة فيخرج قاطنوها. وازدادوا تحديقاً صامتاً حين لفظَ الوبر الداكن من شقِّه هيكلين أسمرين، أحدهما

لعجوز ملتفّة بجلباب أصفر ذي خطوط سوداء، ينسدل على وهنِ جسدها المنحني من قمة رأسها، والثاني لرجل فتيٍّ في قميص واسع، يلتفّ على وسطه مئزر قصير يبلغ ربلتي ساقيه، وعلى رأسه ذي الشعر الأشعث الكثيف قلنسوة صغيرة، واطئة.

لم يبديا أيَّ دَهَشٍ من وجود ذلك الخلق المنتظر، بفضوله المتمايل كأعراف الدِّيكة، فتوجّها بقربةٍ من المطاط، وطنجرة فضية ملتمعة جداً، صوب البحيرة، حيث عاينا الضفة ليجدا مُنْحَدراً هيّناً إلى مائها، ثم نزلا في تؤدة تتكئ العجوز على كتف الرجل، وغابا عن أعين الجالسين، الذين لم يتزحزحوا، بل ظلوا في كمائن انتظارهم، عارفين أنهما لن يغيبا طويلاً، وسيرجعان ثقيلين تحت وطأة حمليهما من المياه الخفيفة.

ظَهَرا، بالطبع، ثقيلين من حافة ضفة البحيرة: العجوز تحمل الطنجرة الفضية على رأسها، في توازن يثير الإعجاب، والرجل يحمل قربة المطاط الضخمة على ظهره، بعدما ثَبَّت حلقتين من الجلد ظاهرتين من جدار القربة، كلَّ حلقةٍ إلى كتف من كتفيه. وتوجها إلى الخيمة، حيث أعان الرجل أمه على إنزال الوعاء، ثم جلس على الأرض يسند قاع حِمْله عليها، وحرَّر ذراعيه فاختضَّ الجوفُ الكرويُّ للقربة السوداء، وتماوجت جدرانها اللَّدنة ذات الألق الكسول بتعاريجه المبلَّلة بالماء. إذْ ذاك فقط ألقى هو والعجوز نظراتهما الطليقة، يستعرضان أولئك الجالسين على زرابيَّات خفيَّة من فضولهم الشهوانيّ. وقد ابتسما، أو هكذا تهيّأ للدجاجات المتلصصة من وراء حلقة أهل «تاف»، فابتسمت بدورها، وتقدَّمت، في اطمئنان، صوب الخيمة

الصغيرة، الخشنة.

كل شيء يخصُّ صباحَ ذلكما الوافديْنِ تمَّ تدبيره على نحو مكشوف أمام الأعين الكثيرة، التي أبت إلاّ أن تستنفد فضولَها حتى آخر رمقٍ من المشهد: أشعل الغريبان ناراً صغيرة في جذور يابسة كانا أعدّاها من قبل، مُهيِّئَيْنِ لنفسيهما شراباً من أعشاب أخرجاها من كيس، ثم دلقا الشراب في صحفة من التوتياء أشبه بطاسة، وجعلا يبلّلان فيها خبزاً من الشعير فيتبلَّغان به. بعد ذلك ساقا الحمارَ والبغلين إلى البحيرة، بعدما كانت البهائم قد رَعَت شيئاً من بريَّةِ المكان، وعادا بها فدقَّا لها أوتادها في الأرض، والناس من حول خيمتهما لا يريمون.

كان كلُّ ما يفعلانه إنما يسير وِفْقَ سخاءٍ عاديّ. ولمّا غابت العجوز، أخيراً، في جوف الخيمة، توجَّه الرجل الأسمر، بشفتيه المبتسمتين، المتقلصتين عن أسنانه الشاحبة، صوب الحلقة المتناثرة من الفضوليين، يرفع يده بتحية واضحة: «السلام عليكم»، فنهض الجالسون يردون بكلماتٍ تتدحرج من تلقائها بالعربية «عليكم سلام»، وتبادلوا نظراتٍ فيها تمتمة: «إنه عربي». وقد ازدادوا اقتراباً منه حين عمد ذلك المعتمر قلنسوة صفراء واطئة، أقصر من طربوش، إلى خطبةٍ بالكلمات متساوقةٍ مع إشارات من يديه، وزبدٍ خفيف في زاويتي فمه، بسبب انطباقات غير تامّة من شفتيه المتقلّصتين عن أسنانه الشاحبة.

تبادل المتحلّقون حوله نظرات ودمدمات، فيما عَرَتِ الحيرة سُبُّحاتهم التي من نوى الزيتون، أو الكهرمان، فتسارعت طقطقاتها. فأدرك الشهرودي أنه بات على موعد مع لوحٍ جديد من كلمات أبي البشرية آدم. وكما ينبغي على

الطبيعة أن تفصح عن نفسها بركامٍ من الفعل، دخل إلى خيمته فاستخرج آلاتٍ وأحجاراً سوداً، وأواني صقيلة البريق وأخرى شوهاء من الدخان.

أراهم الأواني الصقيلة، الملتمعة بشهوةٍ فضيّة لها ألقٌ، ثم أراهم الأواني الشوهاء من كثرة اغتسالها بالدخان. قال بالعربية المخفوقة خَفْقاً في رطوبتها اليمنية: «هذه تصير مثل هذه». وجلس على الأرض فاحْتَفَر في ترابها بحربةٍ داكنة اللون، على دائرة من أربعة أشبار، وعمق شبر واحد، ثم فرَّعَ عنها قناةً بطول ستة أشبار، وأحضر آلة فأودعها في ذلك القالب الشبيه بالطّنبور، لها ذراع رفيعة طويلة متصلة بأسطوانة سميكة من الحديد، مفرَّغة في جوفها، ولها عيون وثقوب في سطحها غمرها بقطع صغيرة من حجر أسود مزجها بقشٍّ، وعروقِ نباتٍ يابس.

أحضر حجرين من الصوان أيضاً، ملء قبضتيه، جعل بينهما فتيلاً من خيوط مجدولة، وأَقْدَحَهما فأوْرَيا، فلما اشتعل الفتيل وضعه بين القش والنبات اليابس، وانكبَّ عليه نفخاً بفمه حتى علا مارجٌ خفيف في وقوده، فاسترخى قليلاً يمسح عينيه بكمّ قميصه، ونادى بصوت خفيض فتسللت إليه العجوز زحفاً من الخيمة كأنها كانت تتهيأ لصوته بانجذابٍ خاطف لم يرفعها عن الأرض حتى. ثم عمدت إلى ذراع الآلة التي تنتهي برئة صغيرة من الجِلْد هي منفاخُها، وأمعنت - بتؤدة - ضَخّاً للهواء بمقبضِ المنفاخ ترفعه حتى ينتفخ جلدُ رئتها، ثم تضغط به أسفلَ فيتأجَّج الحجرُ الأسود من زفيرٍ يخترق ثقوبَ السطح الحديد للآلة إلى أعلى.

تراجعت الكلاب الأربعة، الهزيلة، إلى الخلف مرتابةً

في اللهب المقهقه بصوتٍ مستورٍ. الرجال تقدَّموا ثلاث نساء أسندن أوعيتهن المليئة بالمياه إلى الأرض، نزولاً بها من فوق رؤوسهنَّ، وانضممن إلى الجمع الذي تلاحم نصفُ دائرته من حول الشهرودي وأمه، وآلتهما المتألّقة كلما بلغ العذاب بالحجارة السود مبلغه المتوهج الأحمر، وطقطقتِ الشراراتُ مسفوكةً بهذيان النار. غير أن الآية الأكثر إعجازاً كانت أن يعمد الشهرودي إلى شَيِّ الأوعية على الجمر بملقط طويل من الحديد، فلما يستعر معدنُها يرفعها عن الآلة ويضعها لصقه على التراب، ثم يلقي في جوفها ببعض الرمل الناعم، قبل أن يمرِّر إصبعاً من الفضة على جدرانها الداخلية والخارجية، يذوب كلَّما مسَّها كأنه شمع، وفي خفَّة كلسان الضفدع يجلوها بقماش اسودَّ من استعماله، فيزول الكَدَرُ، والحروق، ومظالم الدخان عن الأوعية، فترجعَ أَلَقاً، تزهو بصقالتها كأنها لم تمسَّ ناراً من قبل، ولم تُعرَض لخدمةٍ قط.

قضيب من القصدير، وكُوْرٌ لوقد النار، وفحم صلب. تلك كانت آيات الشهرودي، التي لا يُرَدُّ إغواؤها، لِبَسْطِ سلطانه على أوعية «تاف» المعدنية، تأتي إليه سوداء من احتراقها على مدافئ الرَّوث، وترجع غيوماً من الفضة تُسبِّح من حولها سَدَنَةُ النُّور.

لا أحد اضطُر، بعد ذلك، إلى احتقار وعاء في بيته، أو إهماله، أو إلقائه في البحيرة إذا بلغ السُّخامُ عليه مبلغاً لا تقدر المياه الكبريتية، وتَرْقوات العَظْم المجفَّف على كشطه. إنه «المبيِّض» الذي طالما سمعت «تاف» بنادريْنَ من أهل تلك المهنة لا يرجون أقاليم العمران الكبيرة، والمدن، لكثرة ما فيها من اشتغال على معادن شتّى. ولربما قصدهم

البعض من القرى، بعد تحضير طويل، بحمْلٍ قليل من طاسات الشُّرْب، وقُلَلِ الطَّبْخ لا أكثر. يغيبون أشهراً قبل أن يعودوا متهلّلين بذلك الإنقلاب السحري في اللون. لكنه انقلاب ما يلبث أن يتلاشى وينمحق من جسارة الدخان في المواقد، ومن تراكم الشحوم في تعاريج النقوش وحزوزها على جدران الأوعية.

من يخاف من الشحوم إذا التصقت بالشوارب وانتقلت منها إلى حواف طاساتِ الشُّرْب؟ من يخاف من دخان الروث الرطب، وجذور الخرنوب الصمغية إذا نفذَ من مسام الأوعية إلى معدنها؟ الشهرودي، «المُبَيِّض»، جاثم على بوّابة آياته اليومية، و«تاف» رهينةُ قصديره بمحضِهِ إرادتَها، وإصغاءَ ترابها المفتون بحجارة الفحم ومنفاخ الكور. فإن عَلق السوادُ اللجوجُ بالأوعية رُدَّ مغسولاً، وإن تطاول الشحمُ على صفحة المعدن حجبه البياضُ الذي تريقه يدا الشهرودي، الداكنتان بما تغلغل في جلديهما من الرماد.

«جواني صال» ألمح إلى رهطه أن يقيموا مسكناً لهذا الوافد، ذي الرطانة الغسقية في مراتب اللغة، وقد تسقّط بعضَ سيرته من «عمران ساكو»، الشيخ الذي جاور مراراً عشائر «مَسْلَطْ» البدوية، في أصياف الرَّعي، فأصاب شيئاً من لغتها. وكان «جواني»، آنذاك، في أربعينات عمره، مُمَلَّكاً بسلطة أبيه الراحل، ويجعل للسلاح قباباً من الطين ملأى بقش ناعم كالدَّقيق، يخلطه بنشارة يستخرجونها من جوف سيقان نباتات القطن إذا جفَّت، ثم ينضّد البنادقَ في ذلك الخليط الناعم طبقاتٍ، ريثما يأتي المنجذبون إلى «حصانة الله» فيستنفدوا القبابَ المبثوثة حول منزله الفاره ذي الحجرات الأربعين، المتصلة كلها في نصف حلقة، ولكل

حجرة باب. ووسط نصف الحلقة تلك مسطبة دائرية من الطين، بعلوّ مترٍ عن الأرض، لها أدراج واطئة من جهاتها كلها، يمدُّ عليها «جواني» زرابيات من نَسْج أهل «قونْيَه»، وبُلُساً من تنجيد نساء حوران، لِسُمَّارِهِ وزوّاره، في الصيف المديد.

كانت خبرةً عتيقةً أن يستخدم «جواني» قباباً يستودعها السلاح الكثير، الذي يصله بانتظام، من الجهات الأكثر جوداً بغيومها ذات الأثداء، على بغال، أو في عربات تجرها البغال. لكنه أصغى ذات يوم إلى «عمران ساكو»، ترجمانِهِ إلى «الشهرودي»، يصف له جدوى خَزْن السلاح في الشَّحْم، في كتيمٍ من الصلصال لا يشفع للهواءِ شفيعٌ بالولوج إليه: «ما يدخلُ الشَّحْمَ لا يصدأ»، قال «ساكو» عن لسان اليمنيّ.

تَفكَّر «جواني» طويلاً بالدُّرْبة التي لأعماق سيِّد مثله. قلَّب النجومَ بين يديه، وحَصَرَ المجهولَ في لفافة تبغٍ ثخينة نزل دخانُها إلى دمه لا إلى رئتيه. حدَّق في عيني «ساكو» الشيخ، الكليلتين من رَمَدٍ ذهبَ برموش أجفانهما، ثم طأطأ يستعرض السيرة المُخْتَزَلة لهذا اليمنيّ، الذي أوعزت مواثيقُ الإيمان إلى قلب أبيه، مشفوعةً بجاذبٍ غامض من ظهور الخلافة الإسلامية في شمال العالم البعيد، إلى التوجه بزوجه الشابة، وهي حامل في شهرها الثاني، إلى باب المندب، ليستقلَّ مركباً عبر بحر القرْش، الأحمر، إلى سهول الوجه البحري في أعالي مصر، ولمّا جاوزها بزوجه راكبيْنِ في قافلة من النُّوق الهِجان، حملهما مركب آخر، بدراهمه الفضة، إلى بحر الروم الذي انغلقت الرياح فيه على المركب ستة وعشرين يوماً، وهو قد صار إلى عَرْضه،

فجرى تدوين الواقعة تحت إشارة من إشارات كتب البحر وعلومه: «مكائد ألاسيا»، أي جزيرة «ألاسيا»، التي تُعْرَف باسم «قُبْرُس»، ولها خاصيَّة تدوير المياه من حولها، في دائرة يربو قطرها على أحد عشر كيلومتراً، فتبقى السفن، التي تجتاز صعيد بحرها، في شرود ستة وعشرين يوماً تظن نَفْسَها سائرةً وهي إنما في دوران على مراكز ثقلها. لذلك يتحوَّط الرَّبابنة المجرّبون بالمؤَن الإضافية، والماء، وبالسَّيْكَران الأخضر يذوِّبون قليلَهُ في شراب ساخن يقيهم من المَلَل بما يبعث من خَدَرٍ في الأعضاء، فتتقاصَرُ - في وهمهم - مدَّةُ الجَذْبِ الساكن لجَرَم الجزيرة تلك.

قصَّر العثمانيون عن صعود جبال اليمن، فبلغهم والدُ الشهرودي من جهات أنطاكية، وفي روعه أن الصَّقالبة يتحينون لأسوار الإسلام الشمالية بمدافع ستزلزل بدويِّها أحشاءَ الثور الذي يحمل كونَ الله على قرنيه. وقد تاه الرجل القادم من مساكب الجبال الرمادية، مع زوجه، في سهول «أورفه» المديدة، لا يعرف من أين يبدأ في عرض خدمته على سلاطين ذلك العالم المنسوج من دسائس الآستانة، فتلقَّفه بعض العارفين باللغة العربية، فأعانوه ليلتحق عاملاً بمزارع التبغ حيث وُلِدَ الشهرودي.

سيرةٌ ناقصة قليلاً، لكنها تفي بغَرَضها عند من ينقصهم فضول الإحاطة بالحكايات حتى آجالها. ولم يسأل أحدٌ ذلك اليمني، الذي ضرب شيبٌ بيِّنٌ قذالَهُ، وحاجبيه، دون سائر شَعره، عن سبب بقائه أعزب، وعن صناعته وكيف استحوذَ عليها، وعن نزوحه من أقاليم التُّرْكِ إلى جهات «تاف». ولربَّما خَطَرَ من ذلك خاطرٌ في فؤاد «جواني صال»، بيد أنَّه آثر الإصغاء إلى رهافةِ القول الأكثر جموحاً من الحكايات:

«ما يدخلُ الشحمَ لا يصدأُ».

«وماذا يعرف عن السلاح وخَزْنِهِ؟»، سأل «جواني» ترجمانَه الشيخ، فردّ الأخير دون جزم: «ربما ذلك من علوم اليمن».

الكورُ الناريُّ، ذو المنفاخ، يعيدُ الأوعيةَ إلى رشدها النبيل، متألِّقةَ المعدن، كلَّما غشَتْها غاشيةٌ من فُسَاء الزمن وصَدَئِهِ، فلماذا لا يحتكم «جواني» إلى الإشارات المتسرِّبة من عقل «الشهرودي»، عبر الترجمان «ساكو»؟ لِسِتٍّ سنين لم ينظر «جواني» إلى منزل اليمنيِّ، الذي أوعز هو ببنائه، وأَرْفَدَه بخمس شياهٍ ذوات ضروعٍ ملأى، إلاّ عبوراً. وإذا مرَّ باليمني جالساً إلى آلته المُوْقَدةِ حيَّاهُ بإيماءةٍ تتماوجُ على الرائحة النفَّاذة للقصدير ينبثق بخارُهُ على دفعاتٍ من بين ركبتي «الشهرودي»، اللتين تطوِّقان الأواني حتى لا يُغمى عليها في عبورها المَطْهَرِ إلى حيواتها المعدنية الجديدة. لكن «جواني»، بعد محادثته المقتضبة مع «ساكو»، آثر أن يجلس وَجهاً لوجه مع ذلك الرجل الشاحب، فاستدعاه، ذات مغيبٍ، إلى مسطبة داره الفارهة.

قام «جواني» لليمنيِّ حين بلغَ طَرَف كليمِهِ الذي يجلس عليه. صافحه باليمنى ووضع اليسرى على كتفه مبالغةً في تخصيصه بترحاب صامت، ودعاه بإشارة من رأسه إلى الجلوس إلى يساره، فجلس الرجل الذي امتزج شحوبه بالمغيب النعسان.

جلس «ساكو» في مواجهتهما تماماً، على أرض المسطبة الترابية، متربّعاً. أناس آخرون كانوا هناك أيضاً. صمتوا لبرهة يرمقون تلك الخلوةَ المكشوفة، ثم انصرفوا إلى أحاديثهم الكبرى عن العشائر بأصوات مرتفعة قليلاً كأنّما

يؤكدون لـ «جواني» ضمناً، أنهم ساهون عن ذلك اللقاء، وتفادياً لإحراج لا يبدو، قطّ، أن «جواني» أحسَّ به.

كانوا يصمتون، ويصغون، دون مواربة، حين يسأل الرجلُ ضيفَه بصوتٍ واضحٍ، ناظرًا إلى الترجمان الذي يتألَّق صوتُهُ المتهدِّج قليلاً، وهو يرمي بالكلمات إلى الفراغ بين الاثنين، وعيناه تغوران أكثر فأكثر في محجريهما، اللذين يجعلهما فانوسُ المسطبة المعلَّق إلى عمود خشبي نَفْحَةً من نفحات المجهول، مظلمَيْنِ، سِرِّيَّيْنِ، يزفر منهما الموتُ زفيرَه الخافتَ، كأنما أجلُ الشيخ «ساكو»، برغم صلابته البادية، بات على مرمى من الشهور.

لم يلتفت «جواني»، في جلسته تلك، إلى الشهرودي. رأس منكَّسٌ قليلاً، لكن عيناه، وحدهما، ترتفعان إلى وجه «ساكو» في السؤال، وتنخفضان حين يتلقَّى الجواب، متحرِّياً فيه علاماتِ التجاريب وميراثَ الخُبرات:

«قُلْ له: ندهن الأسلحة بالزيوت، ونلفُّها في قماش من الصوف سميكٍ يَقيْها الرطوبة...»، يتمتم «جواني»، فيتوجه «الشهرودي» إلى مضيفه جانبياً: «ذلك متَّبَع» يقولُ بحسب ترجمة «ساكو»، مضيفاً: «غَمْرُه في شحْمٍ أجدىٰ». فيسأله «جواني»:

- نحفظ اللحم في الشحوم، أما المعدن!!..

«يُحْفَظ الحجرُ في الشحوم، أيضاً»، يرد الشهرودي على تساؤل مضيفه الذي يقطع استغرابٌ خفيفٌ عباراتِهِ غير المكتملة.

«أَتُحْفَظُ الحجارة في الشحوم؟!»، يردّد «جواني» كلماتِهِ في ريبة، ويحدِّق في «ساكو» الشيخ: «أهو يعني، حقّاً، أن الحجارة تُحْفَظُ في الشحوم، أيضاً؟». ولمّا ينقل الترجمانُ

إليه تأكيداً لا لُبس فيه من الشهرودي، يتمتم «جواني»:

- في أي متاهٍ تجري هذه العادة؟

«في الأرض، أيها السيد» ردّ الشهرودي، بحسب ترجمة «ساكو»، الذي أضاف إليها بعد تقليبٍ للكلمات العربية في سرير عقله: «لا بيتَ إلاّ في جدرانه حجرٌ غُمِرَ في الشَّحم سنةً».

حدَّق «جواني» في «ساكو». تفرَّس فيه. فتضاءل الشيخ كمن اقترف خطأً، وأَعْتَمَ محجراه حتى صارا حجرين أسودين. حاول التملّص من حصار تلك النظرة:

«إنَّه...» وأشار برأسه إلى اليمنيّ، «إنه يدّعي ذلك».

«اسألْهُ، أيبنون في اليمن بيوتهم من حجر نُقعَ في الشحم؟»، فجاءه الجواب بعد غمغمات بين ترجمانه والشهرودي: «بيوت اليمن، في غالبها، من طين»، ثم اكتملت الجملة بعد صمتٍ عابرٍ: «إنه لم يرَ اليمن بعد»، أضاف «ساكو».

شبك «جواني» أصابع يديه، وعاد إلى أسئلته:

- ما الحكمة من نقع الحجارة في الشحوم؟

«تلتمع. والحجر إذا التمعَ استهدى به أمُّه النجم»، قال «ساكو» نقلاً عن الشهرودي.

استقام عمود ظهر «جواني» المنحني قليلاً. غمغم:

- أمُّه النجم؟!

«الحجر أصله نجم. الترابُ أصله ظلام»، قال «ساكو» نقلاً عن الشهرودي.

لعق «جواني» شاربه الكثَّ، وشملَ الشيخَ «ساكو» بنظرة فيها بعض الإشفاق: «أأنت مرتاح في جلستك يا أبا يوسف؟»، فنبض جسدُ الشيخ المتربّع: «لستُ عجوزاً إلى

الحد الذي تعتقده ، يا أبا باراني» ، وأعقبَ كلماته بضحكة خافتة جاراهُ في ترديدها «جواني» نفسه ، الذي أبعدَ عن المحاورةِ شبحَ النجوم وأمومتها :

- أرأيتَ منازل من حجرٍ نُقع في الشحم؟ اسألْهُ ، أرأى هكذا منازل ؟

فشحذ الشيخُ ترجمَتَهُ على مِبْرَد الكلام : «يقول إنه كبُرَ في دسكرةٍ تجاورُ قصراً من هذا الصّنف» . فابتسم «جواني» : «قصر منقوع في الشحم. . .» ، وكاد يضحك ، مُرْدِفاً : «أهنالك شجرٌ يثمِرُ شحماً في تلك الأنحاء ؟» . ولم ينتظر أن يترجم «ساكو» عبارتَهُ الطويلة للشهرودي ، بل أضاف متهكّماً : «لربّما أدركَ أحدُهم ليلةَ القَدْر فسألَ الله نهراً من السَّمن» .

«لا هذا ، ولا ذاك» ، ردَّ الشهرودي على سؤال «ساكو» المُتَرْجَم بحَرْفِهِ عن لسان «جواني» . وحدَّق في مُضيفه الذي لم يلتفت قط في المحاورة إليه : «لديهم غَنَم كثير ، يا أبا باراني» ، متلقّفاً بلقب الرجل المنسوب إلى ابنته البكر «باراني» على نحوٍ مُخَفَّفٍ في حروفه . وكان «جواني صال» قد وُهِبَ ثلاث عشرةَ ابنةً ، من ثلاث زوجاتٍ في عهدته بعد ، ولم يرزق ذَكَراً . وهو سمَّى ابنته البكر على اسم مطر شديد في ميلادها ، كاد يجعل أهل «تاف» يلجأون إلى قمة هضبتهم الواطئة قليلاً ، هرباً من فورة بحيرتهم التي اتصلت أحشاؤها بأحشاء بحرٍ دفين .

صمت «جواني» . أصغى الجالسون على مبعدةٍ منه إلى صمته برغم تكلُّفهم حواراتٍ لا معنى لها ، وهم يرتشفون من ساقِيْ القهوةِ المُرَّة ، كلٌّ واحدٍ رشفةً فحسب ، من فنجانيه الصغيرين ، اللذين يدوران عليهم دون غَسْلٍ . ولمّا ارتشف الشهرودي من أحد الفنجانين ، بدوره ، الشرابَ الأسودَ ،

اللاذع في سخونته، بادر مُضيفَهُ بكلماتٍ ترجمها «ساكو» متأنِّياً هذه المَرَّة:

- البيت الذي في بنيانه حجرٌ نُقِعَ في شحم الضَّبِّ لا يُقْلِقُهُ **النُّوْن**.

«في شحمِ ماذا؟» دمدَم «جواني» متسائلاً، فردّ «ساكو»: «شحم الحيَّة»، وقرَّب جذعه من الشهرودي وهو يرسم بيده حركةً أفعوانية: «تعني الحيَّةَ...»، فهز الشهرودي رأسه نفياً: «لا. أعني الضَّبَّ»، وبدأ يجسِّد بأنامله هيكل حيوانٍ زاحف، وصورة حركته.

«آ. آ...» تمتم «ساكو» كأنما أدرك مرادَ الشهرودي، وإذ حاول شرح المعنى لـ «جواني» قاطعه الأخير: «فهمتُ. آ»، وأردفَ: «**النُّوْن**. أظنه قال: **النون**. ما هذا **النُّون**؟»، فأرخى «ساكو» بثقله على الشهرودي الشاحب، زاحفاً مقدار شبرٍ في اتجاهه: «أقلتَ: **النون**؟»، فهزَّ اليمني رأسه: «**النون**، الذي تستقرُّ الأرض على قرونه»، ثم أخرج من جيبٍ في حزامه الجلدي العريض رقعةً من قماش رقيق كالورق، بَدَا داكناً في ضياء الفانوس المعلق إلى العمود الخشبي، وسط المسطبة. مدَّ الرقعة أمام عيني «جواني»:

- هذا هو **النُّون**. خلقه الله قبل أن يخلق أيَّ كائن آخر.

تناول «جواني» رقعة القماش من الرجل الشاحب. قرَّبها من ناظريه متمعّناً، ثم أبعدها يتملّى ما خفيَ عليه من تفصيل في الرسم الذي تحتويه. جمَّدها بين يديه كمن يتهجَّى - في صعوبةٍ - حروفاً ممحوَّة.

مدَّ رقعة القماش إلى «ساكو» الذي كاد يُلصقها بمحجريه الفارغيْن. نهض ماشياً صوب الفانوس يستنجد بضيائه. حكَّ جبينَه، ثم صدرَه. ضرب بظاهر يده اليسرى على الرسم

الدفين في رقعة القماش، وندَّتْ عنه آهةٌ متقطّعة: «هذا... واللهِ... جبلٌ...»، وبقي ثابتاً تحت الفانوس وقد التهمَ ظلُّه الطويلُ أشكالَ صفٍّ من الرجال الجالسين، الذين نهض أحدهم متقدّماً من «ساكو»: «دعني أفسِّره عنك يا أبا الخُبَّيْز»، قالها يريد مداعبتَهُ بالتلميح إلى أن الرجل الشيخ يُكثر من أكل نبات الخُبَّيْز، فناوله «ساكو» الرقعةَ متغاضياً عن الهزء الناعم في كلماته: «خذها. لك عينا سِرْعُوْفَةٍ».

«إنها أفعى» قالها الرجلُ واثقاً. والتفت إلى صفِّ الرجال مؤكِّداً: «إنها أفعى بآلافِ قرونٍ»، وعاد إلى النظر في الرقعةِ القماشِ، متمتماً لنفسه: «من أين تنبثق كلّ هذه القرون؟». فسحب «ساكو» الرسمَ من يديه، ورجع إلى «جواني»: «هذه أفعى ذات قرون»، ثم جلس مواجهاً الشهرودي: «هذه أفعى. أتسمّونها النونَ؟»، سأل «ساكو»، فهزَّ الرجلُ الشاحب رأسه نفياً:

- إنه **الحوت**.

«**حوت**؟!». خرجت اللفظةُ عربيةً من فم «ساكو»، الذي أعاد التحديق في الرسم المعتم، ورفع وجهه إلى «جواني»: «يقول اليمني إن هذا **حوت**»!!

صحَّح «جواني» فقرات ظهره المنحنية وفي عينيه كشْفٌ ناعمٌ: «إذاً، أنتم تسمّونه النون أيضاً؟».

«ساكو» بدا غير موقنٍ من المَخْرج السهل الذي فسَّر به الشهرودي حيواناً ضخماً، نبت في جانبي رأسه قرنان، وفي جبينه قرن ثالث، تشعَّب منها آلاف القرون الصغيرة مثل غابة. إنه لم يرَ حوتاً قط، ولم يسمع بأحد رآه. بلْهَ ليس في فروع سلالته وأصولها القريبة من مرَّ ببحرٍ ولو على بعد خمسة فراسخ. «الحوت» اسم ينطقُهُ بالكرديةِ كمثله نُطْقاً في

العربية. كل كائن ضخم توصف ضخامتُهُ، مجازاً، بنَسْبِهِ إلى «الحوت». كلُّ شراهةٍ في الإنسان هي من صفات الحوت. والحوتُ، الذي أوثقته الكلمةُ العربية في خيال «ساكو»، كائن أليف في شكله، يشبه بقرةً، أو بيتاً، أو حفرةً، أو شخصاً في نَهَمِ «شيخو عفريْنْ»، أو غيمة من غيوم آذار المنفوشة. لكن أن تكون صورته هي هذه، التي نَسَجَها محتالٌ مّا على رقعة القماش، فذلك أمر لا يُستساغ في سهولة. وقد انتظر تعليقاً من «جواني صال»، أو إشارةَ تنمُّ عن ريبته، ليصبَّ ما علقَ بأحشائه من الهزء على هذا التأويل الذي جسَّدَ الحوتَ كتلةً كأفعى مهولة، ذات ثلاثة قرون بآلاف الشُّعَب، تستقرّ عليها أرض الله الخفيَّة.

لجم هدوءُ «جواني» انقضاضَ «ساكو» المرتقبَ. ثمَّ تبدَّد كل أملٍ في أن يُتاح للشيخ إعلان زرايته بالرسم الذي يحمله اليمنيُّ، حين نطق «جواني» اسم «النون»، ثانيةً، في رضًى بيِّنٍ كمن عثرَ على نفيسٍ. وللمرَّة الأولى، منذ انعقاد ذلك اللقاء المنذور لرحمة الترجمان، التفت صاحب الدار إلى الشهرودي، بعينين خفيضتين لا تريدان إحراج الضيف: «كم يلزمنا من الشحم لحفظ أهرام من آلات الله الحصينة هذه؟»، ولم يكد «ساكو» ينهي رُبْعَ ترجمة تلك الجملة الشاقَّة، حتى أخرج الشهرودي من جيبٍ آخر في حزامه العريض، بعدما أخفى الحوتَ القماشَ في كمينه، ورقاً مطوياً ثنياتٍ كثيرة، وبَسَطها من ثَمَّ: «يلزمك زيرٌ أوّلاً أيها السيد. حمولةٌ سعةَ هذه الساحة من التراب الأحمر قد تفي» قال الشهرودي، واستطرد وسط التتابع المتصل للألفاظ في حنجرة الشيخ المترجم: «لقد أحصيتُ القبابَ التي ضربْتَها على السلاح»، وأرى مضيفَهُ الصامتَ رسوماً هي تجسيد

نواحٍ من «تاف» كادت تستدرّ شهقةَ إعجاب من صدر «جواني» لولا أنْ كَتَمها.

بعد أيامٍ أربعين من ذلك اللقاء، المدوَّن في لوحٍ من ألواحِ الليل، تململَ «**النون**» في المجرَّة الخفية تحت أساسات قرية «تاف»، فانتفضت بيوتها ترى قُفَفاً مستطيلةً من الخوص مغلَّفةً بنسيجٍ من القنَّب، محمولةً مثنى مثنى على جوانب البغال، يفرغ العمالُ منها تراباً أحمر مصبوغاً بذوْبٍ من الشمس في عبورها هضاب «نارميْنْ» الحمراء. وهي هضاب في الجانب الغربي من نهر «فِيْدْ» المعلَّق بين «جبل الكرد» و«جبل بشرى»، ينمو في ترابها نبات قصير من فصيلة السَّيْكران، ينعقدُ له ثمرٌ كحوصلة الدجاج يختمر فينتفخ، فإذا أدركَهُ القيظُ انفجر وخرجتْ منه دابَّةٌ في حجم القنفذ، لها زُنابة عقرب، إن لدغتْ بها إنساناً ظلَّ يتهيأُ له، حتى مماته، أنه عائم في سفينة، وإن لدغت حيواناً أمسى يصوِّتُ، كلَّ ليل، بما يشبه صياح الإنسان.

ارتفع أهرامٌ أحمر من تراب الشمس فوق رابية «تاف». مُدَّتْ أحواض من خشب وملئَتْ ماءً يكون في متناول العاملين على جَبْلِ الطين، ثم حضر ستة رجال من صعيد الشام، استُدْرجوا بعطاء جزيلٍ عبر وسيط أشوريٍّ من أهل الأنهار جنوباً حيث الخابور. وقد جاءوا في ثيابٍ حضريةٍ قمصانٍ وبناطيل ذات أحزمة، على رؤوسهم قبعات، تزمجر بهم سيارة توربيدو زيتية، طويلة الهيكل، نفذَ الغبار ببركته إلى حديدها الكتيم، ودلق حليبَ جفافه فغطاها بسرٍّ من وحيه.

مَهَرَةٌ في تعريض الطين ثلاث مرات للضُّحى قبل إعادةِ جَبْلِهِ ثانيةً. وثلاث مرات للظُّهر قبل إعادة جَبْلِهِ ثالثةً،

وثلاث مرّات للمغيب قبل إعادة جَبْلِهِ رابعةً: هكذا اكتملت نشأة الزّير الأضخم في تاريخ الصلصال، وجُعِلَتْ في جدرانه كوى غائرة في هيكله، مسدودة بنوافذ من خشب يمكن فتحها، وتحت الكوى حُفَرٌ لوقد النار كي يذوب الشحم في كل طبقة من طبقات جسم الزير، بحسب الحاجة، فيُستخرَجَ السلاحُ بتمامه من حيث يُرَاد.

حين رجع الخزّافون الشركس من جهة مجيئهم، في سيارة التوربيدو، ترفرف من فوقهم عافيةٌ جذلى بما أصابوا من عطاء «جواني»، نُصِبَتْ ركائز الحجر البازلت الثلاث، المشهود لها بتاريخ من النار العظيمة، لتستوي عليها جَفْنَةُ النحاس العميقة مترين بقُطْر أربعةِ أمتارٍ وشبرٍ واحد. وهي جَفنةٌ لا تعلو أثافيَّها إلاّ إذا وفدت عشائر بأكمل نُقبائها تتوسَّم فِكاكاً من الثأر بالدّيَّات، فتُطبَخُ فيها الخرافُ قِرَىً.

سبعة أيام التهمت النارُ فيها النارَ. أَلْفا إليةِ ضأنٍ، وأربعمائة سنام بعير ذُوِّبَتْ تباعاً في الجفنةِ النحاسِ. دُلِّيَتِ الأسلحة من فوهة الزير الواسعة، حزمةً حزمةً، فرصفها أشخاص في القاع، ثم خرجوا لتندلقَ فوقها سطولٌ مليئة بالشحم الذائب، حتى غمرتها.

تُرِكَتْ تلك الطبقة من الشحم لتجفّ يوماً. بعد ذلك دُلِّيَتْ حزمٌ جديدة من السلاح فوق سطح الطبقة الجافة، وجرى غمْرُها بشحم جديد.

كل طبقة من السلاح مغمورةٍ في الشحم لها كوَّتُها، وتحت كوَّتها حفرةٌ لوقد النار. كل طبقة تجفُّ تُطابَقُ بسماء أخرى من الشحم فوقها. وبعد سبعة مراقيَ من اللهب المنسوج بروث الحيوان، وأهرامات من القش، وغصون نبات السوس، وعُصافة شُجيرات الخرنوب الشعثاء، خُتِمَتْ

فوّهة الزير بقضبان طويلة، مستقيمة، من الخيزران، ثم رُصِف الخَتْم بغطاء من الطين.

ذهب المنادون في كل اتجاه يَسْتدرجون على شراء الجمال، يأخذون منها، بعد ذبحها، سناماتها وجلودَها فحسبُ، تاركين اللحمَ للبدو المذهولين، وكذلك يفعلون بما شَرُوه من ضأنٍ يكتفون بإلياتها وجلودها. وكانوا يتخذون عرباتٍ معهم، وحَرَساً في السلاح، فيحفظون الشحومَ والجلودَ في ملحٍ كثير حتى لا تفسد، ويعودون بها إلى «تاف»، حتى استوفوا ألفي إليةٍ واربعمائة سنام بعير، سُكِبَتْ ذائبةً في الزير الأعظم على الرابية، الذي يستعرض نفسه، في خيلاء، على ريحِ «السَّكينةِ» الخَجُوْج، ذات الرأسين، العابرةِ الأفعوانية التي تُكلِّم الجهات بلسانٍ كلسان الآدميِّ؛ ولها جناحان، أيضاً، وقلبٌ، وذاكرة تسرد بها على الرياح الأخرى أنها دلَّت ابراهيم النبيَّ على الموقع المختار لبناء الكعبة.

كانت إلْياتُ الغنم، وسناماتُ الجِمال تكوَّمُ، حين يُحْضِرها المُحْضِرون، على أرض رُصِفت بقَشٍّ ذهبيٍّ، وسوِّرتْ - على طوق دائرتها - بتراب ممزوج بالمِرَّةِ الصفراء المستخرجة من مرارات الذَّبائح، حتى لا تُداهِمَ دويباتُ العراء ذلك الشحمَ. لكن الذباب، الذي وُلِدَ من ثُؤْلولٍ في أذن الشيطان، حاصر «تاف» تسعة أيام، آتياً من صدوع الخلاءات، ومن شقوق الغيم، يسأل حصَّته من الحصاد الأبيض، غير آبه بالملح الكثير. ولما أُذيبَ الشحم كلّه، واستوى في الجوف الصلصاليِّ حانياً على حديد الأسلحة، عاد الذباب أدراجه إلى الخفاء تاركاً في «تاف» حفناتٍ من كشَّافته المستطلعة، أسوة بكل مكان آخر، في

المياه وفي اليابسة.

هَدَأَ النّون.

لُجمتْ رابيةُ «تاف» العذراء بوَهَقٍ أحمر من الطين المشويّ، وتحادثت الأسلحةُ، بعد استقرارها في صَدَفات الشحم، بلغةٍ أكثر احتراساً. أما «جواني» فظلّ يطوف من حول الزير ساعةً كل يوم، بيدين معقودتين خلف ظهره، وهو يدندن: «هذه حصانةُ الله» بصوت خفيض، كأنه يتهجَّد. وإذ انقضى ما تبقّى من صيفِ ذلك العام الموسوم برسم الزير مسكوكاً على فراغه، جرفت أمطار الخريف، والشتاء، الرمادَ الملتصق بالرابية من أثر شيِّ الطين، في فروع احتفرتْ لنفسها أخاديدَ في سفوحها، وهي تجري رماديةً داكنةً إلى حوصلة البحيرة. وفي الأخاديد الترابية ذاتها، كانت الغيوم العريقةُ تتلمَّس بأنامل المياه نَقْشها الخفيَّ في الحصى والحجر، ذلك اليوم الذي كادت السماء أن تختطف الأرض من أضلاعها، فيما كانت ثلاثة وفود ضخمة، يقودها نقباء ثلاث عشائر، تتقدَّم من تخوم «تاف» التي يتَّمها موتُ «جواني» المفاجئ وهو كهل وقويٌّ بعدُ.

البغال تغوص في الطين، والرجال يدمدمون ويتناهرون من تحت الملاءات السوداء التي التصقت بجذوعهم فوق الدّواب فبدوا أشباحاً. الأرض مطحونة. السماء مطحونة. والكلّ يرتجف من البلل الذي خرق ثيابهم السميكة وسالَ على جلودهم المقشعرَّة. لم يتمكنوا، في مسيرة ثلاثة أيام ونصف اليوم، من إيقاد نار حتّى. وكان عليهم ألاّ يتوقفوا، لأنّ جثة «جواني» لن تنتظر طويلاً.

غير أن الشهرودي كان قد تحوَّط للأمر وهو يرى مبلغ الضرورة التي توجب أن يصل النُّقباء بوفودهم إلى «تاف»

قبل الدفن. فاستخرج من شبكة أعماقه كلمةً تدحرجت برنين قويٍّ في بيت «جواني»: «الحَنُوْط» قال. وقد تعرَّقت إبطا الشيخ «ساكو» وأخاديد جبينه، حين لم يجد ما ينقل به كلمة الشهرودي إلى جدول اللغة الكردية، فكرَّرها كما هي أمام أرباب بيوت القرية، ثم التفتَ إلى اليمنيّ مستنجداً، فعرف اليمني ضراوة حيرة الشيخ، فحاول نجدته: أخرجَ ورقاً من جيب في حزامه العريض، الذي يعتقد البعض - قطعاً - أن الجيوب الكثيرة فيه تتسع لثلاثة مصاحف، وستمائة نقدٍ «مجيدي» من المعدن المسكوك، وعشرين رقية مكتوبة على جلد اليربوع، وكيسٍ من الكحل، ومرآة دائرية في حجم حافر الحمار.

فرفص الشهرودي على الأرض ممدّداً ورقه الأصفر. أخرج قلماً مبرياً بالسكين. بلَّل رأسَهُ الأسودَ بلسانه ووضع تخطيطاً لجسد مسجًى، في مهارة، ثم قسَّم الجذعِ العلوي للجسد بخط مستقيم، من الحَلْق حتى العانة: «نشقُّه» قال، فارتعد «ساكو» وارتعدتْ ترجمتُه.

لا عهدَ لأحدٍ، في «تاف»، وفي الهضبات الأبعد من مرمى شمسها، بأمرٍ اسمه شَقُّ الميت. العبث بالجثة عبثٌ بجلال الحياة نَفْسِها، وبالسَّكينة التي هي مفتاح الله إلى حجابه القريب. لربما تناهى إلى البعض أن أطباء المدن التّائهة في غماماتِ ما بعد تخوم الأرض يعمدون إلى شيء من ذلك المُنْكَر. لكنه أمرٌ مقرون بفُتيا العقلِ النَّهم إلى وجوب التفسير. وفي هذا زَعْمٌ أن لكل مكانٍ عقلٌ، بحسب مراتب نشوء الطين، وسيرورراته المُمْتَحَنَةِ حتى اكتمالِهِ هيئَةً حيَّةً، وهو مُسْتَقى من شفاعةِ فراغِ ذلك المكان. وفي الزَّعم أيضاً أن لكل مكانٍ فراغاً يُفنِّدُه، ويبعثره، ثم يصوغه ثانية

بحسب ضروراتٍ توجب على العقل تدبيرَها، تماماً كما يصوغ العقلُ برهانَهُ ويفنِّده، ويعيد ترميمَه - من ثَمَّ - حتى لا يضيع في غَلَبَةِ القلق عليه.

وإذ يراهم الشهرودي في ريبةٍ من اقتراحه، وببعضهم امتعاضٌ تدلُّ عليه ارتجافاتُ الرؤوس وإرخاءُ الحواجب على العيون كأنما يشحذون نظراتهم على مبارد الظلال في المحاجر، أخذهم بسؤاله الهيِّن: «كيف ستحفظون الجثة حتى مجيء النُّقباء الأسياد؟». نعم. المطر، والبَرَد، والريحُ المصطكة من هذيان خيالها غير قادرة على منع فساد الدم واللحم إلاّ إلى حينٍ قليل. ذلك ما لمحه الشهرودي في تمتمات القوم الخفيضة. لكنهم عادوا يهزون رؤوسهم مستكبرين أن يُشَقَّ الميّت، وكانوا يعبّرون عن الأمر بإشارات من أيديهم يمرّرونها من حلوقهم إلى بطونهم، في خطوط مستقيمة هي خيالُ الشفرة التي يتصوّرون بها أضلاعاً إنسانيةً تتفتّح عن عتمات ليس إلاَّ سِرَّ الكيانِ الملتحم، المتوارثِ من الطين العارف بالأسماء الأولى للدَّهر.

«ساكو» الشيخ دمدم بكلمة مثل رماد مالح: «ستهترئ» وكان يعني جثة «جواني»، فتعلّقت الأبصار، من تلقائها، بوجه الشهرودي الشاحب، الجالس على بساط الصوف في ركنٍ من الغرفة الطويلة على نحو مسرف في طوله، فأطرق الرجل، مردّداً: «سيحفظُهُ الحنوطُ»، ورسم حركةً صقيعية من حلقه حتى بطنه: «يتوجَّب أن...» غير أن «ساكو» المحدّق، بدوره، في الرجل الشاحب، لم يترجم شيئاً من قول اليمنيّ: لقد فهم الجَمْعُ رابطاً مّا، غريباً، بين شقِّ جسد الميت وحفْظِه من الفساد.

هدأ **النون**.

لِفافات التبغ اجتاحت الأيدي والأفواه، متألقةٌ بجمرها المسكون. الدخان مسَّدَ اللّحى، وترقرق هانئاً إلى السقف بعدما بسطَ ضبابَهُ بين الصفوف المتقابلة على بُلُسِ الغرفة المفرطة في طولها. تقدَّم «ساكو» كغلالةٍ من دخان صوب الشهرودي، متجاوزاً شخصاً كان يجلس بينهما. زحف على ركبتيه وظهرُهُ إلى القاعدين. استرخى، ثم سألَ اليمنيَّ بصوت مرتعش قليلاً، لكنه مرتفع ليعرف الآخرون مقامَ سؤاله: «ما هو الحَنُوط؟».

لمس الشهرودي شعيراتِ ذقنه المتناثرةِ مفكِّراً. عرف أن عليه تقريب المسألة من فهمهم بإشارات، لكن الإشارات لن تكفي. أدركَ ذلك، ثم نطقَ: «نحشو جسد جواني بالطِّيْبِ»، وبدا مسروراً من كلماته. «نحشوه بالطّيْب». نعم. إنه تكريمٌ سيغلبُ على فظاظة شقِّ الميت: هذا ما خمَّنَ.

لم يفهم أحد شيئاً. تفحّصت الأعينُ مجرَّاتِ هيكله النحيل، وغضاريفَ أذنيه وحَرْقَدَته، قبل أن تستدير إلى «ساكو» الشيخ، الذي فتح فمه وأبقى الكلمات معلَّقة في تجويفه الرَّطب.

مسَّدَ دخانُ لفافاتِ التبغ سكونَ الغرفة المفرطة في طولها. حدَّق «ساكو» جانبياً، في وجه الشهرودي، وحرَّضه هامساً: «أعندك ما يُفْهَم؟»، فأطلق اليمنيُّ العنان لصوته المسترسل، الذي حظيَ منه الجالسون برنين اللغة العربية مقداراً يفوق ما سمعه واحدهم في سنين عمره كلّها: «يفسد من الجسد ما هو قوامُ الحياة فيه قبل الموت، أوَّلاً بأوّل...». هكذا افتتحَ مكاشفتَهُ المصونَة بعلومٍ تُلْهِم عينيه ثقَةَ المجاز الأكيد. وأردفَ صمْتَهُ القصير بحركة من يديه المعروقتين: «الدماغ... هنا...» وأشار إلى قحف رأسه:

«يفسد هذا أوّلاً، ثم يفسد القلب، ثم الرئة، ثم الكبد، ثم الأحشاء»، ونهض من مجلسه أمام الأبصار الزائغة في فراغ إشاراته: «مُذْ خُلِقَ الباطنُ خلِقَ فسادُه معه». وعلى نحوٍ لم يتكهن به أحد حتى هو نَفْسُه، بدأ يغني غناءً خفيضاً بلغته المهجورة، التي تتقوَّض فيها الحروف من وحشتها.

تنفَّس **النّون**.

نهض نَفَرٌ من الجمع الجالس، متوجّسين من غناء الشهرودي. تمتموا: «أسْكِتْهُ يا ساكو»، ثم خرجوا من الباب. نهض شخصان آخران. رميا بأعقاب لفافتيهما إلى الركن الترابي من الغرفة غير المغطّى ببساط، حيث تراكمت أعقابُ لفافات التبغ بعلوّ إصبعين عن الأرض، وخرجا بدورهما، مغطيين رأسيهما بعباءتيهما.

شدَّ «ساكو» طرف ثوب الشهرودي في رفقٍ، قائلاً بالعربية: «اجلس يا ضيف الله» كما يقول بعض البُداة، فتوقف الشهرودي عن غنائه. مسح وجهه بحطته، وعاد فجلس، فيما بدأت الغرفة المفرطة في طولها تخلو من القوم تباعاً، يخرجون وعلى وجوههم وجومٌ، وفي أعينهم ما لا يستقرُّ.

«ساكو» والشهرودي لم يبرحا البَلَسَ الصُّوفَ الذي يجلسان عليه متجاورين. اتّسع لهما الفراغُ أكثر مذ خَلَت الغرفة من الرجال. كلمة واحدة، لا غير، نزفت في صمتهما الطويل: «أَرِني هذا» قال «ساكو»، ولمس بإصبعه جيباً في حزام الشهرودي العريض، الذي فك إبزيماً صغيراً يقفل الغطاء الجلديَّ فوق الجيب، وأخرج رقعة القماش الرقيقة، التي يتوسطها رَسْمُ **الحوت** بقرونه الثلاثة ذات الشعب اللامتناهية، فتناولها الشيخ متمعّناً، لا ينبس. ثم مرَّر

أصابعه الخشنة بأناةٍ فوق الرسم، في ضوء السراجين الكبيرين على أرض الغرفة. التفت مرَّة واحدة إلى الشهرودي، فألفاه يتأمّله. ابتسم أحدهما للآخر قبل أن تعود الرقعة القماش مطوية إلى جيب الحزام الجلديّ.

مرت ثلاثة أيام ولم يصل نقباء العشائر الثلاث إلى «تاف» بعدُ، فخرج لغطُ القوم إلى العلن: جثة «جواني» لن تحتمل تأجيلاً أطول، ولو أثلجت الأرض والسماء معاً فوق سرير الرجل الذي ازداد شحوبه في إحدى الغرف، لذلك لم يجد البعض غضاضة من العودة إلى «ساكو»: «قلْ للشهرودي أن يجرِّب حكمتَه»، فبدأ الشهرودي مهمَّته الشاحبةَ بالسؤال عن مادَّة حنوطه: «أريد لبَّاناً، ورنداً، ومسكاً، وأفاوية، وزعفراناً...»، فكاد «ساكو» أن يلعن ألغْازَ اليمنيِّ: «ماذا تعني؟» كان يسأله كلَّما ذكر الشهرودي اسماً من أسماء الطِّيْب.

أيُّ رنْدٍ؟ أيّ مسك؟ أية أفاوية أو زعفران؟. لا شيء من ذلك في «تاف»، فالتهبَ قلقُ الشهرودي. لكن جثة «جواني» كانت قد صارت مُهيَّأةً، مُذْ سُجّيَتْ - عاريةً - على لوح عريض من الخشب، تحت خيمة جرى نصبها في الساحة الترابية الباردة، ووُضِع على طرفٍ من اللوح طشتُ ماء، وكيس من القنَّب، ومقصٌّ مسنونٌ، ذو حديد محترق، مما يستخدمون في جزِّ صوف الأغنام.

كيف فاتَ الشهرودي أن يتحرَّى وجود أصنافٍ من الطِّيْبِ يستخدمها حَنُوطاً، قبل الشروع في صقل جمرةِ فكرته تحت رئات القوم، ليشمّوا عبَقَها بأنوفهم حتى لو لم يفهموا لُغزاً لا يحيطون به؟ كان عليه، وقد صارت الجثةُ على مرمى إشاراته الطيفية، أن يتدارك الأمر بالحيلة، فارتأى

أن يجمعوا له مثاقيلَ من التبغ ، وعيدان الشاي ، والبابونج المجفَّف ، والحنَّاء ، فأتاه طلَبُه في يُسْرٍ ، كلُّ مادّة في سطلٍ فضيٍّ كرويٍّ ، له مقبض مزخرف بستة أشكال للحرف العربيّ الواحد .

الشهرودي ، و«ساكو» الشيخ ، وحدهما ، ارتادا الخيمةَ : «جواني» يبدو معافى ، لكن شاحباً أقرب إلى شحوب البرد منه إلى الموت . شفتاه متقلّصتان قليلاً ، عليهما آخر غَبْرةٍ من كلمات الحياة ، حين قال لامرأته ، ذلك الصباح المطير ، وهو ينتعل خُفَّيه الصَّلبين : «لديَّ ما أقوله لله» . هذا ما سردتْهُ امرأته «خانيا بوران» التي زعمت أنها لمحت رأسَيْ طيرين منعكسين على حدقتي عينيه . وتقول إنها استكبرت عليه كلماته ، فعاتبتْهُ : «إذا كان لديك ما تقوله لله فقد تبلَّغ منك حتى قبل أن تقول...» ، لكنه حدَّجها بنظرة متأمِّلة : «سأقول له ما عندي على نحوٍ آخر» ، وتوجه إلى الباب ثم جلس على عتبته ، مستنداً بكتفه إلى دفَّتِهِ وساقاه ممدَّدتان أمامه ، تحت المطر تماماً . وبعد ذلك ببرهةٍ أتَّكأ بذقنه على صدره ، وزفر زفرة خفيفة كانت آخر ما سمعته «خانيا» .

ارتعشت يد الشهرودي قليلاً حين حمل المقص البارد . نظر إلى «ساكو» فلم يجد عينيْ الشيخ اللتين غارتا في ظلام محجريه هاربتين إلى غسَقهما الموحش . ألصقَ باطنَ كفّه ، مفتوحةَ الأصابع ، بالحجاب الحاجز للجسد البارد أمامه ، ووضع نصل المقص بين السبّابة والوسطى ، ثم غرزه في رفق ، وشقَّ الجلد نزولاً حتى السرّة ، ودار من حولها حتى بلغَ العانةَ .

كانت أحشاء «جواني» منكمشةً فلم تجحظ من الشقِّ المديد . غاصت يدا الشهرودي بالمقصّ ، ففَصَلتا المعي

الغليظ في جزئه المستقيم، وصعدتا إلى المريء فبترتاه، ثم جلجلتْ كلماتُه الشاحبة ذات الصدى المرتعش: «هاتِ الكيس»، ففتح الشيخ الكيسَ القنَّب الخفيفَ، الذي ما لبث أن شدَّه إلى الأرض ثقلُ أحشاء «جواني» التي استقرت فيه فكاد يسقط من يديه. وبعد قليل من المعالجة الدامية بالمقص وبالأصابع حمل الشهرودي معلاق الرجل الميت بجملته: الرئتين، والقلب، والكبد، والبنكرياس، وما عليها من شحم، ثم أودعَه الكيسَ فامتلأ.

غسل الشهرودي يديه، وأعان «ساكو» في إغلاق الكيس بإحكام، قبل أن يبسط، لصق الجثة، الآنيةَ الفضةَ الملأى بما سيكون حَنُوطاً لم يسبقه أحد إليه، فمسَّد باطنَ الجثة بالحناء طبقةً سميكةً بعد عَجْنِهِ بالماء، وألصق بتلك الطبقةِ طبقةً من عيدان الشاي السوداء، الدقيقة المطحونة طحْناً خشناً، ثم حشا باطن العانة، وطرفَ أنبوب المريء المقطوع، بالبابُونج. أما الجوف المستدير، الذي بان أكثر عمقاً ممّا هو عليه في مركز الجسد المفتوح، فقد ضغط فيه الشهرودي كَدْساً بعد كَدْسٍ من التبغ على أصنافه العسلية، والصفراء، والبُنِّية الغامقة، تتناجى بروائح من سفوح جبال الدخان العشرة، خلف بحيراتِ «وانْ» العشر.

عادت الاستدارة إلى الجسد الميت بعدما انخسَفَ وسطُهُ بعضَ الوقت، وسُمعَ في فراغه نَفْخٌ كزفير الأحياء، وقبل أن يخيِّطه الشهرودي بخيط مجدولٍ من الصوف المُشَمَّع بشمع النحل، دسَّ في جوف «جواني» على مرأى من «ساكو» الشيخ، قطعةً صغيرة من القصدير، مُتمتماً: «سيجلو بها إناءَ شرابه، في القبر»، وغرزَ في الجلد إبرةً من الحديد يلحمُ بها الشقَّ الطويل.

رُفعت الخيمةُ ليغسل المطرُ القويُّ تلك الخشبة التي سُجّي عليها «جواني» ، بعد ما نُقِلَ جسدُه ، مكفَّناً ، إلى غرفة من الغُرف الأربعين ، ليستقر على فراش وثير ، على جانبيه مسطبتان تتسعان لجلوس أربعينَ شخصاً متلاصقين. وفي وسط الغرفة عمود ، بقامة رجل ، هو جذع شجرة لم تُشَذَّب نتوءاتُ غصونها التي كانت فيها ، فجُعِلَتْ كالمشجب ، عُلِّقَ عليها المصاحفُ في جيوبٍ من القماش لها حمّالاتٌ ، وللحمّالات وشيٌ كريمٌ من خيوط المخمل ، والحرير غير الممسوس.

لم يهتزَّ **النُون**. سجَّر الانتظارُ حَجَرهُ الأملسَ في مواقد أهل «تاف».

نقباءُ العشائر الثلاث يعرقون تحت المطر ، مضطرين إلى دفع دوابهم وعرباتهم بالأيدي ، حتى لا تغوص في المسالك الطينية. ثلاث عشائر من ثلاث جهات: الشرق ، والجنوب ، والشمال. لا اتفاق في موعد قدومها ، وصَلَها الرُّسُل اللاهثون ، فأعدَّت للرحيل على عجلٍ ، بالخفيف من الرُّزِّ والأَنعام لاستجلاب البَرَكة إلى روح «جواني» ، وبالقليل من الأبَّهة التي تليق بنقباء متجافيْنَ ، لا يكلِّم أحدهم الآخر ، ويتباهى عليه بإرث الجهة التي هو منها. ولم يغفلوا - كلُّ واحدٍ بفراسةِ الوجيه التي فيه - أن يحضروا آيةً تُرى رأْي العين ، فيها بلاغةُ ما اتَّصل إلى ذلك النقيب الدُّهقانِ من مفاخر العصر ، ومن عجيبٍ له السَّبْقُ فيه. لكن المداهمة غير الرحيمة للمطرِ السيلِ أصابتهم بعناءٍ تنفتل منه رئاتُ الهضاب والسهول معاً ، وأخَّرَهم الطينُ الذي كان يلتفّ على ربلات سيقان الرجال والدواب كنباتٍ معرِّش ثقيل ، وله لَسْعٌ يكوي لا يشبه الجليد ولا يشبه النار.

«جابو النّابوري» كان على رأس لفيف من أشراف عشائر «داري» الجنوبية، القاطنة بادية «بور» وأطراف صحراء «ماهيل» التي يتبدل فيها الرمل تسع مرات في اليوم الواحد، والحجارة نزيفٌ دائم من هبابٍ معدنيٍّ يتذرَّى جداولَ من سرابٍ تتلاحم وتتفارق كالزئبق. وكان الرجل في لفيف قومه المنكوب، وسط سخرية المطر التي لم يألفها. ترغو جماله الثمانية عشر، وتحمحم جياده السبعة، وترفس أتانه البيضاء الضخمة من حَرَدٍ وتَظَلُّمٍ. رجاله ملثمون في عباءاتهم المضمومة الحواشي على خصورهم حتى لا تلمس الأرضَ الموحلة. يتناهرون مصطكين بالرِّعدة المتسربة من الهواء البارد إلى عظامهم المُنَشَّأَةِ بالشمس وبالجفاف.

أحضر «النابوري» راعياً أيضاً، إمعاناً في توقير الرَّاحل، وإثارةً لذِكْرٍ يريده مديداً إلى ما بعد رحيله عن «تاف»، بتعاقب ثلاثة أقمارٍ في الأقل. وكان الراعي مُجْهَداً أكثر من أولئك جميعاً، بتيوسه العشرين التي تتلكأ، وتغوص في الوحل، وتنفر مذعورةً من الرعود فتكاد تتفرَّق في الأرض وفي السماء، أو يمتصّها غبشُ المطر الكثيف كضبابٍ مرصود؛ وهو يركض كالممسوس إلى الجهات كلِّها، في عباءته الغبراء التي من وَبر النُّوق وقد أثقلت عليه بما فيها من ماءٍ، يصرخ كأنما يبدّد عن نَفْسه رهبةَ الرعد بصوته الذي ينثقبُ، وينحلُّ نازلاً إلى الطين. غير أن عناءه لم يكن عناء الراعي الوحيد في الإقليم الترابيِّ الشاسع، ذلك اليوم المحموم، الذي آوى فيه كل شيء إلى ما يخفيه. ولولا أَقدامُ الرجال على الأرض لظنوا الأرضَ، ذاتها، أُلجِئَتْ إلى مستورٍ. فمن الشرق، أيضاً، ثمة راعٍ يسوق عشرين كبشاً، مُعَنًّى، لاهثٌ، عليه سترة طويلة من الجلد فوق سروال

واسع ، وفوق الجميع من لباسه غطاءٌ سميك لا ملامح له ، ينزل من قمة رأسه إلى ركبتيه. بيد أن الجَمْع الذي كان الراعي فيه ، من عشائر النجود الشرقية ، لم يكن مصعوقاً بذلك المطر مثل لفيفِ «النابوري» البُداةِ ، فهم ألفوا ، من قبل ، سيولاً في الأنهار ، واندفاقاتٍ من سفوح الهضبات ، وانخلاعات في أواصر السماء تعرقُ منها الأرضُ عَرَقاً كالطوفان.

كان «الحَكَمُ الجنيُّ» نقيبُ عشائر النجود الشرقية ، المتآخيةِ مع الأنهار ، يُبدي ثباتاً وصبراً جمَّين بوجهه المكشوف الرقيق العظام مع استطالةٍ واضحة. لا يلتفت من حوله كثيراً ، ممسكاً بلجام فرس يقود عربةً على عجلتين ، لها هيكل مغلق من الخشب المقرون بحبال. وإذا ألوى عنقه فإنما يستطلع عناءَ الراعي إلى الشمال منه ، ولربّما حثَّ واحداً من بطانته ، مُنادى باسمه ، أن يعين ناظرَ الأكباش على تفرُّق قطيعه المُستاء من اختيار وقت كهذا لا يعزِّزُ الرِّفْعَة التي لقرونه الضِّخامِ ، اللولبيةِ مثل زوابع متجمِّدةٍ.

لقبُه «الحَكَم الجنيّ» ، أما اسمه اللزوم فهو «الحارث القَطِيْن». وقد نُسِبَ إلى الحكمة لاتِّصاله أبداً بضفاف الأنهار ، التي يُقرن الماء فيها بسلاسل العقل المعقودة براهينَ لا تنفكّ ولا تنقطع. كما أُرْفِق نَسَبُ الحكمةِ فيه بخواصِّ الجنّ: لا مكان تكون فيه حكمة إلاّ ويكون فيه الجنّ ، لأنَّ الجنَّ هي مقتضى امتحان العقل ، والحكمةُ ثباتُ العقل ما بعد المحنة. هكذا يزعم أهل النجود الشرقية. بينما تذهب عشائر الشمال إلى خلاف ذلك ، فتتطيَّر من الرجال الذين يرْتَقون الكلامَ بسلالم الدَّهاء ، وهم يَرْمُون إلى محادثيهم نُوىً من اللغة يقولون إنها علوم الإرث الكبيرة ،

وهي المصكوكات الصلبة لاحتمال الإنسان، ورؤى قلبه، في نهاية كل محنة: «الحكمةُ ولادةٌ من ولادات الصبر».

ولعشائر الشمال، التي كان نقيبها «خباتْ كولاف» يشقُّ بمحراث روحه - ذلك اليوم، بدوره - حقولَ المطر إلى «تاف»، ما تؤكد به حَذَرها، وريبتها من الذين يتداولون مصكوكات الحكمة في محادثاتهم، لأن اختزال الكلام إلى كنايةٍ وتورية، يُرمى بهما إلى مطابقةِ الحقيقة مع كنهها، لهْوَ ضربٌ من الافتتان بمَلَكَةٍ ليست من نصيب اليقين. والحكمة، في زعم قوم «خبات كولاف» تكون معقودةً، بضرورة اشتراعها، لاقتدارَيْنِ: الإلهيِّ، والسِّحْرِ. كلاهما يُرَمِّزُ، ويقتصد في المعنى. لكنَّ فرقَهما هو ما ينبغي حسابُه بهداية القلب. فالمذهب في مكاشفات الإلهيِّ، المجلوَّةِ بالرمز واقتصاد المعنى، هو الإعجاز، حيث يُغيِّبُ الزمنِ بإحالته إلى حرفٍ. لأن تلك المكاشفات ليست قولاً يقالُ في موقفٍ، بل هي النَّشأَةُ الطليقةُ للخواص الكُلّيَّة من الأزلِ إلى الأبد. فيما السِّحر استنساخٌ، وحذفٌ، وتحويرٌ باسترهانِ الروحِ للتجديف بالصيرورات والعلَل. وقد يضيف الخاصَّة من دهاقنة عشائر الشمال، وهم قُرَّاء المصاحف الممحوَّة بتقادمها، أن السِّحْرَ هو الخوف وقد تبدَّى عِلْماً.

«خبات كولاف» استقدم راعياً، بدوره، إلى «تاف»، يهشُّ تحت المطر الطائش على عشرين غزالاً بُنِّياً، استؤنست في حظائر سهول «دانو»، المطوَّقة من ثلاث جهات بغابات الزَّان. وكان واضحاً أن الراعي، وغزلانه العشرين، وكلبه الذئبي الضخم، على اتفاق في البقاء متلاصقين، لا رهبةً من ذلك المطر العاتي، بل ولاءً للصّلة الدافئة بينهم وهم

يعبرون الصَّقعَ الطينيَّ إلى تخومٍ غريبة.
بعض رجال «خبات كولاف» كانوا موكّلين بعربة مستطيلة كالمحفَّة، عليها ما يشبه الهودج وقد جرى إحكامُ ستارٍ عليه يقي شيئاً نفيساً، ربما، في عتمته. وكانوا يترفقون بالجوادين اللذين يجرّان العربة، كما يعينونها على المضيّ دون تمايلٍ كثير، بدفع خفيفٍ من راحاتهم. غير أن بروقاً صلبة، لها رائحة الكمأِ، وزَّعت إشاراتِها المتشعبة كلغة أهل المتاهات، فالتمعت في البعيد أشباح منازل «تاف». وفي ضيائها الومِض، المتجسّدِ من الثّقل الأعظم للشهوات العَجُولة، تنفَّس نقباء العشائر الثلاث، كلٌّ في جهته على التخوم التي بدأت تتقاصر وتنطوي، وهم يلمحون هيكلَ الزِّيْر الصلصاليّ البعيد، مرتفعاً عن قمة النَّهد الترابي الشبيه بهضبة صغيرة، كأنما هو معلَّق في الفضاء بعلوٍّ أمتارٍ عن الأرض.
تنفَّس **النّون**، أيضاً، ثم أُعلنتِ الهدنةُ الخفيةُ فلجمَ المطرُ طواويسَه الغاضبة.
قال الشهرودي لـ «ساكو» ظهيرةَ ذلك اليوم المنطفئةَ مثل لفافة تبغٍ مبتلّة، إنه يسمع لهاثاً، أو يشمُّه في الفوح الرّاكد لمياه المطر. وزعم للرجل الشيخ، ذي العينين الغائرتين إلى حقولهما المعتمة، أنَّ وافدين سيصلون إلى «تاف» من جهة الغرب. لكن صخب الصِّبْيَة، الذين خرجوا بعد احتباس المطر يكمنون للحلزون على ضفاف البحيرة، أكّد بعضَ زعمِهِ فحسب، لأنّ وافدين وصلوا - حقاً - إلى عتبات «تاف»، إنما من الشمال والجنوب والشرق. وقد طاشتْ حلقاتُ الصّبية الناحلين كقصب البحيرة، فتنافروا جماعاتٍ راكضةً إلى ثلاث جهات، حفاةً في الطين،

يمسون بأسنانهم القوية على أطراف جلابيبهم، التي رفعوها عن سيقانهم لتتحرَّر فيشتدَّ السباقُ في الركض. وكان صراخهم المجلجل بإثارتِهِ إيذاناً بانتهاء ذلك الانتظار البارد لقوم «جواني»، فخرجت النساء إلى عتبات أبوابهن لا يتجاوزنَها، وانطلق الرجال معقودي الأيدي خلف ظهورهم إلى الساحة الكبيرة، التي يتصل طرفها شرقاً بالبحيرة، وغرباً بساحة بيت «جواني» ذي الغرف الأربعين.

وصل «جابو النابوري» أولاً، متأبطاً عصا الخروب الضخمة التي لا تفارقه. ثم وصل «خبات كولاف» ورهطه وغزلانه، ثم «الحكم الجني» ذو اللحية المنبثَّةِ متفرِّقةً على وجهه دون كثافةٍ، فتواجه الثلاثةُ أمام الدِّكَّة الترابية التي تتوسط ساحة بيت «جواني». وقفوا متباعدين ينقلون أبصارهم واحدهم إلى وجه الآخر، في حَذَرٍ صامتٍ، وسط رهبة خفيَّة سادت الهواءَ والقلوبَ معاً. ثم ما لبث أن تدخَّل الأدِلاَّء يفضّون اشتباك الأعين بين أولئك الأقوياء، وصاروا يدلّون كل نقيبٍ مع رهطه على المسكن الذي سينزل فيه، فتفرّقت الجمهرةُ ثلاث شِعَبٍ تتَّبع كلمات الترحيب الصارمة في أفواه من تولّوا الأخذَ بخطواتهم إلى المَضافات. فيما هرع أدلاّء آخرون، من عامة قوم «جواني»، إلى الرعاة الثلاثة وأنعامهم، وكذلك إلى دواب الوافدين فقادوها، زُمَرَاً، إلى الزرائب الطينية، المسقوفة بالقش وبالخيزران الأخضر، جاعلين لكل عشيرة نصيبها المنفصل عن الأخرى، حيث تستقيم أسوار منخفضة، بعلو متر لا أكثر، في المستطيل المديد لأرض الحيوانات، فتنقسم بذلك إلى مربعات كبيرة، مفتوحة على الجزء الجنوبي الشرقي من البحيرة، وأمام كل واجهة مفتوحة فيها، من

الداخل، دكَّة طينية طويلة لينام عليها الرعاة.

وحدها تلك العربات المقفلة، التي أحضرها النقباءُ تجرّها الجياد في حرصٍ، لم تبرح ساحة بيت «جواني». وبإشاراتٍ من الأيدي، والأعين، والأفواه، أدرك القائمون على تدبير راحة الوافدين أن هؤلاء يريدون عرباتهم جاثمة أمام أبواب المساكن التي ينزلونها حتى الغد، ليعرض كلّ نقيبٍ ما أحضره في ستُورٍ سيتكهن بالدَّفين الذي فيه كلُّ أهل «تاف»، حتى الفجر. وكذلك سيتكهن كل نقيب بما أحضره الآخر، متوجِّساً منه، لما قد ينطوي على مضمار هو أكثر جلالاً مما تحصَّلَ له بسلطانه، وبُعْدِ شأنه. غير أنهم تحسّبوا للجسّاسين الذين، ربما، اتخذوا من الليل خطواتٍ إلى تلك المستورات ليتبيَّنوا ما فيها، فأقام كلُّ رهطٍ رجالاً على باب المضافة التي ينزلها، لا يصرف بصره عن العربة الساكنة بعدما سرَّحوا الجياد عنها إلى الزرائب.

في المغيب الصارم، الذي تشقَّقت غيومه قليلاً، دُعي النقباء الثلاثة، بإجلال، إلى الغرفة المفرطة في طولها، ذات البُلُس المنجَّدةِ بأيدي النّجادين العُتاة، ليفتتحوا مشاوراتهم الأولى حول ما سيكون للغد من نصيب في موت «جواني». وقد أُحْضر عشاء أُنْضِجَ على عجل، من صحاف البرغل والسمن لا أكثر، ريثما ينجلي ليلِ ذلك اليوم عن القادم من صباح النَّحْرِ الكبير، حيث ستتضَّرج ضفاف البحيرة، من جهاتها الأربع، بدمٍ دافئ، وينبني ممرٌّ من عظام الذَّبائح بين أوّل بيت في شمال «تاف» وآخر بيت في جنوبها. أما الجلود فستكفي مائتي عباءة، وستة وعشرين طبلاً يتداولها جيلان من الطبالين في الأعراس.

تفادى الأعيان من قوم «جواني» أن يحضروا النقباء معاً،

لئلا يختلط الأمر وتتّقد المشاحنةُ على من يكون الأوْلى
بالدخول إلى الغرفة المديدة، فاقترحوا، بحضور ثلاثة من
رهط النقباء الثلاثة، اللجوء إلى القرعة، فاستحصلوا
الموافقات من الأَعْليْنَ. وهكذا خُلطت في باطن قربةٍ
حصواتٌ ثلاث، ملوَّنة، يستخرجُها المندوبون إلى القرعة
واحداً بعد آخر، بحسب مراتب اللون، فكان المُفْتَتِحُ
«خبات كولاف»، يليه «جابو النابوري» ومن ثمَّ «الحَكَم
الجنيّ». فدخل كلُّ نقيب برهطه يتخيَّر مجلسه حيث يريد،
متقابليْنِ: «النابوري» لصق الحائط الغربي، و«كولاف» لصق
الشرقيّ، فيما اتخذ «الجنيُّ» الحائطَ الجنوبَ، متصدّراً
فضاء الغرفة أمامه حتى حائطها الشمالي، الذي توازى معه
أربعةُ صفوف من قوم «جواني» بين مُصْغٍ إلى ما سيقال،
ومشرفٍ على الضيافة، وساعينَ بالخدمة، يتبادلون النهوض
والقعود كلما دخلت صحافٌ من البرغل الساخن، أو
خرجت أباريق الماء الفضيّة ليُعاد مَلْؤُها.

تقدم «ساكو» في جلسته، قومَ «جواني»، فبات أقرب إلى
صحن الغرفة، لا لِحَسَبٍ فيه، بل لتوسُّمِ المضيفين أن يوفّق
قليلاً، بترجمته، بين لغاتٍ ثلاث على قَدْر وسْعِهِ. وقد
انضمَّ إليه الشهرودي، بغتة، جالساً لصقه، مدفوعاً من «دارا»
عم «جواني»، عسى يكون وسيطاً، بدوره، إلى ما سيخفى
على أهل «تاف» في الرطانات المُحْتملة، القوية، للنقباء.
ولم ينسَ اليمني أن يحضر أُمَّه العجوز في غلافٍ من ثيابها
الصفراء، ذات الخطوط السود، فجلست، بدورها، خلف
«ساكو» والشهرودي، تلتمع عيناها المتّقدتان في فسحة من
نقابها الذي يغطي وجهها. وقد تأوّهت حين جثت على
ركبتيها أوّلاً، قبل أن يستقرّ عجزها على الأرض الترابية،

فالتفت إليها ابنها ينهرها بحروف تدحرجت خافتةً من أعماق حنجرته، ثم سكت حين دخلت «خانيا بوران» وتوجهت إلى جوار أمّ الشهرودي لتقتعد الترابَ، وهي في لثامٍ اتخذتْهُ من ذيلِ غطاء رأسها الذي استعار من ريش الطواويس دوائرَهُ الزاهية.

لم تتوقف الأيدي عن اغتراف البرغل من الصحاف دون ملاعق، بالرغم من الزفرات المهموسة التي صاحبتْ جلوس زوج الفقيد. «ساكو» و«الشهرودي» مضغا الطعام في تؤدة، أيضاً، قبل أن يرين صمتٌ معدنيٌّ على الصحاف والأفواه، لمّا نطق «جابو النابوري»، بصوتٍ خشن يؤكّد به امتلاء الفراغ: «سيسهر رهطي على «جواني» الكريم ابن الكرماء، هذه الليلة، ثم حنى جذعه على صحفته يغترف منها ملء راحته برغلاً ملتمعاً بسخاء السمن.

أسند «خبات كولاڤ» ظهره إلى الحائط، وفعل مثله «الحكم الجنيُّ» يتمحَّصان كلمات «النابوري» بلغة أهل عفار التي لا يفهمانها. «ساكو» لم يفهم حرفاً، بدوره. طنت ذبابةٌ في أحشائه حين وجد نفْسَه لا حول لها. استجار بالشهرودي مائلاً عليه: «قُلْ شيئاً»، فدمدم اليمني ملقياً بجليد ردّه على أطراف الشيخ: «هذه ليست لغة».

تنفَّس **النون** عميقاً، فتناثرت عن قرونه ذوات الشِّعَب اللامتناهية ذرَّاتٌ هي أصل كل لون، ومن كل ذرة نَمَتْ حقول من المرجان في البحار.

خفَّ القائمون على الخدمة يرفعون الصحاف الفارغة، ثم جيْءَ بثلاثة صحون عميقة من النحاس، غسل كل نقيب في واحدة منها يديه، يعينه حاملُ إبريق من التوتياء الملتمعة، وهُمْ جلوسٌ. بعد ذلك رفرفت جمراتُ التبغ الشرهة،

وأطبقت الراحات على كؤوس الشاي الأسود تتدفأ بها.
همهم «النابوري»: «أخرجا دفتريكما»، فسارع شخص إلى شماله، وآخر إلى يمينه، يفكّان كيسين من القماش استخرجا منهما رزمتين من الورق الشاحب خيْطتا بخيوط مُسدّت بالشمع فصارتا مثل كتابين. سَلّا قلميْن أسودين من باطني حزاميهما العريضين، وتأهّبا للتدوين.

«ارْسُما شيئاً» قال «النابوري» البدين، ذو الملامح القاسية، فجعل الرجلان يتفكران من حوله. يضعان القلمين على جبينيهما يستحثان الظلام الذي خلف العَظْم أن يرمي إلى ضياء الفانوس القويّ، وسط الغرفة المديدة، بأشكالٍ كريمةٍ يقدران على التقاطها. أشعل كلٌّ منهما لفافة تبغ من عقب لفافة تبغ. أضاء الجمرُ عينيهما، ورقّق المتاهاتِ. همس «ساكو» إلى الشهرودي: «سيرسمان **النون**. أعطِهما قماشك المزيّن بالنون»، فمال عليه اليمني: «منذ متى بدأت تفهم ما يقوله النابوري؟»، فانكمشت أطراف «ساكو».

هيمن الترقُّبُ، المُذَهَّبُ بالريبة، على نقيبَيْ الشرق والشمال: لقد افتتح «النابوري»، إذاً، بقصدٍ استعراضيٍّ، أوّل كمين يتصيد منه المأتى إلى روح «جواني» وأثره الأرضيِّ. وباتفاقٍ صامت قرّرا أن يتركا للرجل ذي الملامح القاسية إبانةَ ما لديه من رثاتٍ يتنفّس بها علومَه في موقف كهذا. لكنهما أوعزا، بنحنحاتٍ ظاهرةِ المرامي، إلى كَتَبَتِهما، الحامليْنَ دفاترَ المجازات الحقّة، أن يكونوا على أهبةٍ لالتقاط خفايا أبعد من تدوين كاتبَيْ «النابوري» بقلميهما المُضَلِّلَيْن. ولدقائق ثقيلة لم يفعل الكاتبان شيئاً سوى الانحناء على دفتريهما، والارتداد عنهما، وهما يحكّان

بالقلمين ظاهريْ يديهما ، لعلَّ الوخزَ والهَرْشَ يبعثان دبيباً في الرؤيا المتجمدة تحت قشرة خياليهما . لكن «النابوري» بدَّل موقع لُغزه على مشارف الفراغ في الغرفة ، فدمدم : «اكتبا شيئاً ما دمتما لا ترسمان» ، فأبدى الرجلان حماسة لاقتراحه ، ووافقاه بألفاظ التأكيد : «نعم . حتماً» ، وأبقيا عيونهما عليه .

«لديَّ فكرةٌ» قال «النابوري» ، فعاجله الجالس إلى يمينه : «تعني أنك ستبدأ من البرهان على صلة نسبك بنسب جواني صال ؟» .

تأمَّله «النابوري» لبرهة . دمدمَ : «كنتُ أفكر في ذلك تماماً» . والتفت إلى الجالس إلى شماله : «كيف عرف ؟» ، فردّ الرجل واثقاً : «عرفها منك» .

«مني ؟» قال «النابوري» مبدياً دَهَشَه ، فأجابه الجالس إلى يمينه مؤكّداً : «نعم . منك» .

«لم أقل لكما فكرتي بعد» ، قال «النابوري» ، فمال عليه الرجلان كلٌّ من جهة ، وهمسا :

«ألم تكن تفكّر في ذلك ؟» .

«نعم» ، ردّ «النابوري» .

فاسترسل الرجلان : «أوَلم تفكّر في ذلك قبل أن يعلن أحدُنا الفكرةَ» ، فتردّد «النابوري» :

«ربما . من يدري . لعلّنا فكرنا على النحو ذاته ، في اللحظة ذاتها» .

«لا» قاطعه كاتباه بإصرار ، وأضافا : «كنت تفكّر في ذلك قبل أن يعلنها أحدُنا» .

لانَ «النابوري» قليلاً لمنطقهما : «ليكن إذاً . كنتُ أفكر بصلة النسب بيني وبين جواني قبل أن تذكُرا ذلك» .

«الفكرة لك، كما ترى»، قال كاتباه، فوافقهما: «نعم»،
. . ـى جذعه مفكّراً، فانتظر الكاتبان كلماته.
مال «ساكو» الشيخ على الشهرودي: «لماذا أصابعهم
طاويلة على هذا النحو؟».
«أصابع مَنْ؟» سأله الشهرودي، فردّ الشيخ ذو العينين
المخفيتين: «أصابع النقباء الثلاثة».
صمت الشهرودي يتأمل، للمرة الأولى، أصابع أولئك
النقباء المفرطة في طولها، قبل أن تندَّ عنه همهمةٌ فيها
فسول واضح: «إستطعت أن ترى، من هنا، أصابعَهم؟»،
ومال بوجهه على الشيخ يحدِّق في عينيه الهاربتين إلى
شكوك عمرهما. لكن «ساكو» أهمل سؤال الشهرودي، وعاد
يستوضح: «ماذا يقول النابوري، هذا، للرجلين؟»، فالتفت
الشهرودي نصفَ التفاتة، بعنقه، إلى خلف منكبه الأيسر
حيث تجلس «خانيا بوران»، وبذرَ كلماتِهِ في أثلام صمتها:
«هذه ليست لغة». وفي اللحظة تلك تسلل «دارا» الضخم،
ـم «جواني» إلى «ساكو»، في هدوء لا يثير الأعين الشاخصة
إلى «النابوري» وكاتبيه، ثم همس: «لا نفهم يا ساكو. ما
الذي يقوله ضيفنا؟»، فانكمش الشيخ في عباءته لحظةً، ثم
ردّ بكلمات حسبَها مَخْرجاً: «يطلب من كاتبيه أن يرسما
النونَ. وقد اكتفى «دارا» بذلك القدر من الجواب، على
الرّغم من الحيرة التي بثّها في عينيه كلمة «النون» التي لم
يفهمها بلفظها العربي.
قال «النابوري» وهو يعبث في حجره بعصا الخرّوب التي
مدّدها متصالبةً مع جذعه: «اكتبا أن جدّي أهدى جدَّ السيد
المغفور له جواني عصا مثل هذه»، وأشار إلى حجْره: «مثل
هذه تماماً. فيها ثلاثون عقدة، ولها قرنان صغيران في

مقبضها هما لمسةٌ من إبليس». ونظر يميناً، ثم شمالاً، يتأكد من أن الكاتبين يدوِّنان، قبل استرساله: «التقيا في ناحية حوران. ابنة أخت جدِّ المغفور له جواني زُفَّتْ إلى ابن عمٍّ لجدّي. ولربما احتمل جدُّ المغفور له ما أُهدي إليه حينها مما لا يُسمَّى»، وتردّد قليلاً في الإفصاح عن الأشياء التي لم يذكر أسماءَها. غير أنه، بعد زفرتين خفيفتين، قرّر التصريح: «حمَّلوه سَنْداناً رُقِّش غلافه بالسريانية، وأعطوه بَرْبَطاً لم تملك تلك الأنحاء من البلاد غيره». وحدَّق في الجالسين الصامتين جماعةً جماعة: «إنهما من الإرث»، وعاد يلتفت إلى كاتبيه مؤكّداً: «إنهما من الإرث الذي للعفاريين قبل أن يسكنوا البادية».

تنحنح «خبات كولاف»، وجارَاهُ «الحكم الجنيُّ»، كلٌّ باحتمالٍ مختلفٍ للتَّرقُّب الذي في قلبه، فيما مضى «النابوري» في تأكيداته، برهاناً عادياً بعد برهانٍ عاديّ، أن القربى التي عقدتْها تلك المصاهرة بين أقرباء الجدَّين، هي تخويلٌ من الأقدار أن يجلس «النابوري»، ذلك اليوم، في الغرفة المديدة، حيث: «يسمع جواني قلبي»، قال، مضيفاً: «وأنا أسمع قلبه»، ثم ارتدّ بظهره إلى الحائط، مغمضاً عينيه: «إقرآ ما دوَّنتماه عن لساني»، فرفع الكاتبان قلميهما عن الدفترين، وتبادلا الإشارات يحثُّ أحدهما الآخر أن يقرأ، حتى استقرّ التدبير على الكاتب الجالس إلى شمال «النابوري»، فقرأ بصوت خفيض كأنما لا يعنيه أن يسمع غير «النابوري»: «لك عذرك أنك لست معنا، أيها السيد جواني صال. لكننا لن نكلّفك مشقةَ ترتيب هبةٍ مما تملكه روحك وعيناك، ونحن نقبل في ذلك قِسْمَةَ الظلِّ».

فتح «النابوري» عينيه محدّقاً في الجمع الجالس لصق

الجدار الشمالي للغرفة المفرطة في طولها. انفرجت شفتاه عن كلام لم يمكِّنْهُ كاتبُهُ منه، رافعاً نبرةَ صوتِهِ أعلى: «قسمةُ الظلِّ أن نستخرج نصيباً من مكنون الزير الجليل كلما ارتسم ظلُّه جنوباً. سننتظر، في صبر، مؤاتاةَ الشمس، ولن نلبث أكثر حين ينحسر الظلّ، مكتفين بما نتمكَّن من تحصيله، وسنحفظ لك أن الهبةَ التي نستخرجها هي حصانةُ الله». ثم قوَّم الكاتبُ جذعَهُ الذي حناه فوق الدفتر من قبل، وانتظر تعقيباً من «النابوري».

مسَّد «النابوري» على شاربيه. قلَّبَ الكلامَ الذي سمعه من كاتبه كمذبَّةٍ من ذيل الحصان. ابتسم ابتسامةً لم تفلح في تبديد جهامة وجهه القاسي، ودمدم في رضىً: «نعم. هذا ما أمليْتُهُ عليك».

ارتفع صوتٌ في غير أوانه من الجهة الشمالية للغرفة: «يبدو أنك لا تسمع من مكانك هنا»، هذا ما قاله «دارا» عم «جواني» للشيخ «ساكو». وكان قد عاد يسأله عن مغزى حديث «النابوري» وكاتبيه فسمع من الشيخ تملُّصه غير الواضح بترديدِ أنهم سيرسمون **«النون»**.

«ما هذا **النون**؟» قال «دارا» مغضباً، دون أن يأبه للصدى الذي ألقى شبكتَهُ الخفيةَ على هواء الغرفة الغريق في دخان التبغ. وتوجّه، للمرة الأولى، بسؤاله إلى «الشهرودي»: أتعرف، أنت، شيئاً من مراتب هذا الحديث؟»، وأدرك أن الشهرودي لم يفهم، فحثَّ «ساكو»: «فسِّرْ له يا شيخ، لعل في علومه ما هو أبعد من بعض علوم الرعاة التي في عباءتك». وقد كاد ينفجرُ غيظاً حين عاد إليه «ساكو» بترجمةٍ مما قاله الشهرودي: «هذه ليست لغة يا سيد دارا. النابوري لم يتكلم بعد»، فصرخ: «ألا تسمعان صوتَه؟». وحدَّق في

زوج «جواني» الصامتة في لثامها: «هذان أصمّان».

تطلّع كلٌّ من «خبات كولاف» و«الحكم الجني» إلى كاتبيه أيضاً، مستفسراً: «ما الذي قاله النابوري؟»، فلم يحظيا بغير صمتيهما. فَهَمَّ نقيبُ عشائر الشمال «كولاف» بالحديث، لكن «النابوري» استرسل فجاءةً بصوته المشروخ: «أهدينا جدَّ المغفور له عصا من الخرّوب، هذه الشجرة التي استعصى اسمها على النبيّ سليمان، وسنَدَتْهُ فأبقته واقفاً عشر سنين وهو ميتٌ حتى لا تطمع الجنُّ في الخروج عليه»، ورفع عصاه التي في حجْره يريها للجالسين: «أهديناه عصا الخدعة».

قال الشهرودي للشيخ المنكمش في عباءته: «النابوري شخص محموم. يتعرَّق النباتُ في البادية، ليلاً، من الحمّى، فيسمَّى عَرَقُه الندى. وهو لا يظمأ لأنه يشرب من عَرَقه ذاته. تأتي دواب النابوري فتأكل من نبات محموم فتنتقل إليها الحمّى، ثم يأتي النابوري فيتغذى ببهائمه المحمومة»، وصمت برهةً، قبل أن ينطق حكْمَه القاسي: «نَسْلٌ محموم من هِبَاتِ البادية». فأطرق «ساكو» الذي تفرَّقت عن فَهْمه الكلمات، لا يفْقَه ما يقوله الشهرودي حتى، ودمدم في كثافة لحيته الطليقة المُهْمَلة: «هذه ليلة الصَّدى».

نهض «الحكم الجنيّ» واقفاً، فأُخِذَ الجميعُ بحركته المحتجَّة، وسيطر الترقُّبُ ذو العين الزرقاء. نظر «الجني» إلى «النابوري» مباشرةً، فيما توجه بكلماته إلى كاتبَيْه هو: «لا يُدَوَّنُ شيءٌ ما لم يكن المدوِّنُ جالساً على رمادٍ»، وأشار بأصابع يده الطويلة إلى نقيب عشائر الجنوب: «كاتباك لا يكتبان».

مال «النابوري» شمالاً مرَّةً، ويميناً مرَّة أخرى، على جانبيه: «ما الذي يقوله الجنيُّ، هذا؟»، فأكَّدا له بإشارة من رأسيهما: «هذه ليست لغة».

جلس «الحكم الجني» بعد إلقاء عبارته إلى الهاوية التي فتحها له المنصتون. لكنه استرسل في توجيه كُراتِ صوته اللينة إلى كاتبيه: «عليكما أن تدوِّنا شيئاً»، فقام الكاتبان من مجلسهما عن جانبيه. أخرج كل واحد منهما كيسين متدليين من تحت إبطيه كانت عباءتُه تخفيهما. وقد نثرا، كلٌّ من أحد كيسيه، رماداً على الموضع الذي يجلس عليه، ثم قعدا يفتحان كيسيهما الآخريْن، فيُطْلِعان منهما دفترين شاحبين لهما ورق مستطيل، خشن، سُمِعَتْ خشخشته في أصقاع الغرفة كأنما هي من جلدٍ جافّ.

قال «الجنيّ» بعدما تهيأ القَلَمان المبريَّان جيداً: «لن تكون قرية تاف يتيمة أبداً. سيعلو زيرٌ جديد لصق زير جواني»، ورفع وجهه إلى الفانوس العالي يبثُّه وعْدَه الهادئ: «سأملأ بحيرة تاف بشحم الذبائح».

عَلَتْ همهمات قوية من جهة الغرفة شمالاً، حيث يجلس «دارا»: «أما من أحد، بحقّ الله، يفسِّر لنا ما الذي يُقال في جهنَّم هذه؟». لكن همهمات العمِّ تبعثرت من نبرة الفحيح القوية في حنجرة «خبات كولاف» نقيب عشائر الشمال، حامل أختام جدِّه «دارين» الأول صاحب المصكوكات المرجانية: «لا أريد أن أكتب شيئاً مثل هذا»، قال جملته وهو يتوجه بعينيه إلى «دارا» عم «جواني»، مضيفاً وقد فتح راحة يده اليسرى ذات الأصابع الطويلة أمام وجهه يظلِّل بها كلماته: «ليس معي كَتَبةٌ يهينون الحروف التي إذا تكرَّر تدوينها نَحُلَت شفاعتُها، ويبستْ ألغازُها الكريمة، وتملَّقتِ المعاني ما لا يكون من

خصيصة المعاني». ثم أنزل يده فالتمعت وجنتاه البارزتان ككرتين من النحاس.

فتح الترقُّب، من جديد، ثغراتٍ ضخمةً في قفص المكان. مال «النابوري» على كاتبيه. مال «الجني» على كاتبيه. اقترب «دارا» برأسه من «ساكو» الشيخ، الذي التفت بوجهه إلى الشهرودي مستنجداً: «أظنُّه قال شيئاً»، وأكّد له بلكزة من مرفقه على عَضُد اليمنيِّ: «لقد سمعته. أنا واثق من ذلك»، لكن الشهرودي تقلّص، بدوره، في معطفه الضخم المزنَّر من وسطه بحبلٍ اتَّخذَه حزاماً، وتمتم: «هذه ليست لغة».

نهض «ساكو» الشيخ واقفاً كأنما مسَّه جمرٌ، وتطلَّع من عليائه إلى الشهرودي: «لا أظنك تعرف شيئاً»، فتطلع إليه اليمنيُّ بوجهه الرقيعة الشاحب، هامساً دون انفعال: «ولماذا لا تعرف أنت شيئاً أيها السيد ساكو؟»، فتبلبل الشيخ ذو العينين الهاربتين إلى غسق محجريهما. وفي لحظة طائشة من لحظات السكون الذي حاكَتْه محاورته مع الشهرودي، خَطَا إلى منتصف الغرفة، يتمِّم الضِّلْعَ الناقص في مثلثٍ خفيٍّ حَلَّقَ كلُّ نقيب في زاوية منه، ورفع يديه في جهامة: «أنتم توقظون **النّون**»، وعاد أدراجه صوب الشهرودي الجالس متوثّباً من حَرَجٍ جرَّه إليه الشيخ المُدَمْدِم: «أرِهم **النونَ**»، ومدَّ يده إلى معطَف اليمني: «أين حزامك؟»، فأبعد الشهرودي يدَ «ساكو» في جفاءٍ، وتطلَّع إلى نجدةٍ من «دارا» الذي شدَّ الشيخَ من طرف عباءته: «أما تعبتَ؟ اجلسْ». لكن «ساكو» حرَّر طرف عباءته من يد عم «جواني»، وتوجّه، من جديد، إلى المثلث المرجانيِّ الذي يتقاسمُ النقباءُ أضلاعَه الخفية: «عند هذا الرجل رسْمٌ **للنون**».

نقرت أم الشهرودي على كتف ابنها بأنامل خشبية، وتمتمت: «انهضْ. فلنغادرْ»، فقام الشهرودي يعين أمَّه على الوقوف، ممتثلاً لإشارتها الباردة. بيد أن «ساكو» انتبه إلى تهيُّؤِ الشهرودي للخروج فناداه من كمينه وسط مثلث النقباء: «أهناك متوفّى آخر ينتظر حنوطَكَ؟»، فارتعد ضياءُ الغرفة من كلماته.

قام النقباء الثلاثة مذهولين، متقابلين بصرامةٍ جليدية: «الحَنُوْط؟!». ردَّد كلٌّ منهم الكلمةَ واضحةً، دبقةً بزُلال سِرِّها الوليد. وقد انتبه الجالسون في الغرفة، جميعاً، أن تلك اللفظة، ذات الحروف العربية، وحدها انتشلتْ لؤلؤةَ اللهفةِ المشتركة من بين ألفاظهم المقذوفة عشواءَ من مدارٍ إلى آخر.

أدرك «ساكو» أنه أشعل كُرَةَ النار، فارتبك، فيما أحس الشهرودي وهناً في ركبتيه وهو يفتح الباب كي يخرج بأمّه إلى مسكنهما. وزادَ وهنَه نداءٌ من «دارا» أن يتوقَّف: «يا أبا اليمن، هؤلاء يعرفون بعضَ علومك»، فلم يدْرِ الشهرودي بما يجيب، وبخاصّةٍ أن النقباء الثلاثة اقتربوا أكثر، واحدهم من الآخر، وهم يحاصرون «ساكو» كأنما سيستنطقونه، فبادر الشيخ، مرتعداً، إلى ما ينجيه من نذيرٍ رآه في عيونهم، وأشار إلى الشهرودي: «هذا يعرف أمور الحنوط».

عاد الشهرودي أدراجه إلى الغرفة ليتحمَّل مواجهةً باتت مُحَتَّمةً بالرغم من أنها لم تكن في البال. وقد عادت أمه، أيضاً، من خلفه، ممسكةً بخصر معطفه السميك تستعين به في مشيها الثقيل، وهي تدمدم: «لا تخفْ. أرِهم النونَ». ومن ثم توقَّفا في ثلث الغرفة المديدة، من جهة الشمال، فيما توجّه النقباء بوجوههم إليه متفحِّصين.

بادره «جابو النابوري» بلغة اليمنيِّ نفسها: «أأجريتَ حنوطاً على جواني صال»؟

«هذا ما أعتقده»، ردَّ الشهرودي، فاحتدم «الحكم الجني»:

- ليس خليقاً بك أن تفعل شيئاً كهذا في مكانٍ مثل تاف.

«فعلتُ الأمر من أجلكم»، ردّ الشهرودي بصوت بارد، لكن لا اضطراب فيه.

فأبدى «النابوري» استغراباً.

- ولماذا من أجلنا؟

«تأخَّرتم. ولم يكن في استطاعة لحم جواني أن ينتظر» قال الشهرودي، فالتفت «النابوري» إلى كاتبيه، وشمَلَ دفتريهما بإشارة شاحبة من إصبعه الطويل كعود المسواك: «دوِّنا هذا. ثمّة اختلالٌ في الأدوار المحسوبة بقياس الرَّحمة»، فانبرى الكاتبان يدوِّنان، ولمّا انتهيا، وسط صمت الآخرين، بادرهما: «اقرآ عليَّ ما دوَّنتماه»، فقرآ: «المكانُ يتَّسع لزيرٍ ثالث»، فَعَلتْ شفتيه سيماءُ الرضا إذ تمدَّدتا، وافترَّتا عن أسنان لا تُرى، قائلاً: «هذا ما عنيتُهُ».

قطع «الحكم الجنيّ» سياق الصمت المتسلسل: «كان عليك أن تنتظر. الحنوط لا يتم دون شهادة نقيبٍ أو متكلِّمٍ في شؤون القِدَم»، فأطرق الشهرودي برهةً، ثم ردّ: «أردتُ لجثَّته أن تليقَ بحضوركم».

«ما همَّ إن كانت تليق بنا أولاً تليق؟»، دمدمَ «النابوري»، فأبدى الشهرودي ذهوله: «تجشَّمتم كل هذا العناء...»، فقاطعه «الجنيّ»:

- أيّ عناء؟ هذا تدبير تكلَّفناه بأنفسنا.

تكاثف الشحوب في وجه اليمني، وفاض على ضياء

الغرفة: «لا تبدون مكترثين بمن جئتم من أجله»، قال بنبرةٍ منكسّرة،، فوضع «النابوري» أصابعه الطويلة على كتف الشهرودي، محدِّقاً في فجوات روحه، ثم ألقى صاعقةً من تحت لسانه: «لسنا هنا من أجله».

تخاذلت ركبتا الشهرودي، فتلمَّس بيده كتفَ أمه الملتصقة بجنبه، فيما وجّه «الحَكَمُ» إليه سؤالاً رقيقاً في علاماته:

- ما صَنْعَتُك؟

«أنا مبيِّضُ الآنيةِ المعدنِ» ردَّ الشهرودي، فأبدى «الحَكَم» تفهُّماً بإشارة من رأسه:

- آ. هكذا إذاً. أنت مبيِّض. سيحتاج جواني إليك طويلاً.

تنفَّس **النون**. سكنتْ رئتا الشهرودي. تنفَّست أمه بتقطُّع. أكمل «الحكم الجنيُّ» مجازاتِهِ الخشنة: «لا نهايةَ لآنِيَةِ جواني الآن. ولائمُهُ لن تنتهي، فلا تدعْ صِحَافَهُ تهرَم أيها الرجل»، والتفتَ إلى كاتبيْهِ الجالسين: «أحصِيَا ما يحتاجه هذا الرجل ليصاحب جواني».

«إنه ميت» دمدم الشهرودي كأنما يردّ عن نفْسِه كابوساً، فحدَّجه «النابوري» بعينيه الرَّمليتين:

- وهل يصاحَبُ إلاَّ الميتُ؟

غارت عينا «ساكو» الشيخ إلى آخر الظلام الكثيف في وقْبَيْهما، وارتجَّتْ عظام قفصه الصَّدري من ضربات قلبه، بعد سماعه حديثاً فهم نصف ألفاظه في الأقل. كما أحس البرد في عروقه الجافة لمَّا خطر له أنه أساء إلى الشهرودي، فلم يدْرِ ما يفعل غير التوجه إلى «خانيا بوران»، في هربٍ من نَفْسه إلى حديقة نقابها المزدهية بريش الطاووس: «يا أمَّ

باراني ، هؤلاء لم يحضروا من أجل زوجك ، بل ليقيموا هنا» .

بدا ، للوهلة الأولى ، أن المرأة لم تفهم ما قاله «ساكو» فالتفتت بوجهها الغريق في اللثام إلى عم زوجها «دارا» ، الواقف على مقربه من الباب ، تستجدي منه تفسيراً ، فألفَت حيرةً في عيني الرجل ، وغشاءً من القلق على وجهه . ثم قامت إليه تمشي ولا تمشي من هدوء ثوبها الطويل : «أصحيح ما يقوله ساكو ؟» فردّ الرجل الضخم وعيناه على النقباء المحيطين بالشهرودي : «لم يكن ساكو يفهم هؤلاء ، وها هو يفهمهم . لستُ أدري...» . واستدار إلى الشيخ ذي القامة الخاملة من ارتباكها : «أقالوا لك ذلك ؟» .

«قالوا إنهم ليسوا هنا من أجل جواني» ، هَمْهَمَ «ساكو» .

«ثلاثتهم ؟» ، سأله «دارا» ، فردّ «ساكو» :

«بل ذاك ، النابوري . وأظن أن الجنيّ يوافقه» .

«وخبات كولاف أيضاً ؟» ، عاد «دارا» يسأله غير مقتنع بأجوبة الشيخ ، فردّ الأخير :

– لم يقل شيئاً من ذلك القبيل . لكن... أظن...

قاطعه «دارا» : «ما الذي سمعتَهُ تحديداً ؟» ، فقال «ساكو» :

– ليسوا هنا من أجل جواني...

«وهل ألمحوا إلى أنهم آتون للإقامة هنا» ، سألَهُ «دارا» ، فتلعثم «ساكو» الشيخ :

– إذا لم يكونوا آتين من أجل جواني ، فما الذي تظنه يفعلون هنا ؟

«بأية لغة يتحدثون ، الآن ، إلى الشهرودي ؟» ، تمتم «دارا» ، ملقياً سؤاله إلى فراغ مَا ، إذْ تقدَّم صوب الحلقة الصغيرة التي رسمتها هالةُ العبث اللامرئية فوق رؤوس

النقباء. مدَّ ذراعَهُ الطويلة إلى حيث يقف الشهرودي منفصلاً عن أمّه كأنّما يُسْتَنْطَقُ، وشدَّه من كتف معطفه الثقيل: «اخبرنا شيئاً، بحق الله عليك»، فحدَّجه النقباء الثلاثة باستياءٍ من تدخُّله. لكن «دارا» تجاهل صواعقَ شفاههم الصارمة، طبقاً بأصابعه على عَضُد اليمنيِّ، الذي بدا مُنْهَكاً، أشدّ نحولاً مما هو عليه. وقد تمتمَ حين واجهت عيناه عيني «دارا» الضخم: «ما هذه تاف؟»، فوجم عمُّ «جواني» من الرنين الغامض في كلمات الشهرودي التي لم يفهمها.

تدخّل «ساكو» الشيخ مُترجِماً: «يسألُك عن تاف».

«ماذا؟» قال «دارا» مستغرباً، فكرّر «ساكو» عليه ترجمة ألفاظ الشهرودي، فتلاطَمَ وجهُ الرجل الضخم. بوغتَ من السؤال، وتسلَّل وسواسُه إلى لسانه: «ما بها تاف؟».

خرجَ فحيحٌ خفيف من تحت نقاب أمّ الشهرودي: «سيطلبون قصديرَك. قلْ لهم ليس عندنا قصدير»، قالت لابنها من خلف كتفه، فردّ وهو ينظر إلى «دارا»: «لا يحتاجون إلى القصدير، يا أمي. إنهم هنا لاستعادة تاف».

تنحنح «ساكو» الشيخ. استردَّ عينيه من ظلام وقبيْهما، وحدَّق في الشهرودي: «يستعيدون تاف؟؟! ممَّن يستعيدون تاف؟» قال بصوتٍ متكسِّر، وتقلَّص في عباءته الكبيرة كخُلْدٍ يختفي في التراب.

استجمع الشهرودي جوابَهُ من عشرات أنفاسه: «لا يفصحون. لكنهم مزمعون أن يستردّوا تاف».

تنبَّهت «خانيا بوران» إلى اقتراب نقيب عشائر الشمال «خبات كولاف» من حلقتهم الصغيرة، فشدَّت كمَّ عمِّ زوجها، الذي تلقَّف إنذارَها، والتفت بوجهه جانبياً فجاراه الشهرودي و«ساكو» في البرهة ذاتها. وقد أدرك نقيبُ عشائر

الشمال، حاملُ أختام جدّه دارين الأول، أنهم بوغتوا قليلاً بتطفُّله على حلقتهم فأبدى اعتذاراً من وجهه الحليق ذي الشاربين الكثَّيْن، المعقوفين كمنقار الحدأة: «أعرف أنكم محتارون»، قالها بالكردية في لهجةِ كُرْمَانج، فلانت مفاصل «دارا» و«ساكو» وزوج «جواني» من وقْعِها الدّافئ، بينما ظلَّ الشهرودي على ريبته.

قالت: «خانيا بوران»، وقد ارتخى لثامُها قليلاً فبانتْ شفتها العليا، الموشومة بنقطتين زرقاوين فوق حافتها: «ثمة أمر لا نفهمه...» فقاطعها «كولاف» ذو العينين الناعستين: «كل شيء مفهوم يا أمّ باراني». وحدَّق في «دارا» مبلِّغاً إياه رسالةَ السرِّ الصغيرة: «لو دفنتم جواني لكانت الأمور أسهل».

ارتخى فكّ «دارا» قليلاً لصقَ شفته السفلى، وهمهمَ بصوت خفيض: «ارتأينا أن تكونوا معنا في دفنه، يا سيد كولاف. خرج الرُّسلُ طائريْن إليكم، لكنكم تأخرَّتم».

تمتم «خبات كولاف»، مضيِّقاً بين أجفانه: «أيةُ رُسُل؟»

«رُسُلنا...»، ردّ «دارا» مستغرباً كلام نقيب عشائر الشمال.

«لم يصلنا أحدٌ من قِبَلِكم» قال «خبات كولاف» بنبرة باردة أوجفتْ قلب «دارا»، الذي تلفَّت من حوله كأنما يبحث بين الوجوه عن رُسُله الثلاثة إلى النُّقباء. دَمْدَم مغتاظاً: «لا بد أن يكونوا هنا»، ثم نادى ثلَّة من الرجال اقتعدتِ الأرضَ لصق الجدار الشمالي للغرفة المفرطة في طولها: «ألم يَعُدْ خليل مجدل، ونوّاف عارو، وموسى شيران؟»، فنهض الرجالُ مُلَبِّيْنَ سؤالَه بهزَّةِ نَفْيٍ من رؤوسهم الغارقة في حطَّاتهم المُرَقَّطة السميكة. وقدْ اقشعرّ جلد «دارا» من تلك

الهزّة، وارتجف شعر حاجبيه: «من بلّغكم، إذاً؟»، قالها لضيفه بلسانٍ جافّ، فردّ «كولاف» بنبرةٍ دافئة:
- جواني أبْلَغنا.
صَرَّتِ الحيرةُ بمخالبها على الصفيح اللامرئيّ. حدَّق «دارا» في «كولاف» دون أن يصرِّح عن استيائه ممَّا ظنَّهُ دعابةً في غير مَقامِها، فحدَّق «كولاف» فيه بدوره، موسِّعاً بين أجفانه الناعسة: «جواني نفسه، يا سيّد دارا»، قال مؤكّداً ثقة ألفاظه، وأردف، ناظراً إلى «خانيا بوران»: «ذلك عقْدٌ بيننا وبينه، يا أم باراني».
«عقد؟!!» تمتمت المرأة الطويلة من وراء حديقة لثامها، مُتَبَلْبِلَةً من الكلمة، فأوضح لها «كولاف» بلفظةٍ أُخرى: «الصَّكّ، إذا شئتِ، يا أُم باراني. إنه يحتفظ به، وعليه أربعة أختام».
«وماذا في الصَّكّ - هذا العقد؟ أنا لا علم لي به»، قال «دارا»، فتجاهل «كولاف» سؤال عمِّ «جواني»، والتفت إلى الشهرودي: «كيف حال ترجمتك؟» سأله بلُغة أهل اليمن، التي نقلها «ساكو» ببعض التحريف إلى «دارا»: «إنه يسأله لماذا لم يكن يترجم»، فأبدى «دارا» قليلاً من الحنق. «نعم. كنا نسأله فيردّ أن هذه ليست لغة».
ابتسم نقيب عشائر الشمال، وهمس بالكردية التي لم يفهمها الشهرودي: «أنت، إذاً، أدخلتَ الحنوطَ إلى تاف؟»، وتوجّه بكُلِّه إلى «دارا»: «لقد أخطأ هذا الرجلُ التوقيت. كان عليكم أن تدفنوا جواني. لكننا سنجد حلاً في الصباح»، وتطلّع بنظرةٍ مشمولة بنزقِ الغيب إلى اليمنيّ، ثم همَّ بالعودة إلى مجلسه، فاستوقفته «خانيا بوران»: «يا سيد كولاف»، أأنتم هنا لتشييع زوجي؟».

«نعم»، قالها دون تردّد، وأضاف: «لكنني لا أوافق الحَكَمَ، والنابوري».

«فيمَ لا توافقهما؟»، سأله «دارا» مقترباً منه، فردّ «كولاف»:

- أن يُحضِر كلٌّ منهما كاتبيه.

نطق «دارا» في فضول: «وما الفرق؟»، فتأمّله «كولاف» جانبياً:

- ألا ترى أنهما دون ذاكرة يا دارا؟ التدوينُ حيلةٌ، وأنا لا أشاركهما في حيلتهما.

كان على تلك الليلة أن تنقضي في مساجلات مبتورة المعاني بين النقباء الثلاثة بلغاتٍ ثلاث، حتى الفجر المرصود بخرزات السماء الرمادية الداكنة، حيث توزّعتِ العشائرُ، مع أدلّاء من عائلة «جواني»، على غرف كبيرة، متجاورة في الساحة، تأجّج فيها صخبٌ مكتوم على لهب الصلاة التي أُدّيت على عَجَلٍ، ثم سَكَنَ كلُّ شيء، لأنّ الرجال آووا إلى لُحُفهم وفُرُشهم متجاورِيْن كحبّات السُّبّحة، كما فضّل بعضهم أن يظل في عباءته السميكة، كي ينامَ نصف جالسٍ، باتّكاءٍ من مرفقه على حواف المساطب المنخفضة، التي تُستَخدَم كأسرَّةٍ من طين. غير أن بعض المُكلَّفين بترتيب الرموز اللائقة بمقامات النقباء، ظلَّ يقظان، منهمكاً في استخراج المكنونات المستورة داخل العربات التي جاءوا بها مغلقةَ الصناديق، فعرضَ كلُّ فريق صغيرٍ منهم إرثَ نقيبه في الساحة، أمام الغرفة التي يقطنها. ولمّا انتهوا من أمْرِهم خَلَدوا، بدورهم، إلى أعماق الغُرَف ليصيبوا شيئاً من النوم.

تِسْعٌ من بنات «جواني» الثلاث عشرة شَهَقْنَ في الصباح،

حين كُنَّ الأُوَل في الخروج إلى الساحة يتفقَّدن سكونَها، وعلى شهقاتهنّ تمايلت أعرافُ الدجاجات، اللواتي تحلَّقْنَ بهم مسافة المشهد الغريب، حذراتٍ، يُقَأْقِئنَ باختناقٍ فيه ذعرٌ ملجوم: لقد انتصبت أمام أبواب غرف النقباء، من جهة الساحة، ثلاثُ مرايا دائرية، ضخمة، مرتكزة على حوامل قوسية من خشب بُنيٍّ، وأمام كلِّ مرآة آلة طولانية، في وسطها قرص دائريّ تتحرّك داخله مُسَنَّناتٌ متَّصلة بوشائع من النحاس. ومن القرص نفسه، ذي الأحشاء المرئية، يتدلّى قضيب ملتمع، ينتهي - في أسفلَ - باسطوانة صغيرة تتأرجح مع القضيب شمالاً ويميناً، في حركة تنمُّ عن مُطارحاتٍ مُلْغِزةٍ بين السِّحْرِ والمعدن.

تدانتْ رؤوسهنَّ اليافعة وتباعدت، في تناغم مع حركة القضبان الثلاثة المتأرجحة، وتكتكة المُسَنَّنات الدائرة على مراكزها الثابتة في ألواحٍ تتوسط الأقراص الثلاثة الضخمة. وكذلك تباعدت رؤوس الدجاجات وتقاربت، وهن يسترقن النظر من بين أجساد بنات «جواني» إلى الآلات التي يترقرقُ فيها طنينٌ هو لغةُ المتاهة.

لم تخاطب أية فتاة منهن أختها باسمها الصريح. كنَّ يتناديْنَ: «أنتِ...» فتلتفت البنتُ المعنيةُ بالنداء إلى أختها. ما من واحدة أخطأت أنها المقصودة، حتى لو لم تنظر إلى من تناديها. وتلك كانت الكلمة الوحيدة التي تبادلنها، في الفضول الصارخ الذي لَجَمَ ألسنتهنَّ، وأرخى عن فم كلٍّ واحدة لثامها الملون كحديقة هاربة.

«باراني»، بنت «جواني» البكر، ذات العشرين، عصفت بالغمامة الساكنة للمشهد حين تهادى صوتُها طليقاً من خلف حلقات أخواتها: «من نَصَبَ آلات ابليس هذه؟»، فجفَلْنَ

مستديرات إليها، ثم اختلطت إشاراتهن المختنقة، المتداخلة، في محاولة لاستنطاق الغيب في أمر تلك الآلات، فيما اقتربت «باراني» على مهل، لكن دون خوف، تتأمّلها تباعاً، الواحدة بعد الأخرى، فترى المرايا متشابهة، وكذلك المعادنَ المجسَّمة على هيئاتٍ ذات أحشاء متحرِّكة. ففكَّت لثامَها الذي اتخذتْهُ من طرفِ غطاء رأسها، وهمهمت: «نادين عمَّ أبينا دارا. نادين ساكو»، فهرولت اثنتان من الفتيات المتدرِّجات في أعمارهن بفروقٍ لا تزيد عن سنة، خارجات من مدخل الساحة الواسع شمالاً.

تشققت الغيوم غير المتراصَّة، ثم انفلت عقدُها، فانقسم كلُّ شكلٍ على نفسِه في السماء الملجومة بصدى مطر البارحة. سيوفُ شعاعات الشمس شطرتِ المكانَ كقرص ضخم من الجبنة الحلوة، ثم نثرت ملحَها الدافئ على الخمائر المختبئة. ارتجفت عضلةٌ في ذيل **النون**، ومع تلك الرَّجفةِ وصل «دارا» يتبعه «ساكو» الشيخ، مؤرَّقين من حِيَلِ الليل والنهار. حَمْلقا، معاً، في الآلات، والمرايا المنصوبة في مواجهة المشرق: «ما هذه؟» قال «دارا» الضخم، فظنَّ «ساكو» أنه المعني بالسؤال، فتلاطمت صفائح عقله الرقيقة، ثم انكمش، ثم جلس القرفصاء بغتةً، واضعاً راحتي يديه على جانبي رأسه كأنما يقيه من عاصفة، وتمتم: «أكون خَرِفاً إذا لم تكن هذه آلاتٍ بَحْرِيَّةً...».

حدَّق فيه «دارا» لبرهةٍ، وتقدَّم من تلك الآلات يبعدُ بنات ابن أخيه عن الطوق الوهميِّ للجاذبية، هامساً: «بَحْرِيَّة؟! منذ متى رأيت بحراً يا ساكو؟»، وبدأ يعاين المرايا، دائراً من حول كل واحدة دورتين يستكْنِهُ الرَّصْدَ القَدَريَّ الذي هو تأويلٌ أوحدٌ لسبب وجودها هناك، منتصِبَةً في مواجهة

الشرق كي تستدرج الشعاعاتِ الأولى لدورة الكون إلى شبكة الشَّكْل. وإذِ انتهى من معاينتها جميعاً، قال بإلهامٍ كأنّما أوحيَ إليه: «فَلْيحْضرِ الشهرودي. هذه من آلات المدن، ولا بد أن يكون رأى مثلها».

اتَّسعت شقوق الغيم. جواذبُ السماء التسعة، التي تجعل فراغَها الأزرق مُناظراتٍ طيفيَّةً، مزَّقتِ الغشاءَ الأرضيَّ من حول المشيمة الكبرى، فانسكب النور دافئاً على «تاف». شهقت المرايا الثلاث شهيقَ الفوز. تمدَّدتْ أعماقُها في انجذاب الجوهر إلى ظهوره المرئيِّ، الشاسع، المتوالد في هبوبٍ لا ينتهي. تراخى ذيلُ **النون** في الكثيف السحيق، ثم استعاد المشهدُ نظامَهُ المحفورَ في لوحٍ صلب لا يبصرُه إلاّ الموعودون:

فُتِحت أبوابُ المضافات الثلاث حيث آوى كلُّ نقيبٍ مع رهْطه إلى فسطاط النوم. خرج ثلاثة رجال كأنما يعلنون القدوم الجليل للأسياد. ابتسموا لبنات «جواني» وعم أبيهنَّ «دارا»، مُهْمليْنَ «ساكو» الشيخ. بعد لحظات تتابعت حلقاتُ ظهور الرجال من داخل الغرف، بحركةٍ أفعوانية، يندفع كل ثلاثة منهم إلى الخارج معاً، مُشَكِّليْنَ ستارةً بشرية من حول نقبائهم، الذين خطوا خطواتٍ هادئة في اتجاه آلاتهم، ثمَّ تمعَّنوا فيها بجلالٍ ظاهر، ملتفتيْنَ - كلٌّ واحدٍ صوب الآخر - بعينين فيهما استعلاءٌ مُهَذَّبٌ، ووعيدٌ أكثر تهذيباً، يحسُّه القلبُ وحده.

اندفع الشهرودي، بدوره، إلى الساحة، تخشخش من خلفه خطوات أمّه الممسكة بجانب من معطفه السميك. ولمّا صار على مرمى ذراعين من «دارا» لم يتمالك دهشَتَهُ الصارخ، فخرجت الكلماتُ من فمه عليها رنينٌ من قلبه: «إنها

ساعاتٌ» ، فانقبضت يدُ أمّه المتخشِّبةُ بقسوةٍ على معطفه ، فيما التفتت إليه بنات «جواني» بحواجب مرتفعة عن عيونهن ، وكذلك رمقَه النقباء الثلاثة ورهطُهم.

لم تدخل «تاف» ساعةُ آليَّة إلاّ مرة واحدة ، من قبل. حملها في جيبه واحدٌ من الخزَّافين الشراكسة الستة ، الذين بنوا الزّير الضخم على الرّابية : كانت ذات غطاء مزخرف من النحاس الأصفر ، متصلة بسلسلة رقيقة قال الرجل إنها ذهبٌ خالص ، وتنتهي السلسلة بحلقة مزدوجة يثبِّتُها في عروة جانبية من بنطاله.

كانت صغيرة تلك الساعة ذات الأحشاء المستورة ، وقد تأمَّلها الكثيرون من أهل «تاف» في مرحٍ ، وهم يضعونها - بعد تمحيص رهافتها - على آذانهم ، فيسمعون النبضَ الشهوانيَّ مرفرفاً فوق سلالم المتاهة. لكن هذه الساعات النافرة الأحشاء ، المُغْلَنة في صرامة تشبه السرَّ الأكثر حبكةً ، هي شيء آخر. ذلك ما فكَّر فيه «دارا» ، و«ساكو» وبنات «جواني» ، في البرهة ذاتها التي سمعوا فيها رنين صوت الشهرودي وهو يُلقي بالإسم السحري للآلات على صفيح دهشتهم : «ساعاااات !!».

لم يكن «ساكو» الشيخ في وضْعٍ يُمكّنه من سؤال النقباء عن مغزى وجود تلك الساعات ، فهو لن يفهمهم على الأرجح. وقد تضاءل جسده في عباءته خوف أن يسأله «دارا» القيام بمهمة منكودة كالتي خطرت بباله ، لكن «دارا» كان بادي الاستسلام للصفقة الخفية بين «تاف» ويقينها السحيق الغور ، حيث يخلدُ **النون** إلى سَكينته الكبرى. وحدها «خانيا بوران» ، الفارعة النحيلة في لثامها المستعارة نقوشُهُ من ذيل الطاووس ، أخرجت نصف جذعها من باب مسكنها

يستعرضُ الجمْعَ، مروراً بالآلات البادية من خَلَل حلقاتهم، دون أن يسترعيها ثقْلُ المشهد الذي حطَّت حدآتُه على اكتاف بناتها، ثم نادت شخصاً بعينه: «أبا اسمْعيل» فانفصل رجل عن الجمْع ملبِّياً. ولمّا داناها توسَّلَتْه أن يأتي بمن يخدم الضيوف في الإفطار، الذي خرج - بعدئذٍ - على شكل أباريق ضخمة من الشاي، وصحاف من الخبز السميك، وطاسات من الزيت يغمس الآكلون فيها خبزهم، ويرتشفون عليه السائل الساخن الجليل. لكن لم يبدُ أن النقباء عائدون إلى مضافاتهم للإفطار، برغم مرور «دارا» عليهم واحداً واحداً يدعوهم إلى افتتاح صباحهم بزادٍ حُلوٍ مَرِئٍ، كأنما يؤجّلون الأمر، مع موافقتهم «دارا» على دعوته، إلى حين ظهرتْ بوادرُهُ لمَّا اقترب «النابوري» من الشهرودي، هامساً من وجهه الصارم، وهو يشير إليه بطرف عصا الخرّوب: «هات متاعك. ستكون أنيس جواني صال»، فاصطكت عظام أمّ اليمني، واهتزت وَدَعتان من وَدَع الأنهار متدليتان على صدغيها فوق النقاب.

اقترب كاتبا «النابوري» بدفتريهما من الشهرودي، وبدآ في التدوين بقلميهما الغليظين، وهما يتمتمان ألفاظاً يُحْكِمان السيطرةَ عليها في شفقَيْ خيالهما. غير أن «الحكم الجني» دفع بكاتبيه، أيضاً، إلى تخوم المصيدة التي لمسها الشهرودي وأمَّه بأصابع قدميهما: «لا يستفرِدَنَّ النابوري بكلِّ أمرٍ. اكتبا ما يكتب كاتباه»، فالتفتا إليه حائريْن: «لا نفهم لغة العفاريين هؤلاء...»، فحضَّهما «الحَكَم» متبرّماً من الشمسِ اللامنتظرةِ ذلك الصباحَ النَّهم، وفتحا دفتريهما العتيقين يسطّران ما لن يقرأه أحدٌ.

بدأ الجمع يكبر في الساحة. تكتكات الساعات الثلاث

استدرجتْ أهلَ «تاف» فجاءوا صاخبين، يتدافع صغارهم بين سيقانهم قبل أن تتجمَّد عيونهم على تلك الآلات، ومن ثم تتأرجح أنفاسُهم مع حركة الرقَّاصات المعدنية. خرجت «خانيا بوران» الملثَّمة إلى الساحة بدورها. رصدتِ المشهد بتأنٍّ دون أن يستسلم المشهد لعينيها، بالتدافع اللامنضبط للفضوليين، طوالاً وقِصاراً، حتى اختفت الآلاتُ وسط زوابعهم فلم تعد «خانيا» تراها، أو ترى النقباء. تردَّدت قليلاً في أن تتقدَّم. نظرت إلى الشرق حيث تنحدر الأرض الملساء في اتجاه البحيرة، وتنفَّستْ من تحت لثامها ذلك الأرَجَ المبارَك للشمس المغسولة بشايٍ كثير، ثم غصَّت على نحوٍ مفاجئ، فترقرق في عينيها المحمرَّتين سحابٌ ملتمع، عجول، ترك على جفنيها السفليين نثاراً من فضَّته الدافئة.

لم يدم تردُّدُ «خانيا» أكثر من لحظات، قبل أن تخترق الجمع في رفقٍ، وهي تقصد «خبات كولاف» تحديداً. جاورتْهُ وتنحنحت ليلتفت إليها فالتفت الرجل بشاربيه المعقوفين. حدَّقت فيه برهةً تمكَّن الرجل فيها أن يزنَ بعينيه حزنَ عينيها. قالت بصوتٍ فيه نشيج خفيٌّ وتوبيخ ملجوم: «متى ستدفنون زوجي؟ انتظرنا طويلاً وها أنتم هنا، لكنكم لا تتحدثون عن الدَّفن، ولا تسألوننا عن أوانه».

ظلَّ «خبات كولاف» يزنُ حزنَها صامتاً، قبل أن تنفتح ثغرة كبيرة في الجدار الآدميِّ للناس المتحلِّقين حول الآلات، ويتراجع الكثيرون مذعورين من الاقتحام المفاجئ لراعي عشائر الشمال، متجهاً بكلبه الذئبي الضخم إلى سيده «كولاف»، وهو يجرّه من طوقٍ عريض في عنقه، فيما الكلب يهرُّ هريراً له وعيدُ النار، فبادره السيِّد: «ماذا تفعل

«.ا يا بِهْ – مَنْ ؟» ، فما نطق الراعي ، بل اقترب منه حتى كاد يلتصق بكتفه . رفع وجهه إلى مستوى أذن الرجل وهمس إليه كلماتٍ انتفض منها نقيبُ عشائر الشمال ، حاملُ أختام جدِّه دارين الأول ، ثم خطا في اتجاه «النابوري» الذي كان ما يزال على جهامةٍ وهو يحاصر الشهرودي بكاتبيه وكاتبي نقيب النجود الشرقية ، ذي الوجه الرقيق العظام مِنْ مجاورةِ الأنهار .

قال «كولاف» لنقيب عشائر الجنوب ، ذي العصا : «إذا أراد راعيك أن ننحره مع تيوسِك ، التي عليها غبرة من تراب الشيطان ، فهذا هيِّن يا...» ، ولم يتلفظ باسمه إهمالاً له ، فالتفت «النابوري» إلى كاتبيه : «ما الذي يقوله هذا الرجل ؟» .

«لا شيء» قالا في ثقة ، وهزّا رأسيهما دون أن يرفعا عيونهما عن الدفترين : «ليس لعشائر الشمال لغة» .

تململ النونُ في كمينه العريق ، كأنما مسَّتْ قرونَه استغاثةُ العدم الكبرى . سعل «الحكم الجنيّ» منضماً إلى محاصري الشهرودي ، وتمتم في رفق : «هاتِ متاعَك» ، فأجفل الرجل اليمني من الصَّدمة الثانية في ذلك الإلحاح البارد : «هاتِ متاعَك» ، والتفت إلى «خبات كولاف» ، مستنجداً بسماحة عينيه التي لا تخفى . لكن نقيب عشائر الشمال ردَّه إلى خيبته بسؤال فيه اعتذار : «كان عليهم أن يدفنوه» ، فاستدار الشهرودي منزلقاً بأمّه من حلقتهم ، واتجه إلى منزله الضئيل شمالَ البحيرة ، مارّاً بـ «خانيا بوران» التي وزنَتْ بعينيها ، في لمحةٍ ، شفقاً ثقيلاً في عيني الشهرودي . تقدمت من حلقة النقباء ، وبادرت جمْعَهم بكلمات مرتعشة : «ماذا يجري هنا ؟» .

وحده «خبات كولاڤ» لم يتجاهل سؤالها. ردّ بلغةٍ كردية: «على الشهرودي أن يلازم زوجك الآن. إنه ذاهب ليأتي بمتاعه».

باردة كانت كلمات «كولاڤ»؛ باردة كالثلج الذي هو عَرَقُ الجبال إذا أفزعها النونُ فانتفض في كمينه العريق تحت قشرة الجماد الأوّل العريق، لكن «خانيا بوران» وجدت مسلكاً إلى سؤالها في الصقيع الذي عمَّ قلبها: «أيّ متاعٍ تعنون ؟».

لم يردّ أحد على سؤالها آنئذٍ، غير أنها عاينتِ الشهرودي نَفْسَه يفصح لا عن متاعه المحمول في عربته المربعة الضيقة، التي يجرها حمارٌ ألهَمَهُ الحشدُ الموجود في الساحة بعضَ المرح، فخبط الأرضَ الطينية بحوافره في استعراض استاءت منه الدجاجات. وكان اليمني يقود الحمار ممسكاً برسنه، فيما تخطو أمّه من وراء العربة باتّكاءٍ على حوافها، وهي تحمل صُرَّة في إحدى يديها. ولما بلغا حلقةَ النقباء توقّفا لحظةً قصيرة، إذ اعترضهما «دارا» الضخم متسائلاً: «ماذا تفعل ؟»، فتدخَّل «ساكو» من فوره مترجماً: «إلى أين أنت ذاهب ؟»، فردّ الشهرودي بعلامة من رأسه وفمه معاً: «إلى هناك» مشيراً إلى المنزل الذي سُجّيَ فيه جسد «جواني صال»، وتابع طريقه وهو ينظر بضراعةٍ يائسة إلى «خانيا بوران» المنجذبة إلى مدار سحيق من حزنها.

جرى كل شيء في هدوء، بعدما سَكَنَ صخب الناس الذين لسعتهم الدهشةُ أوّلاً ثم خدَّرهم الترقُّب: أنزلَ الشهرودي متاعَهُ المختلف من العربة، قطعةً قطعةً، داخلاً به من الباب إلى مرقد «جواني» البارد. حمل كيسين من الرمل الناعم، المصفّى بغربالٍ من شَعْرِ جمال آسيا ذات السنامين،

وهو ما يستعمله عادةً لتنظيف باطن الأواني . وإذ انتهى بهما إلى الداخل عاد فحمل كيساً أسود من فحمه الحجري الذي استُوْقِدَ للمرة الثالثة عشرة بعد الألف التاسعة ، في اليوم السابق على مجيء النقباء . ومن ثم حمل إلى الداخل كيس القطن والقصدير ، والخِرَق الكثيرةَ ، وأخيراً آلته ذات المنفاخ ، التي حرص على لفِّها بجلد بقرةٍ .

بقيت أمّه على سكونها ، طوال الوقت ، مستندة بذراعها العجفاء على حافة العربة ، لا ترفع عينيها الضائعتين في النقاب عن وجه ابنها . ولمّا حمل الأخير ما تبقى في العربة إلى الداخل ، تحرّكت مدفوعة بريح موَّجَ جذعَها المتقوِّس حتى صارت إلى الباب المفتوح . دخلت ثم استدارت إلى النقباء من عتمة الداخل . رفعت راحة يدها اليمنى إلى الوَدَع المتدلي في خيط على جانب رأسها وقطعته بشدٍّ قويٍّ ، ثم نثرت تلك الحبَّات الصَّدَفية اللامعة ، قَدْرَ ما تستطيع ، على طين الساحة ، وأغلقتِ البابَ من خلفها .

تسلَّقت الشمس درجةَ الصباح الثالثة . عاد النقباء إلى المضافات ليتناولوا إفطارهم . بقيت الآلات محفوفةً ببنات «جواني صال» ، اللواتي تمرأيْنَ كثيراً في المرايا الثلاث . وقد شاركتهن الدجاجات ذلك الاستعراضَ النورانيَّ بكثير من الاتزان ، بخاصَّةٍ أن الناس انصرفتْ تُصيبُ إفطارَها أيضاً قبل أن ترجع أكثر امتلاءً إلى جواذب الجنون الصغرى في ساحة «تاف» .

كانت كل دجاجة تميل بعنقها شمالاً ويميناً أمام إحدى المرايا ، ثم تعبرُ تاركةً فسحةً لمرور واحدة أخرى منهن بالتأمُّلِ الصقيل ذاته . تهتزُّ أعرافهن اللَّدِنة ، وتنفتح مناقيرهن في خُيلاء . الديكة ذوات الأعناق الطويلة - المُسْتَجْلَبة من

مراتعها حول هضاب «نارمِيْن» الحمراء، في الجانب الغربي من نهر «فيد» -، كانت تُجاري الدجاجات، أيضاً، ذلك الإسرافَ في معاينة الظّاهر الذي قُيِّضَ له أن يكون هيئةً من اللحم مكسوَّةً بالريش. وكانت تلك هي المرة الأولى التي تمكنت الدجاجاتُ والديكةُ فيها من استظهارٍ تامٍّ لصورها. فهي درجتْ، من قبل، على رؤية مجزوءات من أشكال هيئاتها في بِرَك الماء، والمناقع التي تنبت في ثنيات الأرض بعد المطر.

الكلاب القليلة، اللاهثة دون سبب واضح، كانت أقلّ اكتراثاً بأشكالها التي عبرت المرايا، لكنها لم تبارح الساحةَ، مهرولةً من جهة إلى أخرى، وقد استشعرت من وجود الغرباء ما ينبئ بوليمةٍ مُحْتَملةٍ تتطاير فيها عظام الذبائح على ضفاف البحيرة، وتتفصّد الأرضُ عَرَقاً من دمٍ. وكان الرعاةُ الثلاثة ينتظرون أمام واجهة الزرائب المفتوحة على أفق البحيرة أن تأتيهم الإشارة المأمولة، ليجعلوا أحلام تلك الكلاب القلقة حقيقةً تتهشّم تحت أضراسها مع كلِّ غضروف، أو ترقوة، عليها شميمٌ من رائحة اللحم. بيد أنَّ ما من ساعٍ شهدَ عليهم صباحهم، فراحوا يلوكون بعض الخبز الذي لا تخلو جعبة راعٍ منه، ومن الجبن المجفّف، بعدما أحسّوا أنهم مثقوبو الحظوظ، وقد فاتتهم الدعوة إلى الإفطار بعدما علتِ الشمسُ درجةَ الصباح الرابعة، وهي درجةُ اليقين في المراتب التي يجري القياسُ فيها بحسب ساعات الرَّمل في بلاد راعي «النابوري»، ويجري القياس فيها بحسب ساعات غذْوِ المياه في بلاد راعي «الحكم الجني»، وبحسب ساعات الظلال في بلاد راعي «خبات كولاف». ولعلَّهم باتوا على شكٍّ من حدوث أية وليمة على

الإطلاق، فلو أراد القادرون ذلك لبعثوا إليهم في البكور سعاةَ النَّحْر بالسكاكين الكبيرة، وكلَّابات الحديد. فالذبحُ، والسلخ، والقَطْعُ، بما يستلزم كفايةَ جَمْعٍ من الضيوف ومن ال «جواني»، يحتاج وقتاً لا يستوي معهُ الطعام إلاّ عصْراً ربّما. وهو الوقت الذي ستكون الناس قد فرغت فيه من ثقالات الدَّفن إذا حصلَ، بالطبع. وكي لا يتفكروا كثيراً، ويُؤوِّلوا المقاديرَ، صرفوا خيالاتِهم واحدُهم إلى الآخر، يُمعن مراقبةً فيه، ورصْداً لحركته وسَكَنَته، بارتيابٍ يشوبه الحنَق. وكان «بِهْ - مَنْ»، راعي نقيب الشمال، أَمضى ارتياباً وأشدَّ امتعاضاً، يبيْن ذلك على جلسته القرفصاء وهو يعضُّ على حزام الجلد المفتول، الممتد من طوق كلبه الذئبيّ إلى درعٍ من الجلد يرتديه تحت عباءته، بطول مترين وأكثر، معقودٍ إلى حلقةٍ من المعدن فيها، كأنما لا يفارق أحدُهما الآخر في يقظته ومنامه. وحَنَقُ «بِهْ - مَنْ» أنَّه أحسَّ، في ليلته الماضية، شبحاً أجفلَ غزلانه، واستعوى كلبه، فنهض إليه من فراشه الممدَّدِ على الدّكَّة الطينية بِدُرَّتِهِ، التي هي عصا غليظة ذات تمرة من القارِ الصّلب، تنبثق منها المسامير حتى لتبدوَ كقنفذٍ متكوِّم، وهَمَّ بالشبح فلم يدركْهُ، وكاد يُرسلُ كلبَهُ في أثره لولا أنه رآه يقفز من فوق السور الواطئ، الفاصل بين حظيرته وحظيرة نقيب عشائر الجنوب، فأمْسَكَ عن ملاحقته، مستغرباً، يضرب أخماساً بأسداس: «أهو راعي النابوري؟». هكذا تساءل. ثم قرّر البقاء يقظان ليتحدَّى في الصباح أمرَ الليل. وقد تحقَّق له ما ذهبَ إليه الظنُّ، فعاين عن كثبٍ خطواتٍ ذوات أثر في الأرض البليلة هي خطوات راعي «النابوري»، لا شكَّ في دورتها، من مدخل الحظيرة، حيث الغزلان، وانتهاء بالدّكّة التي ينام عليها ذلك الراعي

الذي يسمونه «الهدهد». ولم يكن «الهدهد»، على أية حال، قد جَهَد في إخفاء أثره، أو التمويه عليه، أو التحايُل بالابتعاد خارج الحظائر حتى حدود البحيرة مثلاً، ليجعل اقتفاء نعليه محيِّراً قليلاً. لكنْ، ماذا من أمر ذلك الرماد الذي نثره على قرون غزلان «خبات كولاف»؟. الراعي «بِهْ - مَنْ» تشمَّم الرمادَ ليتأكّد من يقين عينيه. تململ قلبُه، وتحرَّكَ فيه الفراغ الغامض: «إنها حيلة، أو إغواء». وإذْ عايَنَ مثقالاً منه وجد فيه بقايا بَعْرٍ لا يخطئُ راعٍ مثلُهُ تصنيفَ مصدره: هو بَعْرُ التَّيْس، يكونُ في لُبِّهِ الأسودِ زُرْقةٌ من حِمْضِ الشهوة. والحَرْقُ لم يغيِّر في خواصِّ أَخلاطه، لذلك ارتأى أن يتوجّه إلى مَجْمَع القوم ليُسِرَّ إلى نقيب عشائر الشمال بأمر راعي «النابوري» وما صدر عنه من مُسْتَغْرَب الفعل، ثم يُقفِل عائداً إلى حظيرته بعينين تعاهدتا أن تستبطنا ظاهرَ «الهدهد»، من خطواته إلى أنفاسه.

«سُوْرِيْنْ»، راعي أكباش «الحكم الجني»، استخرجَ حجراً من لفائفه ونصبَهُ على باب الحظيرة، ثم قرفص في محاذاته، طاوياً عباءته الطويلة على جذعه حتى لا تلمس الأرض الطينية. قرأ شيئاً مّا من لوحٍ لامرئيٍّ، وأحْكَمَ الحصارَ، بعقله، على الراعيين الآخرين.

هرَّ كلب «بِهْ - مَنْ» حين نصب «سورين» حجرَهُ المنقوشَ ذاك قبالة المياه: حجرٌ - رأسٌ، محطَّمُ العنق، بعينين نافرتين كأنما يغتلي فيهما الهلعُ، وثمة جناحان صغيران في موضعي الأذنين. له لحية ملفوفة بشكل أفعوانيّ في نهايتها. وفي قمته الخالية من الشعر قرنٌ مكسور، يمتد صوب الجبهة، معقوفاً مثل خنجر.

ألقى «الهدهد» نظرات طويلةً، حذرةً، على حَجَرِ

«سورين» ، وهو يتجه بقطيع تيوسه إلى البحيرة لتَرِدَ الماء ، تظللها من فوق رؤوسها غمامةٌ من القرون اللفَّاء ، الرقيقة الرّهيفة . وقد خالَ الحجرَ يتململ في موقعه ، لبرهةٍ ، لكنّه كذّب نَفْسَه ، وتفاداه منشغلاً ببهائمه يدلُّ كلَّ تيس منها على ركن في الضفة لا يكون مُنْحَدِراً فينزلقَ منه إلى المياه : كان يهمهم ، ويُصفِّر ، ويتوسَّل إليها بأسماء الأرقام الكبرى ، ويضرب براحة يده على ظهورها ، ويشدّها من أذيالها القصيرة ، ويمسِّد على قرونها ، وهي تتزاحم في ليْنٍ ، وتتوزّعُ الضفَّة الطينيةَ بحسابٍ مستورٍ ، مُتْقَنٍ ، وتتأمَّل بين ارتشافٍ وآخرَ راعيها الطويلَ الأعجفَ ، ذا الوجه الأمرد في سماره الداكن ، مُحاطاً بهالةٍ لامرئيةٍ كهالةِ حجر «سورين» .

شيءٌ مّا في مشهد رأس «الهدهد» كان يوحي باسمه : إنه شَعْرهُ المتكوّم كقَنْزُعة تحت حطته الغبراء المطوَّقة بحزام من الجلد . ما عدا ذلك ، يبدو الرجل ، بكُتلتِهِ الرمادية ، أبعد ما يكون شبهاً بطائر «الهدهد» . بل هو أقرب إلى الغرنوق . والأرجح أن له ذاكرةَ غرنوقٍ ، أيضاً . ذلك ما يتبدَّى في نظراته التائهة على صفحة المياه ، التي تستثير فيه الريبة ، وهو الذي اعتاد المشهدَ الصلبَ للرمال الضنينة بالبوح ، فلا يشهد على أعماقها إلاّ نبتٌ متناثر أشعث ، ضئيل وجافّ ، وبعض آبار لا يؤتمن وِفَاضُها . أما أن تكون المياه ، كما بحيرة «تاف» ، جَسُورة على ذلك النحو ، مُطْمَئنة ، مُعْلَنة دون حرص ، أليفة ومستوحدة في الآن ذاته ، فإنه لأمرٌ يحيل «الهدهد» الراعي إلى غرنوقٍ بأطول ساقين بين طيور الأرض ، ليُشرِف قَدْرَ ما يستطيع ، من عليائه ، على غوايات الظاهر التي لا تعرفها الباديةُ الدفينةُ في حجابِ أَرَقِها .

تحوَّل هريرُ كلب «بِهْ - مَنْ» إلى نباح خفيض ، متقطّع ،

لكنّه ينذر بانفجار غاضبٍ في رئتيه. حاول الراعي ذو الشاربين المعقوفين تهدئته بجذْب طوقِهِ فلم يهدأ الكلب. نهض واقفاً ونادى: «حجرُك يثير كلبي»، قال متوجّهاً بكُلِّه إلى الراعي «سورين» الجالس القرفصاء أمام حظيرته، فنهض بدوره وقد استرعاه النداء الغاضب، الذي لم يفهم كلماته، ثم هزّ أصابعه في الهواء، دائرياً: «ماذا تريد؟»، فكرّر «بِهْ - مَنْ» نداءَه: «حَجَرُك ذاك؛ حجرُك يثير كلبي»، وتمادى في صراخه: «ادفنْهُ في بَعْر أكباشك أو في بولها». فأدرك «سورين» أن راعي عشائر الشمال يشير إلى الرأس الحجري الذي نصبه أمام الزريبة، فتعمَّد إهمال تلك الإشارات المتوعّدة، وعاد جالساً القرفصاءَ لصق النُّصْب، منصرفاً بوجهه إلى البحيرة، حيث «الهدهد» المستغرق في سماوات من رمل الخليقة أبعد من مجاهلِ ذاكرة «تاڤ».

لم تَرُق لـ «بِهْ - مَنْ» إشاحةُ «سورين» عن ندائه، فأرخى قبضته عن طوق الكلب، من غير أن يُفلِتَه، فتحرّرت حنجرة الكلب قليلاً حتى كاد نباحه أن يتحوَّل إلى زمجرة لو انتبه إليها «سورين» لاختفى في كيان النُّصْب الحجري، وموَّه شكلَهُ في قناعٍ صلب. لكنه كان منصرفاً بقلبه إلى حيث اعتاد أن يرعى بأكباشه بين هياكل عُفِيَّةٍ، ما يزال فيها سموقٌ من أزل الحجر، ومهاراتِ الزائل: كان يتَّخذ الآثار مراعيَ، على كثرةِ وجودها في أرض عشائر «الحكم الجني». وهو يتخيَّرُها، على غير عادة الرعاة الذين ينحدرون بقطعانهم إلى ضفاف الأنهار، لخاصِّيَّةٍ يراها في العشب النابت بين حجارةٍ كانت مُدُناً من قبل، ومرابعَ وأدراجاً وقلاعاً، لكنّ سحرَها الأكثر جموحاً كان في ذلك الهمس الهادئ، المترقرقِ من خلجاتِ الحجر الصلبة؛ من كمين الأسرار -

تلك الودائع الآمنة التي استعرضَها العابرون، من أزمنتهم إلى الأبد، على فَلَك أعماقه. وهو همسٌ يمكن لمُنْصِتٍ جسُورٍ، مُسْتَغرِق في خشوعٍ كالهرطقة، أن يعيد تنضيدَه، بحروفٍ طيفيَّةٍ، على لوح قلْبه.

لقد كان «سورين» يصغي إلى حجارة الآثار، وتصغي أكباشُه إلى العشب النابت بين الرِّمَم والشقوق، وتتغذّى بذاكرة ذلك العشب الذي هو المتلقي الأوحد لتعاليم الكثافات الصلبة، حتى أنها باتت تقلِّد في مشيها، بما اختُزِن في خيالاتها من التَّسَارُرِ، مشيَ حجرٍ لو قُيِّضَ له أن يتسنَّمَ الحركةَ، وإذا وقفتْ بَدَتْ كتماثيل على بواباتِ معابد خفيَّةٍ في كيان الفراغ.

«سورين» وأكباشُه قادمون من هناك؛ من رحابة الثابت الذي يصير أزلياً في عبوره من شَكْلٍ مُسَوَّىً إلى رِمَمٍ، ومن خامٍ كُتلةٍ عشواءَ إلى شَكْلٍ من متناظرات الخيال والبصر. وكي لا ينقطع راعي عشائر الشرق عن مجاورة السرِّ، فقد اصطحب رأسَ تمثالٍ من نافل التماثيل المهدورة في غَسَقِ الزَّمن، وجعلَهُ صفيَّهُ يستعرضان معاً خيالاتٍ لا تُصَنَّفُ، لأنها يقينٌ في ذروة هذيانه الصامت. وهكذا كانا، ذلك الرُّبعِ الثالث من الصباح المُضاء، مستغرقَيْنِ، هو ورأسُ التمثال، في الإشادة بمقام البحيرة التي عكَّر حنينَها المائيَّ وقوفُ «الهدهد» هناك بتيوسه ذات اللّحى الفضية، متكئاً على عصا من الخرّوب الذي يستبطنُ دويبةَ العصيان الكبير - دويبةَ الأَرَضَةِ التي مكَّنَتِ الجنَّ من تمرُّدها على النبيِّ سليمان.

عرف «سورين» مَذاهبَ المفارقةِ في أعماق «الهدهد»، المنصرف إلى مقارنات بين المياه والرمال، فأزمع أن يعابثه، مُخْرِجاً من جعبة الراعي، التي لا تفارقه، رقائق من

حجر الأنهار الملساء دَرَج على اتخاذها تسلية في أقاليمه ذات الجداول، يرميها على سطوح المياه أفقياً فتنزلق أربع عشرة مرَّة، شبراً بعد شبر، قبل أن تغوص بثقلها في الجروح الباردة. ولم يكن ليضاهيه أحد في رَمْيةِ تلك الحجارة الرقيقة، الصَّدفيّة الملمس، ويمكّنُها مثله من اختطاف قُبَلٍ رطبة من الشفاه التي لا حَصْرَ لها في المياه. ولربما اقتدر آخرون على تزليج حجارتهم ثلاثاً، أو أربعاً، أو خمساً. أمّا أربع عشرة مرة، حتى لو كان السطح السائل بين ضفتين لا يُجاوِزُ مائة ذراع، فذلك كان شأناً له، طوَّعَهُ بمِرَانٍ لا مباهاة فيه، وحدَه، في عزلة الراعي الأليفة.

صفَّر الحجر الأسطوانيُّ، الأملس الرقيق، من فوق قرون التيوس المطأطئةِ الأعناق فأجفلت لوهلةٍ وهي ترى انفتاحَ دوائر متلاحقة في السطح الهادئ للبحيرة؛ ترتفع في مراكزها، مع انزلاقة الحجر الفاتنة، حلماتٌ بيضاء أنعظَتْها أبواقُ الزَّبد الصغيرة التي نفخت فيها أفواهٌ من الأعماق. لكن التيوس، التي لم تبارح أماكنها، بالرغم من الإجفالة، ما لبثت أن تراجعت بصدورها خطوات حين صفَّر حجرٌ ثانٍ فتفتَّحت أربع عشرة حَلَمة جديدة، في خطٍّ متوازٍ مع أخواتها التي تنكَّستْ ذائبةً في صَدَفةِ أمومتها الزرقاء.

هاجتْ قَنْزُعةُ الراعي «الهدهد» - تلك اللمَّةُ من الشَّعر المنتفخ تحت غطاء رأسه. التفتَ مسعوراً إلى «سورين» وقد ازداد وجهه غَرَقاً في دكنَتِه، وصرَّ على زجاج الكلمات بأضراسٍ هشَّمَتِ المعنى كأنه يهذي، ثم تقدَّم مدفوعاً بريحٍ من الرمل في شراع أحشائه حتى كان في مواجهة «سورين» الذي لم تزل ملامحُ المداعبة الثقيلة هي المستولية على وجهه. رفع عصا الخرّوب الغليظة عالياً وهوى بها، مبلَّلة

بلعاب الجنِّ، على الرأس الحجريِّ فدوَّتِ الضربةُ في السراديب الكبرى لأعماق «تاف».

قفز «سورين» عن الأرض أشباراً، محمولاً على جناح الذعر، بيد أن الرأس الحجري بقي سليماً، لكنه سقط على جنبه. فهوى «الهدهُد» بالعصا عليه، ثانيةً، فانْقَلَع الرأسُ قسمين على استدارة جمجمته، وتطايرت عروقٌ من اللحية المجدولة سمعَ هسيسَها النونُ الجاثم في أَزَلِ المكان، فتململ قليلاً، بينما ناح «سورين» نواح امرأة، وطوَّح بغطاء رأسه إلى الطين مرتجفاً من عَصْف اللوعة، وهو يحدّق بعينين جاحظتين في «الهدهد»: «ماذا فعلتَ؟»، قالها مختنقاً.

لم يتوقف «الهدهد» أمام نواح «سورين». زفرَ من أعماقه زفرَةَ الجفاف ذي المخالب، واتجه إلى الحظيرة التي أودعها راعي عشائر الشرق أكباشَه العشرين، الموفورةَ العظام والصوف، وأطلق عصاه بينها تهوي، بدفْعٍ قويٍّ من عضلة الغضب المُتْرَفة، على رؤوسها فتسقط الأكباش، واحداً بعد الآخر، وقد زَلْزَلَها الضربُ وصدَّع العظامَ بشراراتٍ تحرثُ رؤاها الحيوانيَّة بمحاريث من خَدَر الوميض، فيما «سورين» يزداد ذهولاً من المشهد، ويجمِّدُهُ هولُهُ النازف فلا يتحرّك عَصَبٌ فيه أو مفصل، حتى أنه لم ينتبه إلى بروز الكلب الذئبيّ الضخم إلى جواره، يواكبه صوت «بِهْ - مَنْ» صارخاً: «أخْرِجْه من الحظيرة، وأنا أتكفَّلُ به»، ثم دفعه بيده في منكبه فأفاق «سورين» على تعنيف راعي الشمال، مستعيداً بعض أعصابه ومفاصله الذائبة. وبالرغم من أنه لم يفهم كلمات «بِهْ - مَنْ»، إلاّ أن الإشارة كانت كافية لإفهامه بوجوب فِعْل شيء

مّا، يدفع «الهدهد» إلى الخروج من الحظيرة قبل أن يُجْهزَ على الأكباش، وتَنْهَدَّ صرعى، فهرع إلى جِرابه يستخرج منه رقائقَ من الحجر، ثم رمى «الهدهدَ» بها من فوق قرون حيواناته، فأصابه في حَرْقَدَتِهِ التي خرج من قناتها صوت كصوت طبلٍ مثقوب.

سقطت عصا الخروب من يد «الهدهد»، الذي غطى موضع الألم في أعلى حَرْقدتِهِ بيديه كلتيهما، وتهادى مترنحاً من داخل الحظيرة يلتمس هواءً لا يسعفه في العبور إلى رئتيه، فيشخر شخيراً. مرَّ بالراعيين «بِهْ - مَنْ»، و«سورين» وقد غشت عينيه المندلقتين من محجريهما غاشيةُ اختناقٍ وشيك، ثم اتجه إلى البحيرة بخطاهُ المتداخلة، فاجتمعت عليه تيوسه تواكبه في هدوء جليلٍ بعشره كلبُ «بِهْ - مَنْ» الذي أُفلتَ من يد الراعي فانقض، بعد قفزتين، على عباءة «الهدهد» من خلف يسومُها تمزيقاً، والرجل يترنح، لكنه يجاهد للوصول إلى الماء. وقد خاض فيه والكلبُ لا ينفكُّ عنه، ومن حوله خاضتِ الماءَ تيوسُه العشرون فلولاً مبعثرةً إنّما بإصرار في أن تواكب الراعي «الهدهد» إلى حيث يلتمسُ في غور البحيرة أَقْفالَها الأزلية، باتّفاق غامضٍ من رمال قلبه مع النداء الأزرق، الموحش، العنيف، الذي تجفل منه مغاليقُ الباديةِ وكراماتُ جفافها.

ارتدَّ الكلبُ الذئبيُّ الضخم حين أمعن «الهدهد» إيغالاً في الكثافة الطائشة للمياه. صعد ضفَّةَ البحيرة مبتلاً وأقعى لصق «بِهْ - مَنْ» الواقف مع «سورين» يشهدان التماعاتٍ من الضوء المُمَزَّق تتفافز كالجنادب فوق قرون التيوس، التي لا يُرى إلاّ رؤوسها متدافعةً في يأسٍ لا نهايةَ لأَمَلِهِ. وقد بدأت تلك الرؤوس تمَّحي، واحداً بعد الآخر، ينغلق عليها الضوءُ

والماءُ بيد السطور الفضيّة، حتى لم يبقَ إلاّ رأس «الهدهد» طافياً في الحقل الذائب يغوص نصفه، ثم لا يلبث أن يرتفع باندفاع مريرٍ من جسد الراعي كي يلتقط جناحَ النجاة اللامرئيَّ.

أمسك «سورين»، فجأةً، بعضد «بهْ - من»، مرتعشُ الشاربين: «أنتَ غرَّقْتَه»، فامتعض «بهْ - مَنْ» من حركة «سورين» المُباغتة دون أن يفهم كلماته: «اتركْ عضدي» قال له بنبرَةٍ مُعَنِّفةٍ. لكن صاحب الأكباش تمادى في شدِّ عباءة «به - من» من أعلى ذراعه، مهوِّلاً عليه بلسانه - لسان عشائر الشرق: «أنتَ غَرَّقْتَه... أنتَ» مشيراً بيده الأخرى إلى رأس «الهدهد» الذي بدأ الماءُ يجذبه بثقله إلى الغواية. ولمّا تعذَّر على «بِه - منْ» أن يحرِّرَ ذراعه من يد «سورين» وإشاراته المُجحِفَة في رطانتها الغامضة، أوْمَأَ، بهمهمةٍ جافَّةٍ من حَلْقِهِ، إلى الكلب، الذي ارتفع عن الأرض طائراً بشهوةِ القنص التي فيه، وأطبق بفكّيه على كتف «سورين» فطقطقتِ عظامُه من تحت عباءته السميكة. وقد التجأ، بغريزة الخَفاء التي فيه، إلى الحظيرة، خائرَ الجِنان من هَلع الفجاءة الضارية، متخذاً من أكباشه سواترَ تخفِّفُ انقضاضات الكلب عليه، دون جدوى. إذ تفرَّقت الحيوانات ذات القرون من حوله مذعورةً، يلتصق بعضُها ببعض، مُنَكَّسةَ الأعناق يكاد واحدها يُخفي رأسَهُ تحت بطن الآخر.

أصواتٌ موحشة علت من جوف الحظيرة، مهشمةً من الذعر. ثم اختنقت قليلاً قليلاً لتتحوَّل إلى أنينٍ ضارعٍ فيه استسلامٌ ويأسٌ مُعْلنان، قبل أن يخرج الكلب الذئبيُّ مغسولَ الشدقين بدم الراعي، متجهاً إلى صاحبه «به - من» الذي زاد الغضبُ من التماعةِ شاربيه المُمَسَّدَيْنِ بقليلٍ من شمع العسل

الذَّهبيّ، المجلوب من مناحل هضاب «نارمين» الحمراء.

أمسك راعي عشائر الشمال بطوق كلبه، الذي طغى على لهاثه الخفيفِ امتنانُه للهدوء المُبَشِّرِ برضا المحنة عن نفسها، وتقدَّم صوب حظيرته حيث تجمعت غزلانه العشرون على عتبتها مرحةَ الأعناق، جذلى القوائم، على أهبةِ أن يُطْلَقَ سراحُ ظَمَئِها لتندفعٍ إلى مياه البحيرة.

تململ النونُ في كمينه فاحتكّت شِعابُ قرونه، التي لا تُحصى، بغيوم الأعماق.

مُعَذَّباً استرسل الزمنُ في عراكه مع الضوء، وسط حلقة منازل «جواني صال»، حيث عاد النقباء الثلاثة، ورهطهم، وساكنو «تاف» من بشر ودجاج وكلاب، إلى ترميم ما انقطع من حكاية الشهرودي، بعدما انصرفوا إلى إفطارهم متأخرين.

قال «النابوري»، متوجهاً بكلامه إلى كاتبيه المتشابهين في هيئتيهما: «علينا أن نوصد الباب»، وتطلَّع بتحديق جافّ إلى «خبات كولاف» المقبل على تدخين لِفافته بشراهة: «أعني أن علينا إلغاء الباب بوضْعِ جدار عليه. لَبِنَةٌ مِنَّا ولَبِنَة منكم. ويتولّى هذا...» - مشيراً برأسه صوب «الحكم الجني» - سَدَّ النافذة بالطين»، ثم التفت، بالتتابع، إلى كاتبيه: «دوِّنا الأسباب، أنتما تعرفانها».

ارتفع صوت «الحكم الجني» متسائلاً بنبرة امتعاضٍ: «هل عنيتني ببعض إشاراتك هذه؟ ها؟»، وقرَّب رأسه من رأسي كاتبيه هُوَ: «أتظنان أنه عناني بشيء من كلامه؟!»، فهزّا رأسيهما نفياً: «ليس في رطانته خصيصةٌ من خصائص اللغات، أيها السيد. هذا الجني لا يتكلّم. لا ينطق. لا يعرف لغةً»، فانفرجت أسارير وجه «الحَكَم» المشدودة، وبلل

شفتيه بالرّضا الذي صعد من قلبه إلى لسانه: «لطالما ظننتُ أن ليس لهذا الرجل لغة، وها أنا على يقين...». أما «النابوري» فقد بدأ، من فوره، يحوِّل مقترحاته بإغلاق كل منفذٍ على الشهرودي موضع التنفيذ، طالباً من رجاله أن يجمعوا طيناً من الساحة. وأوعز إلى كاتبيه التوجّه إلى «دارا» كي يسألاه أدواتٍ لِنَكْتِ الأرض، وقوالب خشبية لصبِّ لبناتٍ فيها، فتوجَّها إلى عم «جواني صال»، الواقف أمام مسكن النساء اللواتي تحلَّقن عليه ملثَّماتٍ، وفي عيونهن فضول يحجب قليلاً حزنهنَّ الذي هُنَّ فيه.

قال كاتبا «النابوري» بصوت واحد، حين صارا على بعد ذراعين من الرجل الضخم: «ألديكم معاول، ورفوش، وإطارات خشبية؟»، فلم يفهم «دارا» كلمة مما تقوَّلا. التفت من حوله ونادى: «ساكو... أين ساكو؟»، فبرز الشيخ الذي كان مقرفصاً لصق حائط، على مقربة منه: «أتناديني يا...»، فقاطعَ «دارا» بقيةَ الكلمة في فمه: «لماذا تكون جالساً، أبداً، حين أحتاج إليك؟»، ولم يمهله أن يتكلَّم، مُردِفاً: «أيّ شيء يريد هذان؟».

تلبَّدتْ ذاكرةُ «ساكو». برقٌ مّا أضاء هشيماً من سطور لغةٍ هاربة إلى تعبها، فمطّ الشيخ عنقه صوب الكاتبين، وصحّح من وضع عقاله على حطته المخطّطة بقصبٍ ذهبيٍّ مهترئ: «عفواً. كرّرا عليَّ ما تريدان»، فنظر كلّ كاتب إلى الآخر، متمتمين بلسانٍ واحد: «جاء حاملُ الشقاء»، ثم ضحكا، فابتسم «ساكو» الشيخ من ظنّه أنه يبهجُهما، وفتح فمه الكهفيَّ: «لستُ عجوزاً إلى الحد الذي تتصوران. قلبي قلب ثور»، ودقَّ بجماع يده على صدره، فمكثا ساهميْنِ ينظران إليه بعدما تبدّد ضحكهما، فقرَّب الشيخ رأسه منهما أكثر:

«أتدوّنان أرقاماً، أم كلماتٍ؟». لكنه بوغت بصوت «دارا» يذكِّره، بتعنيفٍ مُبطَّنٍ، ما كان ينبغي عليه استيضاحه من الكاتبين: «هل سألتهما ماذا يريدان، أم أنت تلهو؟»، فصفَّر في عروق الشيخ هواءٌ جافٌّ أعادَ تصحيح قامته التي مال بها المرحُ العابر، فساءلَ الكاتبين، ثانيةً: «عفوكما، ماذا تريدان؟»، فنظر واحدهما إلى الآخر، وتمتما بلسانٍ متطابق: «حاملُ الشقاء هذا لا يعرف لغةً»، ودوَّنا شيئاً في دفتريهما ثم أرياهُ كلَّ ما في سطوره.

حدَّق «ساكو» في الدفترين بإعجاب. مرَّر سبّابته المقوَّسة، ذات العُقَد كغصن شجرة التين، فوق صفحتيهما متلمِّساً أخاديدَ الحبر ودهاليزَه الشهوانية، ثم تأوَّه من تحت أنفاسه الخفيضة، متمتماً دون أن يرفع عينيه عن السطور: «هذه كلمات وأرقام. يا للصِّناعة!!»، ورفع وجهه إليهما: «هذه كلمات وأرقام... أليس كذلك؟»، فلم يتكلَّما. بيد أن «ساكو» استرسل يتقرّى الصفحتين بأناملٍ متقشِّرة من يباسها: «ألديكما رَسْمُ **للنون**؟»، سألهما بفكٍّ مرتخٍ، وأردف مطيلاً تحديقه في وجهيهما: «لا شكّ أنكما تعرفان كيف ترسمان **النون**». إذ ذاك أغلق الكاتبان دفتريهما، وقد مسحت اللامبالاةُ ملامحهما بفرشاتها، فجمد «ساكو» الشيخ مترقباً ما سيعقبُ حركتهما تلك، قبل أن ينكمش تحت يد «دارا» التي حطَّت على جفاف كتفه المقوَّسة: «ماذا أرياك؟»، سألَهُ بصوتٍ يرشح من مسام حنجرته، فردّ الشيخ تلقاءً: «أَرَياني دفتريهما».

«أعرف» دمدمَ «ساكو»، وأرخى قبضتَه عن كتف «ساكو»: «ماذا فيهما؟» سأله ممتعضاً من تباطؤ الشيخ في تدبير شرحٍ وافٍ. لكن الأخير لاذ بِحيْرَتِهِ الصامتة، فخرج «دارا» عن

طوره، صارخاً: «ماذا في دفتريهما؟ ما الذي يطلبان؟»، فالتفت إليه «ساكو» محدِّقاً فيه من محجريه المعتمين: «لِمَ لا تنظر إليهما، بنفسك، يا سيد دارا؟».

«أنا؟» تمتم «دارا» منزعجاً من لهجة «ساكو»، وأكمل امتعاضه: «ما مهمّتك؟»، فردَّ الرجل الشيخ بصوت بارد: «ليست لديّ مهمة. لم يكلفني أحد بشيء».

لانَ «دارا». أحسَّ أنه بالغ في تعنيف «ساكو» الشيخ. تمتم باعتذار غير صريح: «من لنا غيرك يا ساكو يجعل اللقاء مُحتملاً بأناس كهؤلاء؟»، وقدَّم إليه كيس تبغه، فهز «ساكو» رأسه يمنة ويسرة، متعفّفاً عن قبول الكيس المحمول على مودّة «دارا» المعروضة بسخائها الخجول. قال: «تبغك قويٌّ يا سيد دارا»، واستطرد مجيباً عن سؤال لم يُسْتَظْهَر: «ليس لهؤلاء لغة»، وأشار إلى الكاتبين.

«عنيتُ ماذا في دفتريهما؟»، سأله «دارا»، فردَّ «ساكو»:

– كلمات، وأرقام.

«ماذا تقول الكلمات والأرقام؟»، دَمْدَم «دارا»، من تحت شاربيه المرخيين على لحيته، فتمعَّن فيه «ساكو» الشيخ مبتسماً، وألمحَ إلى السذاجة التي في ذلك السؤال:

– وكيف لي أن أعرف، يا سيّد دارا؟ أتقرأ أنتَ؟

تنحنح «دارا» من درايته أن السؤال ساذجٌ، بحقٍّ. لكنه لم يفوِّت استدراكَهُ بيُسْرٍ: «ظننتُ، ربّما، تفكُّ بعضَ الحروف. الشيوخ مثلك يتعلمون ذلك بمِرَانِ عيونهم، ودُرْبَةِ الزمن». فهزّ «ساكو» رأسه موافقاً، إنما بيقينٍ ناقص، وقال: «الأرجح أن الشهرودي كان سيعينُك أكثر مني».

«الشهرودي...» نطق «دارا» الإسمَ كأنما يُعيْنُ نفْسَه على اجتياز غفلةٍ جذبتْهُ إلى متاهتها. خلعَ جسَدهُ من حيِّزه الثابت

وتقدَّم صوب النقباء الثلاثة، المطوَّقين برهطهم أمام الغرفة التي أُغلق بابُها على «جواني صال» والشهرودي وأمّه. دفعَ بعضَ المجتمعين مُفْسحاً فراغاً لعبوره حتى صار إلى مواجهة المتجادليْنَ الأسياد، فتلقَّفه «النابوري» من فوره، كأنما كان ينتظره: «ها جئتَ. كُنْ شاهداً، إذاً»، وانحنى على الأرض يجمع حفنةً من الطين، ثم مسَّدَ بها الباب الخشبي المغلق، قائلاً: «فلنبدأْ هكذا». وانحنى ثانيةً فكَوَّر بعض الطين في راحته وقدَّمه إلى «الحكم الجني»: «خُذْ هذا. باشِرْ إلى سَدِّ النافذة»، وفتح أصابعه المفرطة في طولها عن القلب الأحمر لكرة الطين.

كادت ساحة منازل «جواني صال» أن تتجوَّف كتوأم صغير للبحيرة من كثرة ما انْتَهَبتِ الأيدي سطحَها اللَّيِّنَ البليل: لا معاول. لا مناكيش. لا رفوش، بل أصابعُ آدمية نهشتِ الطينَ الأحمر، ومزَّقَتْهُ، وعجنتْهُ، وسوَّتْهُ طبقاتٍ رقيقةً بعضُها فوق بعض، أمام الباب، حتى لم يبقَ من خشبه أثرٌ يُرى في نصف ساعة، ومثلُهُ النافذةُ التي محاها رهط «الحكم الجني»، فيما لم يتحرَّك «خبات كولاف» ليشاركهما ذلك السرَّ المُعْلَن في احتفالٍ طينيٍّ، مكتفياً بإجاباتٍ مُقْتضبة يكوِّرها بلسانه كثمرٍ، في الحقل الذي نبتت فيه بنات «جواني صال» الثلاث عشرة، مورِقاتٍ برغم حزنهنَّ.

«أهؤلاء ضيوفُنا، أمْ ماذا؟» كنَّ يسألن الرجلَ، حاملَ أختام جدِّهِ ذي المصكوكات المرجانيّة، فيجيبهن بكلمات كردية:

– نعم. لكنهم ضيوفُ كلِّ مكانٍ آخر، أيضاً.

«أليس من حقنا أن نعرف ماذا يفعلون؟ ألا يستشيروننا، أو يشرحون لنا في الأقلّ؟»، كُنَّ يسألْنه، فيردُّ «خبات»،

حاملُ لغة جدّه «دارين الأول»، ربيبُ السهول الباردة، والجبال المحمومة: «الأسئلة مضيعة للوقت يا بنات السيد جواني. هؤلاء يفتحون الأبواب ويغلقونها؛ يفتحونها ويغلقونها. إنهم يمتحنون أنفسهم وحدها». ويتمتم مخاطباً فراغَ النَّقْشِ اللامرئيِّ: «لقد انتهوا من سدِّ الباب والنافذة، والآن دَوْري في تدبير البَلْبلة».

كان الرضا يعمّ وجوه رهطَيْ «النابوري» و«الجنيّ» بعدما أنجزوا لُغْزَهم الظاهر. التفتوا إلى «خبات كولاف» ورهطه مثلما فعل نقيبا الجنوب والشرق، كأنما يعيّرونهم باحتجابهم عن سلوكِ ما سلكوه هُمْ، منتظرين - في الوقت ذاته - تبريراً مَّا أيقنوا، بالعلامات التي في عيونهم، أنه سيكون واهناً يكفل لهم السخرية، مع سَبْق المعرفة أنهم لن يفهموا لغةَ التبرير على أية حال.

تجاهل «خبات كولاف»، نظرات النقيبين. وجَّه سؤالاً إلى «خانيا بوران» الملثمة، الواقفة على بُعْدٍ هيِّنٍ من بناتها الملثّمات: «أليس لهذا المنزل نافذةٌ غربية؟»، مشيراً إلى حيث يرقد «جواني» مُصْطحباً بملاكيه الحيَّيْنِ: الشهرودي اليمني، وأمه التي لا يخفى على «ساكو» الشيخ أنها تؤجِّجُ النار بالمنفاخ، في الكور، مُذ شمَّ رائحةَ القصدير في الهواء، فدمدمَ: «أُقْسِم بالنون أن هذا اليمنيَّ يُبَيِّضُ آنيةَ أهل القيامة»، وقد تبرَّع من فوره، حين رأى إشارة «خبات كولاف» باجتذاب نقيب عشائر الشمال: «تعال أيها السيد. دورة صغيرة خلف مسكن العائلة، هنا، ونكون إلى الجهة الغربية»، فتبعه الرجلُ مع رهطه.

تنبَّه «النابوري» إلى حركة «كولاف» التي شوَّشتْهُ. جذب كاتبيه من كمّيهما بيديه فاقتربا حتى لامساه. قال مطأطئاً في

بحثٍ خفيضٍ عن معنى مّا: «أظنُّ كولاف هذا يهيئ أمراً. دوِّنا شيئاً؛ دوِّنا أيّ شيء»، فهمسا بصوت متوافقٍ مسموع: «ما من حاجة إلى التدوين. إنه يقصد الجهة الغربية من المنزل الذي يرقد فيه جواني».

انتفض «النابوري»: «ماذا يريد من الجهة الغربية؟»، وتلفَّت من حوله باحثاً عن «الحكم الجني» حتى استقرّ بعينيه الجافتين عليه، فتقدم منه يسبقه صوتُه - صوتُ الرمل: «أترى ما أراه أيها الحكم الجني؟ هذا الشماليُّ سيدبّر أمراً في الجهة الغرب»، وفتح أصابع يديه المفرطة في طولها كأنما يرفعُ دعاءً إلى الأزل المحموم، فتطلع «الجني» بالتناوب إلى كاتبيه المتأهِّبين بقلميهما: «إلى مَ يتضرَّع هذا المولود من الجحيم؟»، فمالا عليه يهمسان: «ليست لهذا الرجل لغة يتضرَّع بها أيها السيد». لكن «الحكم الجني» توجَّس، بدوره، بارقةً من الريبة وهو يرى «خبات كولاف» يلتفُّ من حول المنازل، غرباً، متبوعاً برهطه، فلحق به يسبق خطى «النابوري» الواسعة. وعلى نحوٍ كاستشراء العدوى تزاحم كلٌّ من في الساحة من أهل «جواني»، وأقربائه، وساكني «تاف» أطفالاً ورجالاً ونساء، وبعض الكلاب الهزيلة، والدجاج الحانق، يتبعون «خبات كولاف» إلى الجهة الغربية من المساكن، في مشهدٍ انتصبت فيه قامة «ساكو» الشيخ وهو يرشد الجَمْع الكبير، بإحساسِ دليلٍ قويٍّ ولو لم تربُ مسافة مهمته على مائتي ذراع: إنه، لمرَّةٍ أولى، يُلْهم المعرفةَ بعضَ ثِقَتِها بوساطتِهِ هو - وساطة «ساكو» ذي العينين المتراجعتين إلى تجويف عمره المُقْفَل. وحين بلغَ الحائط الخلفيَّ الطويل للغُرف المتصلة، وقف يستعرض بيده الجافة ما لا يُستَعْرَضُ: «لكلِّ غرفةٍ كوَّةٌ

غربية ، كما تَرَى» ، قال متوجهاً إلى «خبات كولاف» ، الذي سأله : «أية كوَّة هي التي لغرفة جواني ؟» ، فأشار «ساكو» بسبابته إلى إحداها وهو يؤكد بلسانه : «هذه هي . هذه هي» .

كانت الكوَّة صغيرة ، مستديرة ، ضُرِبَ عليها غطاءٌ شفيف جداً من حواصل الإوزِّ كُشِطَتْ ، بعد تجفيفها في الملح وعُصارةِ نبات الكَتَم ، بشفرة رهيفةٍ حتى غدت كزجاج سماويٍّ الزرقة . والأرجح أن الكوى الأخرى ، كلّها ، كانت موصدة بسُتُرٍ من تلك الصِّناعة تسمح للضوء بإنارة الداخل ، في المغيب ، بِحُزَمٍ خافتةٍ يتجاوزُ مستقيمُها ومتعرِّجَها ؛ تتماوج حيناً وتتصلَّب ؛ تتطاول وتتقاصر ، تنبضُ وتَسْكُن ؛ تَنعقِدُ رسوماً شتَّى وتنحلُّ ؛ وإذا تحادث شخصان وقعتْ عليهما تلك الحُزَمُ ، فإنما يغدو حديثهما فِقْهاً في أحكام التوريث على وجوهٍ لا تتَّصل بدِيْنٍ قط ، وتصفو لهما صناعةُ الشِّعر على رقيق الكلام وخشنِهِ ، حتى لو تقلْقَل النَّظْمُ وتلجلجَ المعنى ، وخارتِ اللغةُ وبارَتْ .

قال «خبات كولاف» ، وهو ينظر إلى الكوةِ بتقصٍّ وافر من ظاهرِ عقلِهِ : «اختَرْنا أن نوصد هذه حتى لا يحسب أحدٌ علينا أننا أحْجمنا عن سلوك ما سلكه هذان النقيبان ، وعَفَفْنَا عن أخذ قسطنا من التَّركةِ الصغرى» ، فدنا منه «دارا» الضخم متسائلاً : «تَرِكة صغرى ؟ اعذرنا عن قصور فهمنا يا سيد كولاف» ، فردَّ الأخير من غير أن يرفع عينيه عن الكوة : «ناموس الموت ، يا سيد دارا . عنيتُ ناموسَ الموت» ، فطأطأ «دارا» وبه أُهبةٌ إلى شرحٍ أوفى ، لكنه كتمَ نكوصَهُ ، وعاد يسأل نقيبَ عشائر الشمال : «وما التركة الكبرى ، إذا كان الموت...» ، فقاطعه حاملُ أختام جدِّهِ «دارين» الأول ذي المصكوكات المرجانية : «العدمُ...» ، وكرَّرَ الكلمة مغمضاً

عينيه: «العدمُ؛ شهوةُ كلِّ إرثٍ».

تطلَّع «دارا» إلى «ساكو» الواقف لصقه، مستعيناً به على فَهْم ما استغلقَ من مراتب كلام «كولاف»، برغم ألفاظه الكردية، فألفاه مفتوح الفم عن ارتخاءٍ في فكّه وعقله معاً، غائبَ العينين والنَّفَس كأنّما خنقَهُ الهواءُ منذ دهرٍ وأبقاه واقفاً، فشدَّه «دارا» من ردن عباءته السميكة: «ساكو، أفهمتَ شيئاً؟»، فردّ الرجل الشيخ متمايلاً قليلاً من وطأة الحياة المتشبثة بثيابه: «هذه ليست لغة يا رجل»، فكاد «دارا» أن يصرخ به من وطأةِ المَجازاتِ العمياء، لكن «النابوري» سبقه في الصراخ، قادماً برهطه الذي يمشي كالزرازير: «ما الذي تروم من هذه الكوة، يا سيد كولاف؟».

التفت «كولاف» بهدوء إلى نقيب عشائر الجنوب، وفي سحنته ما ينمّ عن أنه فهم كلماته النابحة: «سأسدُّها يا سيد جابو النابوري».

تبلبلَ «النابوري»، أوْ هكذا بدا. همهمَ وهو يستدعي كاتبيه أنْ يقتربا منه، بإيماءات متكرِّرة من أصابعه المفرطة في طولها: «منذ متى جرى الاتفاق على هذا الأمر؟»، فانكبَّ الكاتبان على دفتريهما قبل أن يصعقهما صراخُ «النابوري»: «لا تدوِّنا شيئاً. لا تبحثا عن شيء في دفتريكما»، ثم ارتدَّ إلى الخلف مستهولاً ما أَقدمَ عليه «خبات كولاف» في تلك البرهة، حين عمد إلى حفنة من الطين ألصقَها بإطار الكوَّة.

صوتٌ آخر، متشقِّقٌ ومندهش، عبرَ حلقةَ الرجال المحيطين بالنابوري وكولاف، قادماً من الجهة التي بلغَها «الحكمُ الجني»: «متى جرى الاتفاق على أن تغلق هذه الكوة، يا سيد كولاف؟»، ولكزَ كاتبيه عن يمينه وشماله: «لا

تدوِّنا شيئاً. لا تبحثا عن شيء في دفتريكما. أعيناني بالإشارات»، فطفقَ الكاتبان يضربان بأعقابهما على الأرض الطينية، ويتمتمان كلماتِهما الغارقةَ في شحوب رطانتها. فيما استرسل «كولاف» في سدّ الكوة بالطين، غيرُ مصغٍ إلى الجدال الصاخب بين «الجنّي» و«النابوري»، اللَّذيْنِ لم يكونا معنيين بترتيب سياقٍ لذلك الجدال، ما دام لا يفهم أحدُهما كلماتِ الآخر. لكنهما، بتدبيرٍ غامضٍ، كانا قابضين على السياق ذاته لِمَا يجعل المَعْنى ألماً:

«كيف يتجرَّأُ على هذه الجهة؟ مَنْ وكَّلَهُ أن يُقْحِم نَفْسَهُ في هذا العَدَم؟» صرخ «الحكم الجني» مذهولاً، فشدَّ «النابوري» رُدْنَيْ كاتبيه: «أتسمعان ما أسمع؟ إنه يقول شيئاً مّا عن جهة الغرب»، ثم أفلتَ رُدْنيهما متأمِّلاً تعابير وجه «الجنيّ» متسائلاً: «إذا لم تكن له لغة، فلماذا يتحدث عن جهة الغرب؟». وجَمَد قلبُهُ لحظةً حين صرخ به «الحكم»: «إفعلْ شيئاً. أوقِفْ خبات كولاف».

«أيسألني أن أوقفَ كولاف؟»، تمتم «النابوري»، ونقَّلَ بصرَه بين كاتبيه: «أظنُّه يسألني أن أفعل شيئاً»، ثم أشار إلى دفتريهما المفتوحين على صفحات تنتظر شرودَ الحبرْ: «دوِّنا ذلك»، وتقدَّم إلى «كولاف» الذي كاد يفرغ من سَدِّ الكوَّة: «هذه الجهة موصدة. لا حكمةَ لإقفال شيء فيها. لا حكمةَ من وجودها». وقرَّب وجهَهُ من وجه الرجل ذي الشاربين المعقوفين، حمَّالِ الأختام المرجانية: «أنت تنتهكُ المعنى»، قال كلماتِهِ وضربَ الأرض بعصا الخرّوب.

ارتجفت عضلةٌ في ذيل **النون**، الجاثم هناك في فراغٍ متَّصلٍ بفراغٍ لا يُحتوى.

فتح «الحكم الجني» فمه مصعوقاً حين ختم «كولاف»

الكوَّة بآخر حفنةٍ من الطين ، وانحنى فاتحاً يديه لإبريق الماء الذي أحضره شخصٌ كان ينتظر ، ربّما ، أن ينتهي نقيب عشائر الشمال من مهمته . فتح كاتبا «الجني» دفتريهما لمَّا رأياه منشدهاً هكذا ، ومضيا يكتبان .

«ما الذي يدوِّنه هذان ؟» ، قال «النابوري» لكاتبيه وهو ينظرُ إلى كاتبي «الجني» مهمومَيْنِ يصِرُّ قلماهما على الورق كأنما يحرثان البياضَ الصُّلْبَ . فأغلقا دفتريهما ، واقتربا من الكاتبين الآخرين ، وهما يلقيان عليهما سؤالاً بصوت واحد : «ماذا تدوِّنان ؟» .

أغلق كاتبا «الحكم الجني» دفتريهما أيضاً ، والتفتا متواجهيْن مع كاتبَيْ «النابوري» : «أأنتما مُهرِّجان ؟» ، قالا بلسانٍ واحد ، فامتعض الأخيران : «ماذا في الأمر إنْ سألناكما ماذا تدوِّنان ؟ أتهريجٌ أنْ نسألَ ؟» فردّ كاتبا «الحكم» : «تعرفان ما الذي ندوِّنه . إنه مسجَّل في دفتريكما» .

فتح كاتبا «النابوري» دفتريهما دون تعيينٍ . قَلَّبا بعضاً من الورقات الكبيرة وهما يقرآن سطوراً متنافرةً في همس مُبالغٍ فيه ، ثم توقَّفا عند فراغٍ مّا في إحدى الورقات . تبادلا النظر المُلْغِز متمتميْن : «اليقينُ يأسٌ آخر» .

«لا . لا تقرآ هذا» صرخ كاتبا «الحكم الجني» ، وأضافا بتوتُّرٍ واضح : «لا تقرآ من حيث ينبغي لنا أن نقرأ ، أيها المهرِّجان» .

علا وجْهَي كاتبي «النابوري» ما يشبه غمامةً من رمل . تصلَّب وترُ الجفاف في لهاثهما الخشن ، وتبادلا نحيباً خافتاً كأنما يندبان فقيداً ، فعنَّفهما «النابوري» : «يا لكُما . ردّا احتقارهما ، واخْلعَا هاتين الرِّئتين من صدريكما . لا أريد نَفْخاً من النحيب» ، ثم حدَّق مليّاً في عيني «الحكم الجني» :

«لا يُهْزَم كاتباي هكذا» ، فردّ «الجني» : «أظنني أفهمك الآن . لك لغة تستعيرها مني» ، والتفت إلى كاتبيه : «أيها اليونِسَان ، أَثْقِلا على كاتبي هذا الوريث المخلوع» .

كانت تلك هي المرة الأولى التي ينادي «الجني» كاتبيه باسمهما ، فانْشَدَهَ كاتبا «النابوري» ، متبادليْنِ نظراتٍ لها خِفَّةُ المعرفة : «إسْمَاهما يونس ؟ لهما اسمانا ! ! !» ، وانكبًّا يفتحان دفتريهما على صفحات عليها أثرٌ من عبور جراد الشمس ، وبُهاق الرياح الجافَّة : «هنا» قالا بصوتٍ واحد ، مضيفيْنِ بعد تفرُّسٍ في مغيبِ السطور وصدوعها : «لهما اسمانا ، ولنا اسماهما» ، ثم أغلقا الدفترين ، وعادا يواجهان كاتبي «النابوري» بعيون سَمْحَةٍ : «هذا لا يُطاق» قال أحد كاتبيْ «الجني» ، وردّد قرينُه الآخر : «نعم . هذا لا يُطاق» . وعَمَدا ، كلٌّ واحدٍ ، إلى جرابٍ صغير تحت عباءته يستخرج منه خيطاً صلباً ، رفيعاً ، معقوداً بعضه إلى بعض في خشونةٍ ، لا يخفى على نَاظرٍ أنَّه شعرٌ من ذيل حصان أسود ، سُقيَ مع ماءِ شرابه شحمَ بطٍّ مُذاباً ليكثرَ التماعُ جلده وما ينبتُ فيه . وشَعْرٌ مثل ذاك يُستخدَم فخًّا لطيور الحجل ، أو لإخصاء الحمير والجياد مَنْعاً لعارضِ الشهوة التي تودي إلى هزال الأَنعام ، أو الحَرَنِ والمشاكسة والجموح وخَبَالِ اللُّبّ إذا هاجتْ في غَير أوانها .

بقي كاتبا «النابوري» ساكنين وهما يريان كاتبيْ «الجني» يتقدَّمان منهما بعيون سمْحةٍ كأنما تُهْرقُ - في عبورها المَطْهَرَ إلى السكينة الكبرى للرؤية - غفراناً عذباً على قوس النهار وزواياه المشعشعة ، بالرغم من الكلمات التي تضاعف رنينُها في حنجرة أحدهما ، وما لبث أن كرَّرها الآخر : «تدوِّنان مثلنا . تتكلمان مثلنا . لكما إسمانا . . . هذا لا يُطاق» .

وحين صارا عن كَثَب من كاتبي «النابوري» ، وطوَّقا عنقيهما بالخيطين القاسيين يعتصرانهما على مرأى من الصاعقة التي صعدت من قلب سيديهما إلى لسانه فنفث من فمه الحريقَ: «يا للمكيدة!!» ، وارتخت يده عن عصا الخروب من خَدَر الفجاءة.

طوَّق رهطُ «الحكم الجني» رهطَ «جابو النابوري» ، فيما واجَهَ نقيبُ عشائر الشرق نقيبَ عشائر الجنوب بجسده يسدُّ عليه أيةَ محاولة قد يُبديها لإنقاذ كاتبيه ، اللذيْن انتفخَ وَدَجاهما وازرقَّا من احتباس الدم ، وانفتح فماهما ، وتداخلت في عيونهما الجاحظة خيالاتٌ من رصاصٍ مصكوكٍ بختْمٍ نورانيّ.

شَخَر الكاتبان. تلمَّسا بأيدٍ يائسةٍ عنقيهما يخمِّشان الجلدَ عسى تنبثق فيه ثغراتٌ يهتدي منها الهواءُ إلى تجاويف الحياة في صدريهما. جَذَبا جسديهما إلى أسفل ليتملَّصا من الطوقين اللاسعين فمكَّنا الخيطين من أن يحزَّا الجلدَ على استدارة عنقيهما كما تفعل شفرة ، دون أن تشفع أذيال غطاءَيْ رأسيهما في لَجْمِ انغراز الخيطين ، عميقاً ، ليطفرَ الدَّم في خيوطٍ رقيقة من محيطيهما ، داخلاً ثنايا قميصيهما الأسودين تحت الثياب السميكة.

ولوَلَت بنات «جواني صال» ، مغطياتٍ أفواههن بأيديهن يلجمنَ الذعرَ الذي رفع بوقَه القويَّ إلى مجرى هبوبه ، فمال «خبات كولاف» بعنقه صوب «دارا» ، هامساً: «أسْكِتهنَّ. إنهنَّ يهيِّجْنَ ذبابَ الأقدار». غير أن «دارا» كان مصعوقاً بدوره مما يجري بين الكَتَبَة ، وقد شدَّ قبضته على عضو «ساكو» الشيخ مستنجداً به في ترجمة للمشهد ستتمزَّق ، على الأرجح ، أمام أيِّ تفسير. فيما كانت كلمات مبتورة تنحدر على لسان

المترجِم المنكوب في فُتاتِ لُغَته: «العلومِ من نصيبنا اليوم يا دارا. أشمُّ رائحة القصدير. الشهرودي لن ينام». وعلى مبعدةٍ قليلة من كلماته تهاوى جسدا كاتبيْ «النابوري» على الطين.

أوراق تطايرت في الهواء، وسط همهمات الخوف، والتوسُّل، والغضب، المتقاطعة في الحلقة الدائرية لرهطَيْ «النابوري» و«الحكم الجني» والحشد الآخر من أهل «تاف». كاتبا «الجني» مَزَّقا دفتريْ كاتبي «النابوري» وطوَّحا بأوراقهما عالياً يعرضانها على مِذْراة الشمس ذات الشِّعَب الباردة. هبَّت «خانيا بوران» مهرولةً إلى «خبات كولاڤ» تسبقها لوعةٌ في صوتها: «ألا يفعل أحدٌ شيئاً ؟». تراكضت بناتها إليها يلتجئن إلى غمامةِ أمهنَّ، هارباتٍ من الصمت الثقيل الذي وزَّع الأقنعةَ على الحاضرين بشراً وحيواناتٍ معاً. استدار «كولاڤ» إلى «خانيا»: «كل واحد يفعل ما يتوجَّب عليه، يا أمَّ باراني».

«أعني فليفعل أحدٌ مّا شيئاً. ألا ترى ما يجري ؟»، قالت المرأة نصف نائحة، فردَّ حامل أختام جدّه «دارين الأول»، سيِّد المصكوكات المرجانية: «هذه مصيدة، يا أمَّ باراني».

تلفتت المرأة من حولها يائسة من ألغاز «كولاڤ». نادت: «ساكو...»، وهي لا تعني - بحقٍّ - أن تستنجد به، فانفصل الشيخ عن «دارا» قادماً بهبوبٍ من عظامه: «نعم، يا أم باراني»، واسترسلَ محدّقاً في لثامها ذي الألوان الباذخة: «لماذا جاء هؤلاء إلى تاف، يا أم باراني ؟»، فهزَّت المرأةُ رأسَها في ثقلٍ، يائسة من العثور على شرارة في نفق عقلها، فيما ارتجلَ لسانُها ما تسهو اللغةُ عنه: «هذا صغيرُ العظام».

ما من عظامٍ سُمِعَ صفيرُ الريح في تجاويفها، على

الأرجح، بل كان انحطامُ الكلمات في أشداق «الحكم الجني»، و«جابو النابوري» هو الذي يُشْكِلُ على السمع. لقد سعى «النابوري»، بعد خسارته في كاتبيه، وانغلاق الحلقة على رهطه، أن يختزل المواجهة العارمة إلى سجالٍ بينه وبين «الحكم» بآلات القلق وحدها، تلك التي تستدلُّ بألفاظٍ مُلْغِزَةٍ على براهين واضحة، وبما في القلق من جسارةِ الإستدراج إلى يقينٍ مُلْغِزٍ:

«أنت أسيري» قال «النابوري» وهو يفرد أصابع يده اليسرى، المفرطة في طولها، أمام عيني «الحكم»، كأنما يريه مرآةَ متاهةٍ.

«أنت تُقاس بالرمال يا جابو. حظُّك الجفافُ كي تصمت، لا أن تنطق»، ردّ «الحكم الجني»، ومال يمنةً ويسرةً على كاتبيه المنصتين في تأمُّلٍ له رائحة الدم: «اجْعَلا في السطور فراغاتٍ حتى تتنفَّس الجهاتُ العمياء».

دقَّ «النابوري» بقبضته على صدره، وأخرجَ فحيحاً: «هذان لا يكتبان»، مشيراً إلى كاتبي «الحكم»، وانحنى يلتقط عصا الخروب عن الأرض متمتماً: «لا لغةَ لك كي يكتباها. لا لغة لهما»، وضحك، فاستُفِزَّ «الجني» حتى سُمِع نبضُ صدغيه يتسلَّل إلى عباءته: «وُلِدْتَ في هدنةٍ أيها التائه، ونحن وُلِدْنا في حروب. حكَّمَتْكَ المصادفةُ. حكَّمَنا الوجودُ. ما صِيْغَتُكَ؟ تيوسُك تتبوَّل على عتبات البيوت. لستَ من وحي الضرورة. لستَ أملاً أو ما دونه».

تمتم «ساكو» الشيخ لنفسه: «هذه ليست لغة». وضع لفافة تبغ في فمه وبحث في ثنايا ثيابه السميكة عن قدَّاحٍ فلم يعثر عليه. شتمَ التبغ وأصله. همس: «سرقتَ ناري أيها الشهرودي».

دقَّ قلب «النابوري» على صفيح رئتيه. ارتجَّتْ أحشاؤه، وأرغى كبده: «الأعمى كجهتِهِ. سأهديك عصا الخرُّوب هذه كي ترى بها».

سعل «ساكو». سعل «دارا». أهابت «خانيا بوران» ببناتها من تحت النقابِ الحدائقيِّ: «أوصدن أبواب المضافات، ولا تدعْنَ أحداً يدخلها».

دوَّتِ الضرباتُ النحاسية في رقَّاصات الساعات الثلاث، فتماوجَ صداها على صفحة الظهيرة التي بدأت الشمس تخذلها بعدما تخلَّت عن فضولها. انفصل الأطفال عن المتحلّقين من حول حلبة «النابوري» و«الجني»، وتراكضوا عائدين إلى الساحة بانجذابٍ إلى الصدى المعدنيّ للزمن.

أصغى «الجني» إلى الصدى، بدوره. مسح جبهته بطرفٍ من غطاء رأسه، ودمدم محدِّقاً في «النابوري»: «أهذه هي حيلتُك؟». مسح «النابوري» فمه بكمِّ ثوبه، ودمدم: «بدأت ترى أنك أسيري»، ونظر إلى جثتي كاتبيه المتكوِّمتيْن كأنما هما يتَّقيان ريحاً باردة: «كنتُ سأُملي عليكما قصص الخسارات». فأمسك «الحكم الجني» بصدر عباءته، صارخاً: «قلبُك قلبُ تائهٍ، ما الذي ألهمَك المجيء إلى الحقيقة؟»، واستدار باحثاً بعينيه عن «خبات كولاف» حتى استقرَّتا علَّيه، فناداه: «ألديك ما يشبه روح هذا الرجل بين مصكوكات جدّك دارين؟». فرفع «كولاف» يديه متَّقياً بأصابعه الطويلة صوتَ «الجني»، هامساً لنفسه: «إنه يستعين بالنار»، وتشمَّمَ الهواءَ بقوَّة: «هذا قصدير الشهرودي»، في اللحظة التي كان «ساكو» الشيخ نفسُه يتشمَّم الجَلَبة الخافتة للأقدار، هامساً: «من أيِّ معدنٍ آنيةُ أهل القيامة؟ سيتبَلْبل الشهرودي».

تلفتت الناس المحيطة بالرَّهطيْنِ إلى الرابية التي ينتصب فوقها الزير الصلصالي الهائل، حين تناهت إلى أسماعها جلبةٌ خشنةٌ، فإذا خليطٌ من التيوس والأكباش، لفيفاً لفيفاً، يقتحم المكانَ، قادماً من الحواف الشمالية للبحيرة، وفي خطواتها العجولة نذيرٌ من ذعرٍ لم يستظهر نَفْسَه بعدُ على نحوٍ صريح. وقد ندَّت عن «الحكم الجني» صرخةٌ مكتومة حين رأى الحيواناتِ تخبطُ عشواءَ في الأرض الطينية: «أين سورين؟ سأنتزعُ قلبَه»، فيما جفَّف «النابوري» فمه بكمِّه متمتماً: «أهكذا تُهْمِلُ التيوس أيها الهدهد؟ سأقطع حلمتَيْ يديك يا ابن عقارب الليل». وفتحَ لغيظِهِ نفقَ رئتيه، نافثاً من حنجرتهِ الرمليةِ ريحَ الأعماق: «أهذه أكباشُك يا جنيُّ؟ لها خُصى آدميةٌ»، ومد يده إلى عباءة «الحكم» يهمُّ أن يرفعها من أمام على نحوٍ ساخرٍ: «أرني خصيتيك؟»، فارتدّ نقيبُ عشائر الشرق مذهولاً من رعونة «النابوري»، الذي تمادى هازئاً: «لك حياء الموتى»، وتفرَّس في عينيه: «تكلَّمْ. ألك لغة؟».

تلمَّس «الحكم الجني» قلبَهُ تحت غابة ثيابه لاهثاً، وقد تجمَّع عَرَقٌ فوق حاجبيه. تمتم في عياءٍ مفاجئ: «لهذا الرجل حِيَلُ الموتى». ثم مدَّ أصابعه الطويلة، بغتةً، واختطف من «النابوري» عصا الخرّوب. تأمَّلها برهةً. مرّر كفَّه على التواءاتها الخفيفة وعُقَدِها المشذَّبة، قبل أن يتكئ عليها كأنما هي عصاه منذ عرفتِ الأرضُ شجرَ الخرّوب الذي فيه بعضٌ من أسرار الظلام، فصرخ به «النابوري» ممتعضاً: «يحتاج أملُكَ الواهن إلى عكّاز كي تعبر شقاءَ الرحمة. أنت قويٌّ أيها الحكم الجني. أنت قويّ لأن شكَّكَ قويٌّ».

بعينين واهنتين تلفَّت «الحكم الجني» من حوله: «أما من أحد يكسر لي هذه العصا ؟» ، قال بصوتٍ فيه توسُّلٌ مكتومٌ ، فانبرى شخص ضخم من رهطه: «هاتِها» ، وأمسك بها من طرفيها براحتيه ، ثم هوى بها على فخذه بشكل متصالب فانفلقت العصا قطعتين من وسطها. ولم يَخْفَ على الناظرين أن «النابوري» اختلج من رأسه إلى قدميه بالرّعْدَة التي خرقَتْهُ من صوت تهشُّمِها. وقد هتف نائحاً: «أنتم تجدِّفون. هذه عصا الجنوب المتوارَثَةُ على مخارج المتاهات» ، واقترب من «الحكم الجني» حتى تلامس حذاؤهما: «أيها الجني ، هذه عصا الجنوب الذي يجعل الجهات ممكنة» ، ووضع يده على مكمن قلبه لاهثاً في اختناق ، مثله مثل «الحكم» نفسه.

«إنهما يغرقان» قال «ساكو» الشيخ ، فيما دمدم «الجني» وهو يحاول تركيز بصره على عيني «النابوري»: «هل الجنوب جهة ؟» ، والتفت إلى رهطه الذي على يمينه قائلاً في عياء: «أقال هذا النابوري شيئاً ؟ أظنه ذكَرَ جهةً مّا. أظنه ذَكَر جهةَ الجنوب» ، وأنصت إلى صمتهم قبل أن يسترسل: «ليس للنابوري لغة. إنه يستعينُ بخيالي كي أتوهَّم ما لا يقدرُ على النطق به» وأنصت ، ثانيةً ، إلى صمتهم: «الجنوب !!؟. ليس الجنوب جهة».

وسوسَ «ساكو» الشيخ إلى «خانيا بوران» وهو يجاورها من خلف منكبها الأيسر: «يا أم باراني ، فلتجمعْ بناتك هذه الأكباش والتيوسَ». وأرسل بصرَه الغارقَ في محجريه إلى قوس الرابية حيث تجمعت الحيوانات قلقةً ، لفيفاً لفيفاً ، ومَضَغَ الكلماتِ بأضراسه المفقودة: «هرب الرعاة ، على الأرجح».

تراخى الحصار الذي ضربه رهطُ «الحكم الجني» حول

رهط «النابوري» ، وتداخل جَمْعاهما متدافعيْنَ بالمناكب كي يشهدوا ، عن كثبٍ ، حالَ النقيبين بعدما زاد لهاثُهما طورًا على طور ، وفاضَ في أشداقهما النَّفْخُ المحتبسُ ، وتلجلجتْ عريكةُ كلٍّ منهما ، وهما يتجاذبان جدالاً مغلولاً في تنافرِ حدوده ، متداخلاً ، مبتوراً ، ومهشّماً أيضاً ، يُسمَعُ حطامُه كما زجاج تتدحرج شظاياه على رخام . وكانا يسدّان ثغرات الكلام المبتور بإشارات مُتْعَبة من أصابع أيديهما المفرطة في طولها ، والتي تكاد تتشابك لولا إحجام الرجلين عن الدخول في عراكٍ جسديٍّ لا يقويان عليه .

«لستَ أسيري فحسب ، بل أنا مؤتمن على خيالك أيضاً» ، قال «النابوري» وقد انكمشت أحداقُه على كِهَانةِ بصره الضائعة .

قرَّب «الجني» رأسه من فم «النابوري» يستجلي الصوتَ : «أظنُّه تكلَّم !» ، واستقام متوجهاً إلى بعضِ رهطه مبدياً ريبةً : «أسمعتموه يتكلَّم ؟ . وَهْمِي يبلبلني على الأرجح» ، وتأوَّه من لسعة الدم المتخبط في بُطَيْنٍ مّا من قلبه : «هذا الرجل يستعير موازين الموتى» .

كانت فارغةً جهةُ الساحة التي أخلاها الناس ملتحقين بمشهد العراك الغريب بين «النابوري» و«الجني» ، خلف منازل «جواني صال» ، لذلك بدت الساعاتُ الثلاث المهجورة ، المنتصبة على قوائم نحيلة أمام المرايا الثلاث الضخمة ، باردةً في وحشتها ذاتِ الرنين المعدنيِّ . وقد آثَرَ الدجاج ، وحده ، أن يعصف بالذاكرة الطرية للمشهد فتسلَّق أُطُرَ تلك الساعات ، وجثَمَ على منتصف دوائرها يستعرضُ من عليائه عقلَ الضروراتِ الكبرى في الشفق اللامرئيِّ الذي يلي المعرفةَ ، على بُعْد أشبار من مرمى بصيرته الحيوانية .

بضعة كلاب هزيلة مطّتْ أعناقها، أيضاً، تستجلي أَشْكالَها التائهةَ في المرايا الضخمة، قبل أن تتشمَّم الأرضَ من حول الآلات التي تقطُر كآبةً، لاويةً أذيالَها الجافة بين قوائمها، ثم هرَّتْ مبتعدةً حين انبعث النداء النحاسيُّ من الرَّقَّاصات المتأرجحة قوسيّاً، فيما ظلَّ الدجاجُ على حاله جاثماً فوق أُطُر الساعات، منصتاً إلى الحفيف الرقيق لأظلاف الغزالات القادمة من الجهة الشرقية لساحة منازل «جواني»، متقاربةَ الرؤوس كأنما تتخاطبُ بقرونها الفرعاء، يتبعها الراعي «به-منْ» من ناحية، والكلب الذئبيّ الضخم من ناحية. وحين وصلت الغزالات إلى الدكَّة الطينية، المرتفعة في وسط الساحة، تجمَّعت إلى جدارها متوقفةً بإشارة من فم الراعي، شاخصة الأبصار إلى المرايا الثلاث التي تقدَّم منها «به - منْ» وكلبه حتى صارا على بُعد أشبار منها، يستطلعان هيئتيهما في صمتٍ جليل لم تستطع أن تعكّره كلُّ تلك الخبطات على الباب الموصد بالطين، من داخل الغرفة التي يرقد فيها جثمان «جواني»، وكذلك التوسُّلات الضعيفة القادمة من أعماق الجدار البليل، محمولةً على صوت أمّ الشهرودي المرتعش: «نريد قصديراً»، قبل أن يطغى عليها صليلُ آنيةٍ معدنية تتلاطم في قسوةٍ، وتتدحرج في أنحاء الغرفة المسدودة.

تضعضعَ «الحكم الجني». بغتةً أرسل من فمه استغاثةً مختنقة: «قلبي يلدُ»، وكاد يهوي أرضاً من ارتخاء ساقيه لولا سَنَدَهُ كاتباه. لكنه في غمرة ألمه العاصف بصدره، ونعاس قواه، خصَّ «النابوري» بصاعقة من متاهة المعاني: «قلبك يلدُ، أيضاً»، فسعل «النابوري» سعالاً جافّاً وفتح راحتي يديه يتقي تلك الصاعقة: «لن تصل إليَّ»، وارتدَّ شبراً إلى

الخلف: «لا لغة لك. لن تصل إليَّ»، ثم تضعضع بدوره، فخرَّ جاثياً على ركبتيه وهو يعتصر ثيابَه فوق منتصف صدره: «قلبي يدوِّن ما يمليه كاتبايَ عليّ».

استدار «خبات كولاف» على عقبيه راجعاً، يتمتمُ كي تفسح له بنات «جواني صال» ورهطُهُ ممراً يعبره إلى جهة الساحة، فلحق به «دارا» تتبعه «خانيا بوران» و«ساكو» كأنهم يحمّلونه رجاءَ أعماقهم أن يبدّد قليلاً من حجاب اللُّغز، فأحس الرجلُ بهم، فخفَّف من مشيه دون أن يتوقَّف: «لماذا لم تدفنوا جواني صال؟»، قالها بإمالةٍ خفيفة من عنقه صوب زوج الفقيد، التي ارتخى لثامها عن فم مفتوح تنفثُ منه حيرةَ أعماقها. لكن «ساكو» الشيخ تجرّأ على نحوٍ ملفتٍ فأمسك بردن عباءة «كولاف» وهو يمزج الكلمات بأنفاسه المتلاحقة: «أنت لا تفعل شيئاً أيها السيد. أنت تنتظر، لا أكثر».

«نعم. أنا أنتظر» ردّ «كولاف» مستمراً في مشيه، فعاد «ساكو» إلى لجاجته:

- أتنتظر أن يخلو لك المكان لتأخذ الزّير؟.

توقف «كولاف». نظر جانبياً إلى «ساكو» الذي أحس صقيعاً في أطرافه، وأدرك أنه تمادى: «لا»، قال نقيب عشائر الشمال. ثم حادَ ببصره عن الشيخ متطلعاً إلى «دارا» و«خانيا بوران»: «مكان الزير هنا. ينبغي أن يُرى لمن يريد أن يستطلعه من هضاب نارمين الحمراء»، وانبرى يمشي، من جديد، ثم عرَّج قوسياً فصار إلى جهة الساحة، حيث وقف راعيه «به - من» مع كلبه في مواجهة مرايا الساعات الثلاث.

كان رهط «كولاف» يخطو من خلفه في تثاقُلٍ جليلٍ، مستدبراً رهطي «الجني» و«النابوري» اللذين اقتعدا الطينَ من

وهَنِهما وسط الحلقة الكثيفة للمستطلعيْن. «ساكو» جاورَ «كولاف» كأنه صفوه أو صفيُّه، عاقداً يديه خلف ظهره، وهو في حالٍ من الرُّطَيْنىٰ، مغمضَ العينين أو هكذا يخاله الناظر. ولمّا توقّف نقيب عشائر الشمال توقّف «ساكو» بدوره. فتح راحة يده اليسرى ورفع وجهه إلى السماء: «عادتْ تمطر» قال، ثم انفلتَ لسانُه منبهراً حين استقرت عيناه على الغزالات: «هِبَةُ الغيوم. إنهنَّ هبة الغيوم»، وأسرع في اتجاهِها كطفلٍ يلهو.

دون نذير حشدت الغيومُ أساطيلَها في الخليج الفسيح لسماء «تاف». قطراتٌ مدلَّلةٌ من المطر سبقتْ أخواتِها متدحرجةً على نسيج اللون الذي غطت الشمسُ به الفراغَ لساعاتٍ، فيما تكاثفت إشارات «كولاف»: «احزموا أشياءَنا. فلنغادرْ» كان يقول لرهطه، مضيفاً: «لا تنسوا هذه» وهو يومئ برأسه صوب المرآة الكبيرة التي انتصبت أمامها الساعات ذات الأحشاء المرئية، قبل أن يداهمه «دارا»: «هل ستتركون الشهرودي في داخل الغرفة؟».

لم يجبه «كولاف». تجاهل كلماتِ الرجل، واسترسل في اشاراته إلى رهطه: «اجمعوا الغزالات. إنهنَّ هِبَةٌ مردودة. هذا حظُّها بين الحيوان». لكن «دارا» أمسك بعضد نقيب عشائر الشمال، وكرَّر عليه سؤاله في إصرار: «هل ستتركون الشهرودي في الداخل؟ أظننا سنفتح باب الغرفة إذا لم تفعلوا»، فارتدّ «خبات كولاف» عليه، عابساً إلى درجة الغضب، ودمدم بين أسنانه بألفاظٍ غريقة في غرابتها، وهو يفتح أصابع يديه المفرطة في طولها أمام وجه عمٍّ «جواني»، كأنما سينتشله من كمين مساءلاته الخرقاء.

تبلبل «دارا». هُلِعَ أو قاربَ الهلعَ. توسَّل مَنْ يعيْنهُ على

عماء اللغة التي نَطَقَها «خبات كولاف» فلم يعثر، بعينيه الزائغتين، إلاّ على «ساكو» المنحني على الغزالات يتأمَّلها، فناداه بصوت متشقّق، فأقبل عليه الشيخ وهو منصرف بنصف وجهه صوب الحيوانات الرشيقة.

قال «دارا» للشيخ: «نطق السيد كولاف شيئاً لم أفهمه. إصْغِ إليه».

أصغى «ساكو» إلى الفراغ. «كولاف» لم يكن يتحدث بل يومئ بأصابعه الطويلة إلى رهطه. قال «ساكو»:

«إنه لا يقول شيئاً يا سيد دارا».

«لكنه قال شيئاً مّا، قبل برهة»، قال «دارا» فأعتمتْ عينا «ساكو» وهو يتمتم:

- لم أسمعه.

«أعرف. أعرف»، قال «دارا»، فامتعض «ساكو» الشيخ:

- وكيف لي أن أعرف إذا لم أكن قد سمعته؟

قاطعهما «كولاف» ملتفتاً بوجهه إليهما، وخصَّ «دارا» بسؤاله البارد:

- ألديكم ترجمان غير ساكو الشيخ؟

كانت كلماته مفهومة، ذات صرير مسَّ قلب «ساكو» الذي ردَّ بصوتٍ جاف: «أنا لست مترجماً يا سيد كولاف، ولسنا في حاجة إلى مترجم هنا. لا يتردّد أمثالكم علينا إلاّ نادراً».

هزَّ «كولاف» رأسه ينفي الجزْمَ الذي في كلام «ساكو» ثم اقترب منه: «يلزمكم ترجمان في تاف»، قال.

نظر «ساكو» الشيخ بعينيه المنسحبتين إلى غورَيْ محجريه صوب «دارا». تمتم: «أقال هذا الرجل شيئاً؟»، فاستاء «دارا» من السخرية التي في سؤاله، وألقى عليه كلماتٍ يظلِّلها العتابُ: «إنه يحدثك بكلام مفهوم يا ساكو».

«لا» قال «ساكو» بجفاء. حدَّق في «كولاف» مسترسلاً: «ليس لهؤلاء لغة».

خيَّم وجومٌ على الواقفين في ساحة بيت «جواني صال» باتِّفاق مفاجئ: لقد مسَّت أقدامَهم رعشةٌ خرَقتِ الأرضَ صعوداً إلى رَضْفَاتِ رِكابهم، ثم سَرَت تلك الرعشة في الهواء فتشققت المرايا الثلاث الضخمة، المنتصبة أمام الساعات النحاسية.

رجفةٌ ثانيةٌ نشرتْ جذورَها الثعبانية تحت قشرة الأرض فارتعدتْ محمومةً.

مالَ الزّيرُ الصلصاليّ الضخم فوق الرابية. تصدَّع من قاعدته إلى فوّهته صدْعَاً ذا شِعَبٍ خفية كالعروق الظاهرة في أوراق الريحان.

لم يكن للسماء لونٌ في تلك اللحظة. لم يكن لها خيالٌ إذِ اللونُ، وحدَهُ، هو الخيالُ لامتناهياً. لم يكن مِنْ خيالٍ فوق «تاف»، كأنَّ الجرَمَ، الذي يحتضن الحضوراتِ من أشكالٍ وأرواحٍ، أعفى الكينونةَ من حنينها. وكانت الأبديةُ تتراجع، برهةً برهةً، بعد كلِّ رجفة جديدة في عضل الأرض وعظامها، إلى الكمين الصغير لِمَا ليس خيالاً:

لقد قُيِّضَ للخيال أن يكون هو الأبدية على دفعات. لكنَّه، في انحساره عن «تاف» التي عراها الزلزالُ الخفيفُ، جرَّدَ الوقتَ أيضاً من خُبراتِهِ كمُصْلِحٍ تائه.

انفصلَ «ساكو» عن الجموع المضطربة، التي تقاربتْ يلتجئُ بعضُها إلى بعضٍ، أو تناثرت ساعيةً إلى نجاةٍ، واتجه صوبَ البحيرةِ المُغاليةِ في هدوئها الموحش، بعينين مترقّبتين، أزاح بإحدى يديه الغطاءَ عن رأسه ذي الشَّعر الثلجيّ الطويل، وابتسم ابتسامةً فائضة عن حدود فمه: «أيها

النّون، ها أنت أخيراً». وقد تقاطعت كلماتُه مع صرخةٍ وحيدةٍ عبرت ساحة بيت «جواني صال» ولم يأبه بها أحد، فتلقَّفها «ساكو». مسح على وجهه براحة يده متمتماً: «نفدَ القصدير. الشهرودي يريد قصديراً».

II

البروج الإثنا عشر

(هرولةُ بناتِ نَعْشٍ)

١. لحم في شارع «بريدج هاوس»

شحم ناصع البياض يتفتّت تحت شفرة الساطور المقوَّس الطويل، ثم يتناثر قليلاً، دون فوضى، فتعيده يد الجزّار اليسرى، الداكنة السُّمْرةِ، إلى مُتناوَل الشفرة من جديد، فتنشطر الحُبيبات المُتلألئة أكثر فأكثر بالحركة القوسيّة المتوالية للساطور، الذي تضغط راحةُ الجزّار على مقبضه فيرتفع نَصْلُه المُفَلْطح، وإذ يعكسُ الضغط على النصل المفلطح براحته الأخرى يرتفع المقبض. وفي كل ثلْمٍ طويل في كتلة الشحم المتفتّت، بفعل الفَصْم الرهيف، والرقيق أيضاً، من جرّاء الشفرة، يبيْنُ الخشبُ البنيُّ من سطح جذع الشجرة الضخم، المقصوص بعناية، لاستخدام الجزّارين بعامّةٍ كمنضدةٍ لتشريح اللّحم، وإهانة العَظْم. وهو أمر لا يمكن تعميمه على دكاكين اللحوم كلّها بعد دخول المناضد المصنوعة من اللّدائن الصلبة إلى الحوانيت، لكن بعضاً من الجزّارين، الذين لم يستعينوا بعد باليقين الفائض للصناعة ومعجزاتها، يتخيَّرون، كقرينٍ للمهنة، جذوعَ الأشجار من الزيتون العريق أو الصنوبر، ويتّخذونها مناضد يدهنون محيطها بدهان أبيض، وسط الأرضيّة البيضاء للحوانيت، بحسب ضرورة اللون المفروض في بندٍ من قانونِ إجازةِ بيع النسيجِ البروتينيِّ، المُخْتَلَفِ على نشأته في مراتب الخمائر

الحيَّة لصعود الحياة إلى تَرَفِ عذابها.

شحم نقيٌّ، ناصعٌ حليبيُّ اللون، يلتمعُ بالتماعة الشفرةِ إذا انعكس عليها نورٌ خاطف من عبور السيّارات أمام باب الدكان. وهو شحم مُقْتَطَف من إلية نعجةٍ، صِرْفٌ لا يُخالطه عِرْقٌ من اللحم أو الدم. ليّنٌ، طيِّع، رجراج، رَخْصٌ، مغسولٌ منذ أن ينبت على عصعص الضأن. موهوبُ الطَّعْمِ لا يخطئه اللسانُ ظاهراً في الطعام، أو مُحْتجباً ذائباً في أخلاطٍ من أصناف اللحم.

ما يجاور الشحم مُسْتَعْذَبٌ أبداً. لكن البعض يريد اللحم صِرفاً، ثم يستفتي الجزّار في مقدار من الشحم تتمجَّد به حاسّتان متجاورتان بين الفم والأنف. بل يذهب زاعمون إلى أن الشحم في الطعام انجذابٌ إلى الخاصيَّة العريقة للشهوة، كتأويل للوجود ذاته. والجزّار السوداني عاطف حامد الإنكليزي له مذهبٌ في ذلك، لا يبيع اللحم إلّا مُكَرَّماً بالشَّحم الذي فيه، ومَن يريدُه أحمَر، مُقْتَطفاً من لفائف العضل في قوائم الحيوان، يهبُهُ عاطف قطعة فائضة من إلْية النعجة، مجاناً، حتى لا يتَّهمه أسلافه الغامضون في المهنة بإهانة اللحم. وهو يؤكد للشاري، عادةً، بلكنته المنسرحة على جدول من أَنْصاف الحروف، أن الخَلْقَ يبدأ عَلَقَةً من شحم، أو مُضْغَة من شحم تتكثَّف فتصير غضروفاً، ويتصلَّب الغضروف فيصير عظْماً وفي محيط العَظْم يترسَّب الدَّم الثخين الذي يصير - من ثَمَّ - لحماً وعَصَباً. وهو، أيْ عاطف الجزّار، يستخدم آلة الفَرْم الكهربية لِمَعْس اللحم الأحمر، أمّا الشحم فلا يبيُحُ في فَرْمه إلّا الساطور المقوَّس كسيف، يزنُ حركةَ شفرته القوسية فوق السطح الخشبي علوّاً وانخفاضاً - مُسْترشداً بحكمةِ يديه السمراوين، وأملِ إِرْثهما

في الصَّنْعةِ – كي يبتهج قلبه كلّما انطحن الشحم حتى يصير كالعجين تحت نظراته العابرة، التي تستطيع، خَطْفاً، أن تلمس ثقلَ الأشياء وتحسبَ المقاديرَ، وتضبط اندفاع الشفرة فلا تفرّط في الفَرْمِ أو تُنْقِصَ منه.

ثمّة إعلان كبير من الصفيح على باب دكان عاطف حامد الإنكليزي، موشّى الإطار برسوم لأوراق الشجر كما في السجادات الفارسية، وبضمنه كتابةٌ عربية بدهان أحمر، عريضةُ الحروف: «لحمٌ حلال»، أيْ بتصريح واضح أن الذبح يجري وفق الطريقة الإسلامية، في وسط ذلك الشارع الذي يحدّه شمالاً مبنى سفارة اليونان، وجنوباً مبنى مكتبة «بريدج هاوس»، الواقع على بُعد أمتار من جسر «پروذروموس»، الذي هو مَعْلَمٌ في جغرافيا نيقوسيا.

وفيرةٌ أشجار الكينا على جانبي ذلك الشارع المُظَلَّل أبداً، شعثاء، ضخمة متقشّرة الجذوع كأنّما ترتدي الزَّمنَ لا اللِّحاءَ. والمبنى، الذي يقع دكان الجزّار وسط دكاكين آخرين في أرضيته، من خمس طبقات هي من أوائل ما ارتفع عن اليابسة إلى ذلك الحدّ في تاريخ المدينة، المعروفة بأبنيتها الواطئة، قبل أن تغزوها، فجاءةً، عمارات من صنف لا يليق بها كروح ريفيَّة، في السنين الأخيرة من نهاية هذا القرن، بطريقة محمومة، وعشوائية أيضاً، حتى أن بعض تلك العمارات العالية، في الشارع الرئيس العريق للمدينة، تحوَّل إلى كهوفٍ هندسية مهجورة، اصفرَّتْ إعلاناتها الورقية الملصقة على زجاج النوافذ داعيةً إلى استئجارها دون طائل.

كان دكان الجزّار عاطف محلاًّ لتصليح الدرّاجات بأنواعها، قبل أن يخلو له في يُسر، ويفتتح ملحمةً تتصدّر جدرانها آيات من القرآن عن عواقب الغش. وقد ساعده في

تسهيل مهمته مفتي نيقوسيا، المعتمد من دائرة الأوقاف الإسلامية السورية. إذْ من المتعذّر على الغرباء منافسة مواطني الدولة القبرصية في مِهَنِهم الشائعة، والقوانين لا ترخّص إلّا للشركات بعامَّةٍ، أو للأشغال المكفولة بخصوصيتها، وفي النادر القليل لعمّال المواسم في الحقول حين يحتاج قطافُ الغلال إلى أيدٍ لا تتوافر عند القبارصة، الذين يترفّعون قليلاً عن هذه المهنة في نزوعهم الهائل إلى وظائف مكتبية. ولمَّا كان وضْعُ التجزئة في الجزيرة قد طاول اللهَ بديانَتَيْه، فإن مسّاً من ذلك أصاب الجزّارين - الإخوة في مهنة الإغاثة العريقة لبقاء الإنسان: ذَبْح السليلِ الآخر، الشقيقِ، في صورته البهيميَّة، كرجاءٍ غامضٍ أن تدفع القسوةُ عن نفسها تهمةً كانت حَرِيَّةً أن تكون من صفات النعمة، أيّ هي صيغة تتَّفق للضرورة كاغتصابٍ.

هكذا توزَّع الجزّارون، إلّا قلّة نادرة، على جانبَيْ الصَّدْع المُتَخَيَّلِ، المُعَذَّب، الذي شطرَ الجزيرة أتراكاً قبارصةً، وقبارصةً يونانيين، فبات «الذبح الحلال»، على سُنَّة القرين الديني المُنفصل، في الجانب الشمالي من الصدع. وإذ تكاثر اندفاع جاليات إسلامية إلى الشطر المسيحي، من الظلّ البحريِّ لاسطرلاب المتوسط، تجَّاراً، ومهنيين صغاراً، وشركات صحافية، وهاربين من الحروب، وعابرين باتت الجزيرةُ فضاءَهم الأوسع إلى يابسة الكون، استطاع عاطف أن يشمَّ، عبر مضائق البحر الأحمر، حاجةَ أرضٍ مسيحية إلى جزّار مسلم لم يسبق أن اقترن عقلُه بنوازع الحروب، أو أُخِذَ عليه - من قريب، وأبعد من قريب - إصغاءٌ إلى شأنٍ يمسُّ قبرص. فاستقلَّ باصاً من بلدته السودانية «طوكر» إلى بور سودان، ومن هنالك صعد باخرةً

إلى شواطئ مصر العليا، لتحمله رياح المتوسط، ببركةِ المحرّكات القوية لغيلان سُفُن الشحن، إلى مدينة لارنكا ذات الرياح المُعارة من أرخبيل الساحرات الإغريقيّ، وهناك تدخَّل ابن خالة زوجه المصري، العامل سائقاً في سفارة بلده، لدى سلطات المطار ليؤمّن دخوله كضيف لا يعرف غير العربية. وبعد دخوله إلى قبَّة النداء اليوناني بأيام قليلة، عرَّفه ابن خالة زوجه إلى نجّار قبطي اسمه سعيد، متأهِّل بامرأة قبرصية من ثمانية عشر عاماً أمضاها في عُهْدةِ أرضها، متقناً لغتها بحسب طرائق النجارين في التودُّد الجَمِّ مع تسويف الأشغال، وتأخير التعهّدات إلى اللحظة الأخيرة، التي ينفد فيها صبرُ الزبون ويدخل طورَ التهديد والوعيد، وَكَيْلِ الشَّتْم والويل.

لم تَرُقْ لعاطف تلك الزوابع التي تصبغ بشرته السمراء بالنِّشارة في البيت القديم، المتآكل، الواهن السقف من صوت المنشار الكهربيِّ الضخم في وسطه، وبات يسهو كثيراً حتى كاد أن يتسبَّب في بتر يده وهو يقطع لوحاً خشبيّاً، فيما دأب النجّار القبطي على جَمْع أعقاب سجائره المشتعلة، التي يرميها عاطف على الأرض في إهمال لا يُغْتَفَر. لكنه لم يتذمَّر لعامله السوداني ذي الوجه الدقيق، المستطيل، المُحاط بهالة دائرية من الشعر الرمادي فوق الأذنين، تعلوها جمجمة صلعاء. والملاحظة الوحيدة التي أبداها النجار، في الأسبوع الثاني من وجود عاطف في مشغَلِه، هي أن الشحم الأصفر، الرقيق، يزداد انتشاراً على بياض عينيه: «أنت لا تتبوَّل جيداً» قال له في نبرةٍ من الحكمة الدَّهرية.

لاحظ عاطف ذلك في زاويتي عينيه، من جهتَيْ أنفه، وكانت كلمات النجّار حافزاً لاعترافٍ صغير منه: «هذا من

السهر، ومن دخان التبغ». وإذ استفسر منه النجّار: «أهناك ما يقلقُك؟»، ردّ عاطف بصوت خفيض مرفق بابتسامته الدائمة: «نعم. هذه ليست مهنتي»، ولم يرجع في اليوم الثاني من تلك المحاورة إلى المَشْغل: عاوده وسواسُ مهنة أبيه، التي من أجلها حمله الطيفُ الماردُ لمفتاح البحر الأحمر إلى خزائن البحر الأبيض. وأسرَّ بذلك إلى ابن خالة زوجه، الذي يعرف المفتي السوري المُعْتمد في الديار القبرصية، فوسّطهُ حتى حصل على ترخيص رسميٍّ بافتتاح مملكة للّحم، علّقه عاطف، مؤطّراً في مربّعٍ من الحديد المطلي بلون ذهبيّ، تحت عبارة «باسم الله...». ولمّا استقرَّت به المهنة غذَّ في طلب عياله، مستأجراً شقّةً من شقق المبنى ذاته الذي يقع دكانه في رقعته الأرضية، المرصوفة رصفاً لا بأس به تحت ظلال الكينا المتهدّلة. وقد ألحق أولاده الذكور الأربعة، في ما بعد، بالمدرسة الليبية التي ترعاها سفارة ذلك البلد الإفريقي، بأقساط متهاودة، لكن ضمن دعاية تبشيرية من نوع إعادة العالم إلى صوابه، وفق أفكار القائد العسكري، الحاكم ببيعةٍ من عزيف الصحراء المنقادةِ، ضرورةً، لخطابه النُّجيليِّ الأخضر. وفي وقت لاحقٍ من السنة الأولى لوجود عاطف على أرضٍ تتحدَّثُ اليونانية، أَلْصق صورة القائد العسكري الليبي على باب ثلّاجته الضخمة، متودّداً بذلك إلى عدد لا يُستهان به من موظفين ليبيين أغدقوا عليه في شراء رُبْع حاجاتهم، وآثروا، ضمناً، شراء الثلاثة الأرباع الأخرى من الجانب الناطق بالتركية، الذي يقف على بوّابته رجال القبّعات الزرقاء، المنتدبون من أُمم العالم.

كان أبوه جزّاراً، على عقيدة المهنة وأمثولتها القَدَرية،

يبيع لحم الجَمَل والجاموس. غير أن اهتمامه المُلفت بغرائب الأعشاب، وإنْباتِها في الأصص، أغرت انكليزيّاً بديناً، يملك دارة فارهة في وسط طوكر، باستدراجه إلى رعاية حديقته، فسلَّم الدكان إلى أخيه، وعمل بستانيّاً لسنين طويلة، فالتصقَ به لقبُ «الإنكليزي»، وصار اسمه كاملاً: أحمد عثمان حامد الانكليزي. وهو لقب تدرَّج في المخاطبة بين الناس حتى وصل إلى سجلّات الدولة، فغدا جزءًا من إرث عاطف، الذي يضعه، أبداً، في مهبِّ الفكاهة: «أنا عاطف الانكليزي. إنما ليس بيني وبين الانكليز نَسَب غير هذه البَشَرة» ويضحك طويلاً. غير أنَّ النَّسَب الإنكليزيَّ الوافد، دون قصد، إلى أرومة شجرة سلالته، حلَّ به، مصادفةً، قرب مجرى نهر قديم تقع العمارة التي يقطنها على ضفته الشرقية، وقد رصفه البريطانيون، في زمن انتدابهم في الجزيرة، بحجارة صفراء تنحدر من جانبي ضفّتيه حتى أعماقه، تحفظ في باطن صلْبِها قَدْراً من برودة ظلال شجر الكينا صيفاً، يغوي بالتنزّه فيه، وقد عمدت البلدية إلى وضع مقاعد في أمكنة متفرّقة منه، ونَصَبت مراجيح للأطفال، ووصلتْ أعماقَه بالأرصفة عبر سلالم من إسمنت، وأخرى من حديد مطليٍّ بدهان أحمر. ومن علياء الطبقة الرابعة كانت زوج عاطف، السمراء البدينة عفاف عبد الصمد، تشرف كل يوم، من شرفة مطبخها الضيقة، على المشهد، مشمولةً بهالةٍ في غطاء رأسها الأسود، الذي يزيد بشرتها دكنة، إنما يتألّق بياض عينيها على نحوٍ صارخ، حتى أنهما تبدوان للناظر من باطن الأخدود النهريِّ أشبه بعصفورين أبيضين في قفص معتم. وعفاف تقضي معظم صباحها إلى قرابة الظهيرة على الشرفة تلك، قريبة من آنية الطهو، بعدما أبدى زوجها

استياءه الصارم من وقوفها على الشرفة الأمامية للمسكن، المطلَّة على الشارع الرئيس حيث دكّانه، في اليومين الأولين لمجيئها مع أولادها إلى منبت الشمسِ قبرصَ ذات الصيف البطران كدعاءٍ طويل. وكان مقدَّراً لها أن تكون أوَّل شخص يلمح جثة «وهّاب حليم»، في صباح باكر من أيار، الذي يتّصف بكَرَمٍ فاحشٍ في اختزال الربيع. وقد أمعنتِ التحديقَ، من علياء شرفتها، عسى يكون الرجل المتمدّد على الحجارة المربَّعة يستروح من عناء سهرٍ في ملهى، أو سُكْرٍ في حانة، لكن انحدار جذعه إلى عمق مجرى النهر بساقين منفرجتين، ورأس مرتخٍ إلى الوراء حتى لتكاد الرقبة أن تنقصف، أرْعَدَ قلبها، فنزلت إلى دكان زوجها على عجل، ليهبَّ عاطف مهرولاً صوب السياج الحديد الممتد طويلاً على حافة الضفة، ومنه إلى سُلَّمٍ إسمنتيٍّ يفضي إلى ممرّات عشبية ملتوية بين الحصى قبل الوصول إلى حدود الأرض المرصوفة بالحجر الأصفر.

شهق عاطف. غار لونُه الداكن لتصعد إلى بشرته غمامةٌ من الشحوب الملتمع: إنه وهّاب حليم، ساكنُ شقةٍ في الطبقة الثانية من العمارة. صموتٌ خجول. أنيق مفرطٌ في أناقته التي بدت مبعثرةً في استلقائه هناك، لكن الصمت والخجل كانا على صورتيهما، مرفرفيْنِ فوق سحنته الباردة.

كان صباحاً قاسياً إذا جرى تدوينه بحبرٍ من روح عاطف. اللحم الذي جاء به من مسلخ المدينة بقيٍ معلَّقاً بعضُه في برّاده الحديدي، وبعضه الآخر على الكلاّبات المتدلّية من عوارض المعدن العالية. ساطوره على جذع الشجرة - المنضدة. ميزانه ذو المؤشر الأحمر ساكن، في ملل، تحت قوس الصِّفْر وسلطانه. نداءُ الشحم الجذّاب يختنق في الثقل

غير المعهود لحركة الداخلين إلى الدكان ليس طلباً لكرامة اللحم وشفاعته، بل لإلقاء الأسئلة، وتدوين أجوبة عاطف، الذي كان قد سارع إلى الاتصال بابن خالة زوجه، بعد تعرّفه إلى الجثة، يطلب مشورته في الأمر، فلم يمهله الأخير، متطوّعاً كعارف باللغة اليونانية إلى تبليغ الشرطة، فحضرتْ في سيارتين صغيرتين، ترافقهما عربة إسعاف. ثم بدأت المقايضات العشواء للّغة بين عاطف وبينهم.

لم يحضر ابن خالة زوج عاطف. لم يكن في وارد أن يحضر، على أية حال. لقد أكد ذلك لعاطف في المكالمة الهاتفية، متذرّعاً بوجوب الذهاب إلى السفارة على عجل. لكنه خفّف عنه هلع الورطة التي أحسَّها الجزّار باستقدام الشرطة، جازماً أنها ستتدبَّرُ مترجماً ممّن يعملون في أجهزتها. وإذ ظهر ذلك المترجم، حقّاً، بعد السعي الحثيث من الشرطة في طلبه مدى ساعتين، أحس عاطف بقبس من الرحمة يفتح مصراعي قلبه المغلق على ارتباكٍ بلغ درجة الخوف. وما كاد المترجم يُبادله جملةً بالعربية حتى أهرقَ الجزّارُ النحيل جراراً من الكلام المتزلج على زيت لكنته، مُرْسَلاً بلا انقطاع، تتداخل شذرات من القصص المقتضبة عن وهّاب حليم بآياتٍ تستسقي الغفران: «هذا الرجل لا يستأهل ما أصابه»، قال عاطف في لوعة تسلّقت جبينه فتغضّن جلدُه أخاديدَ عميقةً، وأرسل إشارات من أصابعه السمراء إلى الملاك الجالس على قبّة السماء الثانية: «لا إله إلّا الله. الدّاهيةُ تعرض للطيبين». وقد حاول المترجم، مراراً، أن يعود به إلى بداية عثور زوجته على الجثة، لكن عاطف كان يتملَّص، بقوّة الإنفراج التي تولّدت من لقائه شخصاً وسيطاً بينه وبين الشرطة يتحدّث لغته، دمثاً في

استنطاقه ونَقْلِ ذلك الاستنطاق، برغم قِلّته، إلى ذوي البزات الزرقاء الداكنة، الذين يلقنونه أسئلتهم الموجّهة إلى الجزّار. ذبابات زرقاء، صغيرة، كانت تشق طريقها عبر صوت عاطف - الذي تحوّل كلماتٍ مُدوَّنةً في المَحْضر - إلى اللحم المعلّق في سَكينةٍ باردة، ثم تحوم قليلاً حول قبّعات الشرطة لتتّجه، بعد ذلك، باندفاع محموم، صوب ضياء الفلوراسنت المبثوث من شبكة كهربية ذات إطار يتدلّى من وسط سقف الدكان، حيث يُسْمَعُ نشيشُ احتراقها مهموساً؛ وكذلك بعض الدَّبابير الملحاحة، الفتية، الموعودة بصيفٍ على أعتاب أيار يلهبُ أحشاءها، تدخلُ الدكان ثم لا تهتدي في خروجها إلّا إلى زجاج الواجهة تصدمه غاضبةً، وهي توزّع طنينها على الجهات. زوج عاطف جاءت أيضاً متردّدةً خوفَ أن يزجرها رَجُلُها، في جلباب أسود، وغطاءِ رأسٍ لا يُبدي إلّا وجهها الأسمر، المزيَّن بعينين يتلاطم بياضُهما. وقفت على عتبة الدكان، من جهة الواجهة الزجاجية، مشبوكة اليدين تحت ثدييها. طافت بقلبها على الوجوه المتحلّقة حول زوجها وقوفاً، فيما كان رجال آخرون ينقلون جثة وهاب حليم، ملفوفة في كيس أصفر، إلى سيارة الإسعاف، ويرسمون بأشرطةٍ من القماش حدوداً، من حافة سياج الشارع نزولاً إلى مجرى النهر، الذي لا تستطيع عفاف عبد الصمد أن تبصره من موقعها.

أغمض المترجم إحدى عينيه، فيما كان يلقي سؤالاً كسولاً إلى سلّة غير مرئية في أعماق عاطف: «من أين جئت بهذا الساطور؟»، وأشار برأسه إلى السيف الحديدي العريض، الملتصق بمعدن مُمَغْنَط في الجدار. وكانت إغماضة إحدى عيني المترجم أن شعاعاً من شمس الصباح

انفجرَ، مَرِحاً، على الصفحة الصقيلة للساطور، وارتدَّ إلى تلك العين فأجفل بؤبؤها.

كان سؤالاً خارج السياق، رأى فيه عاطف استدراجاً مُسْتَحَبّاً إلى ودٍّ كتمه المترجم، فأغدق عليه جواباً تدخّلت الشرطة لإقفاله. قال: «اشتريته من هنا. من سوق الأربعاء. كان بالياً فأصلحتُهُ. سلقتُ الساطور في ماء ممزوج بحَبِّ الآس، ثم أخذته إلى حدّاد بَرَد لي نصلَهُ قوسياً، وبعد ذلك حفظته في شحم كثير من هذه الرقائق التي يغلّفون بها الكبابَ القبرصي. مسّدته سبعين مرّة بكحل عربي...». كان عاطف يتحدّث من الضفة الأخرى لأدغال العالم، قبل أن يرجع به شرطيٌّ إلى فضاء دكانه، حين تقدّم من المترجم مستفسراً عن ذلك الانسراح بينهما. وقد قاطعه المترجم، مضطراً، بسؤال آخر، وهو ينظر إلى قطعة من الآجرّ الأحمر يعرضها الشرطيُّ نفسه على راحتيه المفتوحتين: «أهنالك جرَّة ما، مكسورة، في أنحاء هذه العمارة؟».

نظر عاطف إلى قطعة الآجُرِّ مستغرباً. قلَّصَ عنقَهُ، وفتح فمه كأنما مسَّتْهُ سِنَةٌ من البلاهة، فتغاضى المترجمُ عن تحصيل جوابٍ منه لِمَا رأى من حاله، ثم أسعفَ بَلْبَلَتَهُ بشرحٍ صغير للموقف: «يا سيد علي...»، فابتسم عاطف مصحِّحاً: «اسمي عاطف...»، فأغمض المترجم عينيه، وزمَّ فمه بإشارة فيها اعتذار: «آسف يا سيد عاطف. تقول الشرطة إنها عاينت شقةَ الميت فلم تجد خلعاً في بابها أو كَسْراً. كما لم تجد أية آنية من الفخّار. وهذه القطعة، هنا، وجدوها في قبضة يده»، وحَبَس ألفاظَه الموشكة على اكتمالها، سارحاً ببصره إلى الضأن المُعلَّق بالخطاطيف: «بي رغبة في كُلى مشوية». ومن غير أن ينتظر جواباً من عاطف، الذي أفصح

وجهه المنشرحُ عن عَرْضٍ عارمٍ بسخائه ، استرسل المترجم: «أظنّه رمى بنفسه من الشرفة» .

لملم الشرطيّ الذي دوَّن المحضَر أوراقَه وأودعها محفظةً عريضة ، زرقاء ، ثم انتبه إلى عَلَقةٍ من الدم ملتصقة بجلدها فأطلق كلمة فيها امتعاضٌ لفتت عيني عاطف إلى حيث ينظر الرجل ، فأسرع إليه بمحرمة ورقيةٍ ومسحَ العلقةَ عن المحفظة . ابتسم للشرطيّ ، وعاد فابتسم للشرطي الثاني الذي همَّ بالخروج من الباب العريض ، ثم ابتسم ثالثةً للمترجم النعسان ، قبل أن يحَدّق في زوجه عفاف المجبولةِ من غمامة سوداء ساكنة ، فانسلَّتِ المرأة متوارية عن بصره ، لكنها لم تنكفئ إلى مدخل العمارة .

تنفَّس عاطف رائحةَ اللحم المعلّق ، أوّل مرّة ، في صباحه ذاك ، فجلس على كرسيٍّ في الزاوية مشعلاً لفافة تبغ حَبَسَ دخانها طويلاً في رئتيه قبل أن يطلقَه في رَشْقةٍ متواصلة ، مستقيمة بقوّة اندفاعها من بين شفتيه المحتقنتين ، فيما تهدَّلت أحشاؤه بعدما كانت مشدودة في حضور الشرطة . قرأ قَبَسَيْنِ من آية مّا ، وأطلق سراحَ المكان من قفص الساعة الثامنة ، بحسب عقربَي ساعة الجدار الدائرية ، منصتاً إلى المشهد المرئيِّ الآخر ، المحتجب الظاهر ، الذي فتحَ ستارة السنين المُقَصَّبة ، ليطلَّ على قلب عاطف: جدُّه يضرب بالساطور ذي الحديد الأسود رأسَ ثور كي يقسّمه أجزاء ، فوق مسطبة حجرية غُطيت بكيسٍ عريض من الخيش . العرقُ ينزل متعرِّجاً ، فضيَّ اللون ، من أطراف غطاء رأسه المعقود كعمامة مضلَّعة ، والشهيق القويّ يُرافق كل ارتفاع للساطور قبل أن يهوي ، من جديد ، على العظم القاسي ، بدءًا بالقرنين أولاً ، اللذين جمعهما والد عاطف في سلَّةٍ مدمّاة الحواف ،

فيما كان عاطف الطفل، نفسه، مقرفصاً أمام باب الدكان الذي هو مدخل بيت العائلة، بعمق ثلاثة أمتار، يتوسّطه عمود خشبيّ انبثقت من جهاته خطّافاتُ حديد يُعلَّق إليها اللحم، والأحشاء، والجلود.

الضربات الذكورية تتتالى من الساطور. عينا الجدّ غاضبتان: تلك هي الحال التي ينبغي للجزّار أن يتوارثها إذا انكبَّ على تهشيم رأس ثور. فيما يجدر بقلبه أن يكون تنشَّقَ رائحةَ خبز ساخن في صباحه الباكر، حيث لا تتمنَّع على قلب كذاك، قُرئتْ عليه الحياةُ من فم النّعمة، نجدةُ الكرماء الخفيّين، فلا يمسُّ الساطورُ العظمَ إلّا وانشدخَ أو تخلَّعَ. وقد رأى عاطف آلةَ جدّه ترتفع فيتناثر من شفرتها نخاع أبيض حتى أخشاب السقف. وإذا رؤي النخاع على شفرة فإنما يكون العظمُ استسلم، وأفشى السرَّ الذي انكتمَ عليه منذ كان زُلالاً واشتدَّ حاوياً نواتَه التي تَنْغَلقُ معه في تجويفه.

كان عاطف يهمّ بإشعال لفافة تبغ جديدة، منصرفاً بذاكرته إلى جدّه، حين دخل أوّل زبون. ردّ اللفافة إلى علبتها، وابتسم للرجل القبرصي. فاللحم الحلال، في دكانه، ليس حكراً على المسلمين وحدهم، لكنه يعانيْ مع زبائنه غير المتكلمين بالعربية بعض الإحراج في فهم طلباتهم. وبالرغم من أنه تلقَّف، في سرعة يُسابق بها زمنه اليونانيّ، كلماتٍ أساسية من لغة الإغريق مفصَّلةً على أسماء كل عضو في الحيوان، وطرائق تقطيع اللحم، إلّا أنه كان يدعو زبائنه الأعجميين هؤلاء للدخول إلى الردهة التي تتوسَّطها المنضدة الدائرية، كي يدلّوا بأصابعهم على ما يريدون، وهو أمر يخالف أنظمة وزارة الصحة، حيث ينبغي على الزبون البقاء خارج القاطع المُغلق بحاجز من ألواح

خشبية، وأن لا يلمس اللحم خوفاً من نقل جراثيم مُعْدية إلى البروتين الطاهر.

الجزّار وحده مخوَّل بالوقوف قريباً من مركز الجاذبية الكبرى للذبائح التي تَهَبُ الحياةَ: لقد خضع لفحوصٍ في الدم، وفي الهوية، كي يُتاحَ للقَدَرِ، بإخلاص، أن يعقد صداقته على سِكّينهِ، ويخصّه ببصيرة العارفين، الأوفياء للمكاييل، سواء أكانت مكاييل للحم أم للأمل. وعاطف، بحقٍّ، حين يقرّر أن يقتطع كيلوغراماً واحداً من الذبيحة فإنه لا يُخطئ في التقدير، إلّا بفارق غرامات لا تُحتَسب. تلك هي بصيرة ساطوره؛ بصيرة شفرة الحديد في يده حين تغدو عِلْماً يزن الضروراتِ العمياءَ بميزانٍ من نُوْر.

فتح عاطف بوّابة الحاجز الخشبي يدعو الزبون للدخول إلى ردهة اللحم، لكنه تجمَّد. ارتفعت يداه تلقائيّاً كأنما يحمي نفسه من هجوم غامض، غير مرئي، مقلِّصاً رقبته، مفترّ الشفتين عن أسنانه. زبونه القبرصي قذف بنفسه إلى ما وراء المنضدة الدائرية مصعوقاً وهو يعضّ على كلمة «أيتها العذراء». فيما سقط الإطار الذي يحمل ترخيص الدولة لعاطف ببيع لحمه الحلال، وتشظى الزجاج على الأرض الصقيلة المرمرية: كان الانفجار، الذي شقّق لحاءَ أشجار الكينا بمخالبه الرعديّة، يتتابع حلقاتٍ في هبوبه من ناحية جسر «بريدج هاوس» صوب الدكان، ويخلط الورقَ المتطاير بأجنحة العصافير، قبل أن يستقرّ بغباره الناعم على سطوح السيارات المذعورة، وشرفات الأبنية، وظهور الجعلان والدعاسيق التي التصقت بالعشب النابت بين الحجارة، على جهتي مجرى النهر الجاف.

سيارة انفجرت على الطرف الغربي من الجسر فاندلق

سيل من زجاج العمارات على الطّرق، في دائرة يجاوز قطرها ثلاثمائة متر. مالَ حاجزا الجسر الحديديان كلٌّ إلى جهة؛ وانقلع الإسفلت، حيث كانت السيارة متوقفة، فظهرت أحشاءٌ من القضبان، يمكن الناظر أن يرى من خلالها حصى المجرى ورمله. وكان تعليق عاطف، في ما بعد، حين اتّضح خبر الانفجار: «سوّدوا وجوهَ العرب البيضاء، وبيَّضوا وجهي من الخجل»؛ إذ سارع معتوهون، أو هُمْ على قَدْر من العبقرية في تأجيج كراهياتٍ ضد الفلسطينيين بشكل مدروس، إلى إشهار بيان ينسبون فيه إلى أنفسهم توسيع سراويل البطولة المطاطية، بهجوم ضد سفارة إسرائيل، فأصابوا الهدف، ويعرف العارفون أنَّ ما من عصفور واحد طار عن الشجر القريب من تلك السفارة: قُتلتْ امرأة قبرصية مسنّة. تضرّرت سيارات. جُرح بعض الناس، وخيَّم، في الأنحاء كلّها، شعور باشمئزاز لا يوصف، تخلَّلته نظراتُ غضب إلى كلّ ما هو عربيّ، بمَن فيهم عاطف نفسه، الذي صارح أمَّ أولاده انه يفكّر في العودة إلى طوكر: «لحم الخنزير رخيص ومرغوب فيه يا امرأة. واسم الله لا يغيّر في طعم الضأن، والماعز، والبقر. المسلمون يشترونه من أقرب جزّار، والعرب يطردون زبائني القبارصة بألاعيب الشيطان هذه» في إشارة إلى السيارة الملغومة. وقد كرّر فكرته، بعد أيام عدّة، على مسمعَيْ المترجم الذي جاءه زائراً، وقدَّم له نفسه: «أنا، يا عم، ميران اسمعيل». ونشرَ على غمامة الكآبة التي اجتاحت الجزّار الأسمرَ بعضاً من المرح الخفيف كنخالة: «أتعرف لماذا عدت إليك؟» سأله ميران، فقدّم إليه عاطف لِفافة تبغ «سنيور سيرفيس» وهو يبتسم منتظراً جواباً: «أتخيط لي جورباً من الشحم؟»، وتناول اللفافة من الجزّار،

مستطرداً أمام الضحك الخافت الذي مطّ شاربي عاطف فوق شفته السفلى: «أنا محروم من الشحم. كولسترول كلبٌ حرمني. لكن أتحايل عليه من وقت لوقت، وألبس جوارب من الشحم»، فبادله عاطف مرحَهُ بما قدر عليه من بديهته المعتكرة: «أتريد جوارب حرير، أم قطن، أم صوف؟ أعني...» والتفت إلى ذبائحه العارية الوديعة: «إلية الخروف حرير. شحم كتف الماعز قطن. الطبقة التي تحت جلد البقرة، فوق الأضلاع تماماً، صوف مائة في المائة».

«بماذا تنصحني، في هذا الشهر؟»، سأله «ميران» مسترسلاً في دعابته، فأجابه عاطف:

- القطن يناسب شهر أيار. جورب من القطن يا أستاذ سمعان...

«اسمعيل...» صحَّح له «ميران»، فاعتذر عاطف ببعض المبالغة:

- سامحني. نسيان الأسماء يعني ظهور تشويش في قناة المخ.

«سلامة مخَّك»، قالها «ميران» مُجامِلاً، ثم اختصر سطورَ المرح الذي رسمَه منذ دخوله دكّانَ الجزّار، وألقى بسؤال جافّ على الحاجز الخشبي الفاصل بينهما: «أتعرف أحداً كان يزور هذا المحظوظ؟»، وتوقّف عن الكلام تاركاً لعاطف أن يتلقَّف الإشارة المرجوّةَ، لكن الرجل الأسمر مطّ عنقه في استيضاح ظاهر: «المحظوظ؟».

- «أعني هذا الذي رمى بنفسه من عمارتكم» قال «ميران» كاتماً ضحكته الخافتة.

«محظوظ؟ حرام عليك يا ابن الأوادم. والله حزنت عليه. لا يستاهل ما جرى له»، وموَّجَ جلدَ جبينه بضغط تلقائي من

جهتي صدغيه: «ما سأل عنه أحد. للرجل حوائج في شقّته. مَن يتسلّمها؟ لو عندي مفتاح كنت نقلتها إلى شقتنا أمانة عندي». فنقر «ميران» خشب الحاجز بينهما، متطلّعاً إلى المعلاق البارز من جوف إحدى الذبائح: «فَتْحُ شقته من مهمة الشرطة. التحقيق في يومه الخامس، والحبر لم يجف بعد يا أستاذ عاطف».

«أهم يحقّقون مع أحد؟» سأله الجزّار بفضول، فردّ «ميران»:

- نعم. مع الورق، وبعض الظلال.

«ورق، وظلال؟!! فرعونيٌّ واللهِ. هذا تحقيق فرعونيٌّ»، قال عاطف.

مدّ «ميران» يده إلى جيب سترته القطنية الخفيفة، واستخرج علبة «كنت غولدن لايت» طويلة، قدّم منها لفافة إلى الجزّار، الذي رفعها بين أصابعه متأمّلاً: «هذا تبغ الذين لا يدخّنون»، وحادَ عن «ميران» متوجّهاً صوب الباب الذي دخل منه شابان هنديان، هما من الطلبة المشمولين ببركة الكومنولِث في الأرجح. قدّما تحيّتهما بألفاظ عربية: «السلام عليكم»، فهشَّ لهما عاطف، وأظهر من عينيه ودّاً لا يخفى، ثم عمد إلى سطل يخفيه تحت الحاجز الخشبي فتناول منه عظاماً كثيرة، عليها رقائق من اللحم والعصب وضعها في كيس وأغلقه هبةً منه صريحةً، ثمّ سألهما طلبهما، فكان لحماً مفروماً مقتطعاً من الحجاب الحاجز لبقرة، هو الأقل ثمناً بين أجزاء الحيوان الأخرى إلّا الرأس، كلّه بسبع ليرات قبرصية لا أكثر: مهيب. فاجرٌ في ثقله. متوعِّدٌ حتى وهو مسلوخ، حصينٌ، مرصود، سلَّم الموتَ قيودَ مُعضلته، ورَكَنَ إلى السكون الخالد. وهو يزداد سخرية كلّما أمعن

منشار عاطف الكهربي في فصم خواطر عظامه الصلبة، لأن خياله، كجمادٍ أُعيد إلى مَنْسكه، طليق في المُتَّحَدِ الطليق لما بعد الضرورات.

نَشْرٌ طولانيٌّ، أولاً، ثم ثلاثة صدوع عَرْضاً، ويتفتّح تويجُ الجمجمة عن قُنَّبيطها ذي الأثلام المطعَّمة بشِباكٍ من العروق الدموية الدقيقة، فيرفعها عاطف ملء راحتيه، بحذر، كأنما استولدَ جنيناً رقيقَ الكيان من مشيمة الخيال الحيواني. بعد ذلك يدعُ الحذرَ جانباً، موسِّعاً بين شروخ العظم وصدوعه بالساطور، فيسحب اللسانَ الطويلَ، الخشنَ، من باطن كهفه، فيمدّده على المنضدة. ويعمد إلى سكين صغير، قصير المعدن، رقيق كشفرة، ينزع به كسوة اللحم عن الفكّين شرائحَ متساوية السّماكة، تصلح فراشاً وثيراً لأهرامٍ من لفائف ورق العنب المحشيّ.

«كيف يكون التحقيق الفرعوني؟»، سأل «ميران» الجزّارَ، حين خرج الطالبان الهنديان، فبدا الجزّارُ ساهياً: «نعم. التحقيق الفرعوني؟»، وسمَّر عينيه على ميزانه ذي القرص الدائري يستعين بمؤشّره الرفيع، الثابت على لوعةِ الصِّفْر الأكثر تهتُّكاً بين طوائف الأرقام، قبل أن يعود ببصرْه إلى وجه «ميران» الممتلئ، غير الحليق، الذي تنتصفه نظّارة ذات إطار فضّي رقيق، وشحذ نصلَ معرفته بمبردٍ من هواء البحر السودانيّ: «الفراعنة، كما هو شائع، يتحققون من موت شخص ما بالورق والظلال». فصحّح «ميران» ابتسامتَه المستطيلةَ على شفتيه المضمومتين، وفتح فمه حتى بان لسانُه: «لم يكونوا اهتدوا، بعد، إلى جسّ نبض الشخص ليعرفوا إذا كان حيّاً أم ميتاً». فهزّ الجزّارُ رأسه لا نفياً ولا تأكيداً، وأدلى بتخمينه المتوارث عن أسلافه المعمَّمين

بشموس الظهيرات الافريقية البيضاء كقلوب الحُبَاحب: «حتى لو مات الشخص، واهترأ، يتعيّن التحقّق من موته، يا أستاذ، برسوم على الورق، وقياس ظل يده اليمنى أربعة أيام»، وفتح علبة تبغ جديدة: «الإنسان يتقلّص مثل الظلّ»، واعتذر عن انصرافه عن «ميران» إلى امرأة خبأت عاصفةَ شعرها الأكْرَت تحت غطاءٍ أبيض منتفخ: «أهلاً يا أم سامر...»، واختلط الترحيب، وكلمات المُجاملة عن أحوال العائلة، بضربات الساطور على أضلاع معزى، فانفصلت سطوراً متساوية العظام، كما الريش في جناحٍ كبير. ولذلك، ربما، يسمّون ضلع الحيوان باسم «الريشة» في عُرْف الجزّارين، وبخاصة إذا اقتُطِع بطوله، من عَظْمِ القَصّ حتى نهايته المُتداخلة في فِقار الظهر.

واللحم المتَّصل بهذا العظم القوسيّ هو الأكثر إغواء، بما فيه من عروق شحم مسطّحة رقيقة، تترك في الفم مذاقاً هو أقرب إلى الشعور منه إلى اللسان. وحين خرجت المرأة بكيسها المنتصر، تمتم «ميران» المتكئ بمرفقيه على الحاجز الخشبي: «أتُصاب الحيوانات بالكولسترول؟ الكلاب. القطط. النمور...»، وشدّ على أسنانه متحسّراً: «والله لولا هذا الداء لأكلت أضلاعاً مشوية على الإفطار، والغداء، والعشاء، وما قبل النوم، وفي النوم، وأودّ، إذا متّ، أن يدفنوها معي».

قهقه عاطف، فالتمع بياض عينيه. ثم لجم قهقهته حين طرح عليه «ميران» سؤالاً تخفَّفَ من الحشمة: «أإحليل الكبش شهيٌّ، حقّاً، والجزّار يستأثر به لنفسه؟»، فحادَ عاطف عنه ببصره إلى الميزان، وتحسّس علبةَ التبغ: «أنا شخصيّاً، يا أستاذ اسمعيل، لا آكله. وذبْحُ الأكباش، هنا،

قليل». لكن «ميران» عاجله بسؤال آخر في غير سياقه: «أتظن حقّاً أن الفراعنة يتحقّقون من الموت بهذا وذاك...» يعني الورقَ والظلال، فرفع عاطف كتفيه مستسلماً: «أتريد الحق؟ أنا لا أعرف. ولم أسمع بذلك. لكنني...»، وغامت إشاراتُ عينيه في بحثه عن كلماتٍ، قبل أن يسترسل: «... هذا ما خطر ببالي».

«ماذا خطر ببالك حين وجدتَ ذلك المحظوظ...» قال «ميران»، وقد خلا وجهه من أي تعبير، فقاطعه عاطف مبتسماً ابتسامة كئيبة: «محظوظ!! أأنت تهزأ يا أستاذ اسمعيل؟»، وهزَّ رأسه يبدّد دخانَ استنكار رقيق صعد من عينيه، مُعيداً إليهما سكونَهما المهذَّب: «سامحنا الله جميعاً. سامحه الله إذا كان رمى بنفسه من شرفة شقّته. لكنّ هذا لم يخطر ببالي. وهّاب شخص لا يفعل ذلك». فعاد «ميران» إلى استيضاح انطباع الجزّار: «بمَ فكرت، تحديداً، حين وجدت الجثة؟ أعني هل فكرت أن أحداً مّا...»، فقاطعه عاطف بإشارة من راحته، مرفقةٍ باعتذار في حركة حاجبيه، حين دخل كهلان إلى المحلّ يسألانه بعض لحم الخنزير، فهشّ وبشّ لهما، ومرَّ على الذبائح المدلّاة من خطاطيف الحديد: «عندي ماعز، ضأن، بقر»، ودفع كُتَل اللحم بيده فتأرجحت تستعرضُ خصائصها القوية كغذاء لا يحدّه تاريخ من تواريخ الموت. تهامس الكهلان كأنما فهما سبب غياب لحم الخنزير عن رقعة من جغرافيا «پروذروموس» يُشرف عليها رجل أسمر، تخرجُ من جيبيْ مئزره الأبيض ملائكةُ المانغا. وفي أثناء تشاورهما عمّا ينبغي أن يشتريا عوضاً عن الخنزير الغائب، التفت الجزّار إلى «ميران» يُجيبه: «لم أفكر في شيء يا أستاذ اسمعيل. واللهِ تعطَّل دماغي. يداي فقط كانتا تفكران

وأنا أتحسس المرحوم عسى أسمع نأمةً منه، أو أنّةً. فأستبشر، لكن دون فائدة. كان بارداً».

قال الكهلان، بإشارة متزامنة من أصابعهما الخشنة، إنهما يريدان معلاقاً - كبداً ورئتين وطحالاً وغدداً، وقصبة هوائية تطيبُ، بعد سلقها في التوابل، فاتحةً للشهيّة مع براندي «انغلياس» ذي النجوم العشرة المنطفئة. وما كادا يخرجان حتى دخل شخص داكن البشرة، أقرب إلى القِصر، بدين في سترته الربيعية الضيّقة على كرشه، وطلب، بالعربية، رأسَيْ ماعز، بعد تبادُلِ تحيّةٍ مع عاطف، وسؤالٍ عن أحوال عائلته، بلكنةٍ شمال أفريقية، فأخرج «ميران» نفخةً من فمه دليل ضجره من انقطاع محاورته مع الجزّار، وكانت واضحة وصريحة جعلت الرجل، الليبي - بحسب ما قدّم نفسه به إلى «ميران» بعد لحظات - يتفرّس فيه باستغراب: «هل الأخ من قومنا؟» قالها بالعربية غير متأكّد من زعمه أن يكون الآخر عربيّاً، فهزّ «ميران» رأسه مرّة أفقيّاً كمَن ينفي، ومرّة عموديّاً كمَن يؤكّد، متمتماً: «من أنصار قومك». فبدا الليبي ضجراً حتى من أن يستفسر ما يعنيه جواب مُخاطِبه المُضْمَر على مزاحٍ وإشكال معاً. تناول رأسي الحيوانين وانصرف تسبقه عيناه المثقلتان بسهرٍ نفخَ أجفانهما. فما كاد يخلو المحلّ للجزّار والمترجم حتى بادره الأخير: «مَن كان يزور هذا...» وقطعَ الكلمات برهةً كي يصلَ حروفَ اسم الشاب الميت، بعضها إلى بعض، في ذاكرته: «وهّاب، جارك في العمارة».

أشعل عاطف لفافة تبغ، وردّ دون تمحيص: «إثنان. شابان في مثل عمره، أو أكبر بقليل، هما كانا الأكثر تردّداً عليه». ورفع وجهه عن أكياسٍ من البلاستيك باعدَ بينها،

سائلاً بعينين بريئتين: «أأرسلتك الشرطة؟»، فضرب «ميران» على صفحة الحاجز الخشبي براحة يده كأنما وجد حشرة، وردّ: «أرسلتني القيامة».

«أستغفر الله»، قال عاطف بردّة فعلٍ عفوية، فابتسم «ميران»:

– لماذا تستغفر الله؟

«لا يُعيد الله أحداً من القيامة إلى الأرض، بل إلى الجنة أو النار»، ردّ عاطف جادًّا في قراءة سطور الغيب المعلومة على لوح قلبه. فوافقه «ميران» بنظرة أرخى على سخريتها حاجبيه: «نعم، القيامة مطارٌ دوليّ»، ووضع خوذته السوداء، ذات الصواعق البيضاء المرسومة على جهتيها، فوق هامته، يهمّ بالتوجّه إلى درّاجته النارية، فاستوقفه عاطف بإصبع رفعها أمام عينيه كمَن تذكّر شيئاً: «كانت هنالك امرأة تزور وهّاب حليم، يا سيد اسمعيل. شعرها أحمر. بيضاء مثل الحليب. ليست قبرصية. أنا متأكد من ذلك. أصلها ليس إنساناً»، وضحك، فابتسم له «ميران» من تحت قناعه.

٢. خوذة ونساء

عانتُهُ حليقةٌ تماماً. شعر إبطيه حليق تماماً. هذا ما قالته صديقته البلغارية «إيونا» لصديقتها البلغارية «فارو» ذات الاسم المُختصر من شدّة طوله. وكان «ميران» يظن الأمر سرّاً من أسرار فِراشِه حتى ذلك اليوم، الذي اجتمع فيه الثلاثة على طاولة في مقهى من مقاهي أسواق «ليدرا» السياحية، المفرطة في تكلّفها إذا دخلها ذوو بشرات من اصقاعٍ لا تقترب الشمس منها كثيراً. وكانوا، هو وصديقته

وصديقتها، يرتشفون قهوة عكرة، ملفّقة الطعم والرائحة، فقامت «فارو» إلى كشك صغير اشترت منه بطاقة بريدية، ومغلّفاً، ثم عادت إلى الطاولة فبسطت أشياءَها، وراحت تهيئ قلمها الـ «بيك» الرخيص لتدوين كلمات على البطاقة إلى معارف لها في بلاد البلغار، لكن «ميران» سحب الورقة المستطيلة، المقوّاة، من تحت أصابع «فارو» يتأمّل المشهد البحري الغارق في ذهب المغيب على جزء منها، فيما انتصب تمثال مُحارب إغريقي على الجزء الداكن، الآخر من البطاقة، عارياً يعتمر خوذة، وقد شرَّع رمحاً في يده المتهيّئة للرمي. ابتسم وهو يغطّي بإصبعه ما نزعَ النحّاتون من الحشمة عن أعضاء المحارب الذكورية، وأراها لصديقته، متمتماً في أذنها بكلماتٍ ضحكت منها الفتاة الطويلة، ذات الخصر الضامر، والكشح الضامر، والصدر الضامر، والوجنتين البارزتين في مسحة من جمالٍ ينقصه شيء مّا.

استعادت «فارو» الممتلئة، ذات الفم المائل إلى اليمين إذا ابتسمت، بطاقتها من يد «ميران» اختطافاً، ثم حدّقت، بدورها، في جسد المحارب العاري: «عانتُهُ تغطي كل شيء»، قالتها بلغة يونانية تُضاهي ساكني خليج سالونيكي، وغمزت الشاب الجالس أمامها، مردفةً: «ليس مثلك». فاستوقفته عبارتها الغامزة، ونقل بصره إلى وجه «إيونا» اللامكترث، يستقي منه شاردةً تنبئ بما اعتمل في ظنّه. وعاد مُسْقِطاً عينيه، بقصدٍ شَرِهٍ، على ثديي «فارو» المتدافعين تحت قميصها القطني الأخضر، وفتح فمه عن لسان رطب مَثوثب، جريء ووقح، فركلته الفتاة الممتلئة على ساقه من تحت المنضدة، في دلال يرشح منه قبول فاضح.

«إيونا» و«فارو» نيزكان من مجرّة بلغارية انفلتت من كونها

في اتجاهات الأرض شتّى، بالسّحر الذي أحالَ نقودَ العالم الحديدي، شرق أوروبا، إلى أسنان من قطن لا تسحق طعاماً قط، بعد اندحار النُّظُم، فاتّسعت الهجرات صوب كلّ أفق فيه عُمْلة لها أسنان من عظم. وكانت النساء، القادمات من مزارع التطبيق الفاجر للفكرة العفيفة، رائدات في اقتحام جارات أرضهن الأوروبية، بما يملكن من خصائص الجذب الكبرى، دون عناء إلّا عناء الوقت الذي تتّخذه ابتساماتهن للتدرُّب على ترضية مَنْ يشاء، مقابل ما يشأْنَ.

تعرّف «ميران» إلى «إيونا» في حانة «خريسو - كوتوبولو» (الدجاجة الذهبية)، حيث اعتاد أن ينفق ثلاث ساعات من العاشرة ليلاً إلى الواحدة صباحاً، منذ اثني عشر عاماً بالتحديد، بدءًا من اليوم الرابع لوصوله إلى قبرص من مدينة «سالونيكي» اليونانية، وهو في السابعة والعشرين من عمره. غير أن شعره الفاحم لم يتغير وقد أضحى في التاسعة والثلاثين، ولم تتغيّر استدارة وجهه الطفولي الذي تبرق فيه عينان لاهيتان، متخابثتان، تزيدهما جسارة تلك النظّارة الطبية التي تأسرهما بإطارها الفضّي الرقيق جداً كسلك. وكان يتصرّف في الحانة كأنّ له إسهاماً في ملكيتها، فيملأ كأسه بنفسه من البراندي ممزوجاً بالصودا، من الجهة الخلفية للحاجز الخشبي، حيث صاحبة الحانة «ماريانا» وعاملاتها وحدهنّ يشغلن ممرَّه ذا الرفوف السفلى المستورة، العابقة بأسرار صغيرة تشمل زجاجات الويسكي الملأى بشراب له لون الويسكي، خاصّ بالعاملات يسكبنه في أقداحهن إذا نادمْنَ زبوناً فلا يسكرن ولو شربن برميلاً منه، ثم أنهن يقاضين الزُّبن على أن شرابهن ثمين مثل ابتساماتهن، ومثل الأجزاء المرفوعة من أثدائهن خارج ما يرتدين.

تلك ليست أسراراً، في الأرجح. كل زبون يعرف الحِيَلَ الكسولةَ في مهنة هذه الجحور الدافئة، من الشراب المغشوش للنادلات إلى ابتساماتهن المستندة على عكاكيز من شهواتهنّ المتهدِّلة، إلى الإضاءة الخافتة التي تتساوى فيها البشرات، وتمّحي بثورُ الجلود، وكَلَفُها، وبُصيلاتُ الشَّعر الحليق المندفعة، مجدّداً، من مسامات السيقان العارية. لكن «ماريانا» أقسمت لـ «ميران»، منذ أيامه الأولى في ارتياد حانتها، أنها تخص عاملاتها بويسكي صرف، إنما يخفّفنه بالماء حتى يسيطرن على مقدرات وجوههن وعقولهن في ساعات الخدمة: «السُّكر ممنوع. هنا مكتب للعمل، وليس حانة» مقهقهةً بصوتها المبحوح.

منذ دراسة في مدينة «سالونيكي» اليونانية عصف بخياله سحرُ الأوكار الدافئة، في الأزقّة الداخلية المتفرعة عن شارع ميكوس، المرصوفة بحجر بنّي. وكان مندفعاً بغواية العري المبذول في صخبٍ لأولاء النساء الرافلات في ذهب بشراتهن، الممنوحة هبةً من شمس الكهوف، أو من مساحيق التبرُّج وطلَّسماتها الخالدة. لكنه استقرّ، بعد تردد منتظم على البراكين المرتدية ثياباً أنثوية، على برزخ بين نداء اللحم، وشهوة الضوء الخافت الذي يصقل الظلالَ. وفي الظلال، تحديداً؛ في شروخها المنتظمة المفتوحة، كان «ميران» يتصيّد أساطيرَ قلبه النائمة في عنبٍ يوناني. وقد مكَّنَ مهاراته أن تُصيب مقاصدَها باختياره لحانات تشرف عليها النساء، منذ قدَّر، مصادفةً، أن لكنته الغريبة في نطقها تلكَ اللغةَ الثقيلةَ، والمنسرحةَ، على سعةٍ وطلاقةٍ، تشدّ إليه الإناث إذ يسمعنه، حتى لكأنه يونانيّ الأصل تغرّب ردحاً من الزمن عن موئله، وذلك قبل أن يستقيم لسانه، سنة بعد

أخرى، فيغدو على مهارة صارخة. ولمّا غادر اليونان، بعد سبع سنين، إلى قبرص، كان في استطاعته أن يحدّث محدّثيه، ساعة بأكملها، عن دقائق تصريف الأفعال، ومشقّات الأسماء، ومراتب الهندسة الفيثاغورية، ومذاهب «الشَّكّ»، حتى أن القبارصة تهيَّبوه، ووجد بعضهم في أحاديثه مراقيَ ملغزة، لكنها ذات جاذبية مُسْتَعْذبة. وتلك الجاذبية، ذاتها، هي التي فتحت له حانة «إيلي» وقلبها الذي شهد مَصارع كثيرةً للحب في «سالونيكي»، مثلما فتحت له حانة «ماريانا» وقلبها في الجزء القديم، الشرقي، من نيقوسيا، في تلك الساحة الصغيرة المنكمشة، دون خوف، تحت قبضة شجر الميوبوروس الضخم، الذي يرى «ميران» أن ظلاله الشديدة الخضرة هي صنف من جراح النبات.

البحيرة الكبريتية، في بلدة «رأس العين»، شمال سورية، هي التي تسلّلت إلى خياله على أناشيد السيرينات، اللواتي يغوين بشباك أصواتهن المراكبَ في مدار اليونان. قرأ قصصاً مُبسّطة عن أقدار التاريخ الكبرى كما كتبها شاعر ضرير، بخيالٍ ينقذ الواقع من كهولة معناه، في سنوات المدرسة الإبتدائية، فأذهلته المصائرُ التي تتقاذفُها الحِيَلُ، والحيلُ التي تتقاذفُها المصائرُ. ومع بلوغه سنوات الدراسة الإعدادية ألحفَ على أبيه «شريف اسمعيل»، الملقَّب بـ«شريف التراكتور»، أن يوسّط إلى حلب مَن يأتيه بكتب الإغريق وأقاصيصهم، فيما استحصل عند بائع مطبوعات على الرصيف كتيّباً أخضر اللون، مُهلهلاً: «كيف تتعلّم اليونانية دون معلّم، في سبعة أيام»، فأشبعه حفظاً عن ظهر قلب، بكافّة أخطائه المطبعية، وورد كلمات «متزحلقة» عن أماكنها في أعمدة الألفاظ المتقابلة. و«ميران» كان وحيد أبيه،

ومدلّله ، وأمله الكثيف كدخان الحطب الرطب في أن يحفظ لنسله امتداداً عزيزاً بين الأنساب ، لأنه لم يقدر ، بفحولته الملتمعة على شاربيه الكثّين المدهونين بزيت السمسم ، أن يورّث نفسه أكثر من إبن واحد . ثم اتّخذ على زوجه «حسنا» ، أم «ميران» ، ضرّةً في الثالثة عشرة من عمرها ، فلم تنجدْه رحمُها . وقد عوَّض على نفسه بالإكثار من الجرّارات الآلية ، التي تحرث الأرض حرثاً يقلب الباطنَ على الظاهر ، بتلك الأسطوانات الكبيرة المعدنية ، المصفوفة في قضيب أفقي من خلف هياكلها الحمراء . ويستعرضها كل مساء ، في مواسم الحرث المتعاقبة على بذار الحنطة ، والشعير ، والعدس ، والفول ، والملفوف ، والحمّص ، والجزر الأحمر ، والبطيخ الأحمر والأصفر ، والخيار ، والفجل الضخم كرؤوس القطط . ينكتُ الأرضَ أمام كل جرّار ، في ساحة داره المترامية ، المسوَّرة بعرائش العنب ، كأنما يجعل لها أوتاداً خفيّة ، متينة ، يُغلُّها إليها بسلسلة هي أنفاسُه ، وبأقفالٍ هي خفقات قلبه . وعلى طغيان ولَهِهِ بآلاته ، التي يصونها عاملان متفرّغان في دورة أسبوعية ، اتّسع لقبه لكلمة «التراكتور» فاستعذَبها .

كانت سهول «رأس العين» ، وحقولها ، تتشرَّب العافيةَ من ضجيج جرارات «شريف» ، وتغذي ذاكرتها من رائحة زيوتها ووقود محركاتها ذات الارتجاج الطاحن . لكن سطوة الرجل المبذولة على الخير شملت بعضاً من سهول بلدة «عامورا» أيضاً ، وجارتها «الدرباسية» . ولم يكن رجل مثله يعدم أن يجد من التجّار الرائحين إلى حلب ، والغادين منها ، مَن يلبّي طلب وحيده «ميران» ، فيحملوا إليه مجلّدات قليلة من حكايات شاعر اليونان الضرير ، وبعضاً من أغانيه المدوَّنة ،

ورکاماً من تراجم فلاسفة الإغريق أهملها آنذاك، في انصرافه إلى تشييد كهفه الرخاميّ تحت أعمدة الأسطورة، لكنه عاد إليها حين انتهى من دراسته الثانوية، فاصطحبها، باللغة العربية، إلى «سالونيكي».

ربما يكون «ميران» من القلائل الذين تسنّى لهم الدخول إلى جامعة أجنبية بعد الانتهاء من سنوات الثانوية في بلده، مباشرة. وقد ساعده أنه استحصل قبولاً مُسْبقاً من السفارة اليونانية في دمشق، في سابقة لا مثيل لها. وتولَّت، تلك السفارة، بنفسها، نقل التماسِ السماح لـ«ميران» بإكمال دراسته في ارضها الإغريقية إلى وزارة الخارجية السورية، التي وَشَمت الورقة الرسميةً بختمها، مع إحالتها إلى وزارة الداخلية لتسهيل استصدار جواز سفر. وقد فوجئت عائلة «شريف التراكتور» بتبليغ وصلها عبر مخفر الشرطة مفاده أن على «ميران» التقدّم بطلب للحصول على جواز سفر، فاستغرق الأمر بضعة شهور، مع رحلتين إلى دمشق للمراجعة، قبل أن يجد الشاب بين يديه لوحَ الله المعترف به في أقاليم الأرض، فطار إلى معسكرات أخيلياس المرفوعة إلى الأبد على تخوم طروادة الخفية.

حصل كل ذلك في ما يُشبه مكاشفةً بين تيريزياس، العرّاف الأعمى، والأقدار. فإنه لما تحصَّل لـ«ميران» مُصنَّفان في قواعد اللغة اليونانية، وقاموسٌ على نهج ألفاظها بما يُعادلها في العربية، وضعه آباء مبشّرون، انكفأ الشاب ذو التسعة عشر عاماً على خندق روحه المحتجب في ضياء الأخيلة، فكتب أربعة ابيات من الشِّعر، على هَدْي ما ترامى إليه من نفثاتٍ كتبها كازانتزاكيس نَظْماً في الأساطير التي صاغها، قبله بقرون، شاعر العتبات الكبرى للأقدار،

هوميروس الأعمى، الذي يُقال إن آخرين تخيَّلوا له عينين كالأشرعة.

نَظْماً، على قوافي مسبوكة في حرفين هما الكاف والواو اليونانيَّيْن، كتب «ميران» رباعيته، يقرن فيها البحيرة الكبريتية الخضراء، في «رأس العين»، بمثيلتها بحيرة كاستوريا، التي يسمع في أنحائها عويل طائريْن آدميين، لهما أجنحة الخفاش، أسرتهما الأرباب - الآلهة في قفص من الكوبالت. ثم أرسل تلك الرباعية، في مغلَّف ذي إطار موشوم بالألوان، إلى السفارة اليونانية، بدمشق، على اسم سفيرها، بعدما استحصلَ العنوان والاسم من ركن في الإذاعة يُجيب المستمعين عن اسئلتهم.

ما الذي خامر السفير اليوناني ديميتريس انغليدس وهو يقرأ رباعيةً بلغةِ خالاته وعمّاته كتبها طالب من ضفاف بحيرة تخيَّلها مثل خليج كورنثة؟ دوَّن «ميران» تحت الرباعية، كما يدوّن أرباب النَّظْم الموهوبون، تاريخ كتابتها، ومكان نزول الإلهام عليه: «البحيرة الكبريتية»، حيث الأبخرةُ الحرّيفة تصدم الخياشم برائحتها، والخمائرُ الطينيةُ تستولد لوناً فيروزيًّا كإغواء المتاهات النبيلة، فيما تحوم من حولها، كلَّ مغيبٍ، أشباحُ العائدين من حروب لم تدوِّنْها الأشعار.

فقاعات خضراء تنبثق من ضفاف البحيرة الطينية، ثم تنفجر عن ثقوب لا تلبث أن تلتحم. فقاعات آتية من الأعماق الأكثر عماء، حيث يتنفّس **الحوتُ** الأعظَم تحت أسوار المياه، ويتسلّل لهاثُ الخَلْقِ صعوداً من الحمإِ الكبريتي، قرب قدمي «ميران»، اللتين تتراخيان في كسل حين يشرد قلبُهُ في قراءة لوح المعنى المهجور.

لقد حملته البحيرةُ بيدين من فيروزٍ مطحون إلى باب

الأسطورة. وعليه، هو، أن يتشبّث بالمجازات المحمومة لساحرات النُّور الإغريقي، حتى تعبر به الباب إلى بهو الأزل الثاني، حيث ينسحب السحرُ أمام واقعٍ ينقُضه البرهانُ، ويؤكِّدُه البرهانُ، في اللحظة ذاتها التي يوصد فيها اليقينُ فتنتَه المعذِّبة على كل حقيقةٍ. ويشهد قلبُ «ميران» أن عربات تجرّها الجيادُ كانت تخرج وتدخل معسكرات الغيوم الكبيرة، حين عَلَتْ به الطائرةُ أوّل مرة في حياته، فراسخَ لا تُحصى، في الفراغ المستوي كحجر الرَّحى. وانقسمتْ نفْسُه، نصفٌ في الحوت المعدنيِّ المحلِّق بجناحين من ماءٍ جليدٍ كالفضَّة، ونصفٌ على بيادر الله البيضاء يركض من حولها ملوِّحاً للعربات، التي تحرثُ حوافرُ جيادها سهولَ المشيئة الصامتة، ويرمي المحاربون المنتصبون في مقطوراتها الصغيرة، الدائرية، بخوذاتهم تحيةً للألق الأكمل تحت أثداء الأقدار.

كانت «ايلّي»، صاحبة حانة «اينيا-سكانزوخيري» (القنافذ التسعة) تصغي إليه مذهولة، بحبٍّ يبلِّل، أبداً، ذلكَ البرزخَ بين ثدييها الملجومين بلجام خفيٍّ، حين يسرد لها شعورَهُ الصاخب، في طريق معسكرات الغيوم إلى اليونان. ولا تتمالك المرأة القصيرة، ذات الجمال الهادئ الذي لا يليق بحانة، نفْسَها فتحضن رأسه، من خلف الحاجز الخشبي ذي السطح الضيّق، وتمطر أنفه بقبلاتها المؤتلفة بالشهوة، والأمومة، معاً.

تكبره «ايلي»، امرأة «سالونيكي»، التي تروي لـ«ميران» أن القنفذ وحده، دون سائر حيوانات الأرض، يبكي إذا سمع إنساناً يبكي». وتضرب بكأسها ظاهر يده المبسوطة على السطح الخشبي: «للقنفذ كبدان كالمرأة...»، فيعترض

«ميران» خيالَها قائلاً: «على مهلك إيلي، أنت تشردين»، فتهزّ رأسها نفياً: «لا. لوعة المرأة مضاعفة. كبد واحدة لن تحتمل ذلك منها. لها كبدان». ويوم فاتحها «ميران» بعزمه على الرحيل إلى قبرص حدَّقت فيه طويلاً، صامتةً من العاشرة مساء حتى الثانية عشرة منتصف الليل، قبل أن تضع جبينها على جبينه، بعدما أطفأت صندوق الموسيقى الذي تديره قطع النقود المعدنية، وقالت له بصوت يشفُّ عن ألمٍ درَّبته بحنكة الضوء الخافت: «سيحترق كبدٌ من كبدَيَّ، وسيبقى الآخر لسبب بسيط هو أنك لن تغادر فَرْج اللغة اليونانية أولاً، وثانياً أن قبرص بنت من بنات اليونان».

كان «ميران» يعمل في مكتب تجاري في سالونيكي، تابع لقنصلية بورما، مترجماً بين الوجوه الآسيوية ومهووسي شراء الشاي، حين التقى، مصادفةً، «أبا مروان الحلواني»، التاجر الحلبي، البدين الأصلع، المستدير الوجه كطفل حقنوه بالسَّحْلَب، تحت جلده، حتى ليخال للمرء أنه سينفجر. وهو كان ينفجر، على أية حال، في نوباته العصبية المتكرّرة كل بضع ساعات، عندما عرفه «ميران» عن قرب أكثر، مستجيباً لإغوائه بمنحه نسبة عالية من ثمن مبيعات الكنافة الحلبية ذات الصيت الملائكي، إضافة إلى إشراكه، بنسبة أخرى، في مردود مشروع ينوي تسويقه بقبرص، وهو «الحمَّام»: «التسهيلات كبيرة، والتكاليف قليلة» قال التاجر لـ«ميران» بعينين واثقتين، مضيفاً: «سنقتنص جنود الأمم المتحدة أولاً، والمسنين الأثرياء. سترى. لقد درست المشروع مطوَّلاً. زرتُ قبرص سبع مرّات». ولمّا تساءل «ميران» عن جدوى تسويق «حمَّام» على طريقة الحمّامات التركية القديمة، في بلد لدى أناسه حمّامات في بيوتهم، احتقن

وجه «أبي مروان»: «سأجعل الحمّام نزهة روحية يا حبيبي، يكون الاغتسالُ آخرَ مطافها». وشرح له، تفصيلاً، أنه سيجعل رواق المكان، الذي يتّخذه حمّاماً، كهفاً من البخار تطفو روح الرجل فيه على تسعين عطراً. وسيزوّد الحمّام بعجين من المسك لا يزول شميمه عن الجلد سنة، وبطينٍ «مُخْصِبٍ» تُطْلى به الخُصى فيوقظ إحليل الميت، بعد تسعين طلْيَة. أمّا عن سؤال «ميران» عن إمكان الحصول على ترخيصٍ في التجارتين، هاتين، فقد رَبَّتَ «أبو مروان» على كتفه: «عندي ترخيص، سَلَفاً».

«سَلَفاً؟!» قال «ميران» مندهشاً، وفي نبرة صوته إعجاب ضمني. فهزَّ «أبو مروان» رأسه لا نافياً، ولا مؤكداً: «إنه في جيبي حتى لو لم يكنْ في جيبي». وكي يختصر على الشاب المزيد من أسئلة تتوخّى ضمانةً صريحةً في حال إقدامه على المغامرة بعمله، قدَّم له ألفي دولار، نقداً، في مغلَّف مفتوح: «أرِحْ بالَكَ. واترك الأثقال عليَّ، يا حبيبي»، وابتسم في ودٍّ رخيم: «هيِّئ لغتكَ اليونانية من ألفها إلى يائها، لا غير».

«لماذا اختارني هذا الرجل؟» كرّر «ميران» السؤال على نفسه عشرين يوماً هي الوقت الذي استغرقته تصفية شؤونه في سالونيكي، وسط أحلام يقظة مزدحمة بمُدَلِّكاتٍ فلبيّنياتٍ سيستأجرهن «أبو مروان» كما قال، وبموسيقى عربية، شرقية، يونانية، تركية، لها هَرْج ومَرْج في أرداف راقصتين مصريتين يعرفهما، ستعرق، على التماع سُرَّتيهما في غيوم البخار، أجسادُ زبائنه، حتى أن الرجلَ البدين سينْحلُ في يومين لا أكثر، فلا تعرفه زوجه إذا عاد إليها، يؤكد التاجر الحلبي. غير أن «ميران» لا يستهدي إلى سبب لتفضيله على مترجميْنَ آخرين، وتخصيصه بوعود فيها نِسَبٌ

شهيّة من المال، لذلك ارتأى أن يعرض على التاجر العمل معه بأجرٍ شهريٍّ معلوم، سواء أتدفقت على أبي مروان كنوز قراصنةٍ غرقوا أمام شواطئ فماغوستا، في الغزوات العربية بحراً، أم التصقت بوريده عَلَقةُ الكساد. فوافق التاجر، من فوره، حين فاتحه الشاب برغبته الخجولة: «لك ألف دولار. أهذا يرضيك؟»، فابتسم «ميران» ممتنّاً.

لم يكن سهلاً أن ينفصل الشابّ عن سالونيكي - كهف روحه البحرية ذات المائة عين، بعد سبع سنين كاد يتزوج فيها أربع مرات لولا ضعفه أمام الليل المعلّق، أبداً، إلى سقوف الحانات، جذّاباً بأيقوناته التي تطهّر الشرَّ العذبَ من اختراقات الخير وعذابه الشَّرِهِ. لقد تزوّج «ميران» حوريةً الليل ذات الأحشاء الشفيفة، بعقد مكتوب من رضا «ايلّي»، وشهادة قوية من الضوء الخافت في حانة «القنافذ التسعة». (اينيا-سكانزوخيري)، ذلك الضوء الذي عوَّده ألّا يبكي، برغم اللوعة التي عصفت به مرّتين من تلك المرّات الأربع، المشهود لها بموافقات صارمة على الزواج انتهت بنقْضِها. وكانت «ايلّي» التي لا يخبئ عنها شأناً من شؤون قلبه وعقله، تحثّه على البكاء، وتفتح راحتيها أمام عينيه كأنها ستتلقَّف منهما الفستق؛ «إملأ راحتيَّ بالخير الذي فيك» بالنبرة ذاتها التي كانت تذوِّبُ الكلماتِ على شفتيها الممتلئتين، حين تدفع جسدَها عليه دفعاً، فوق سريرها، هاتفةً في فحيح أزليٍّ: «إملأْني».

لطالما تفكّه «ميران» من أثاث بيت «ايلّي» الغالي الثمن، المتنافر كُتَلاً، وهندسةً، وصنْعَةً، كأنّما تستعرض المرأة، أمام زائريها، تعويضاً باذخاً عن رفعتها المفقودة، فيتداخل في صالة بيتها الخشبُ المزوَّقُ حفْراً، والمطليُّ ذَهَباً،

بالحديد الملتمع في قشرته القصديرية. ويتناطح القصب المفتول مع القماش المخمل ذي التعاريق كوشمٍ من آثار الفردوس. لكنه أعجب بسريرها الفاره، الصلب العوارض تحت الفراش، المُسَيّج في ثلاث نواحٍ منه بقضبانٍ نحاسٍ برّاق، فيها عُقَدٌ كروية في حجم بيضة الدجاجة، ولكل عقدة ثلاثة ثقوب تجتذب لهاثَ الآدميِّ وشهيقَ خاصرتيه فيصير الصدى، في قنوات القضبان، رنيناً خافتاً كنداء الجُزُر.

«ميران»، نفسه، لم يرَ «ايلّي» تبكي، ولو مرَّة واحدة في سنواته السبع بسالونيكي. وهو لم يكن يفتح راحتي يديه أمام عينيها، حين يجدها في غصَّة ينتفخ منها أنفُها العريض الشهواني، كما تفعل هي إذ تراه محتقن الرئتين والروح، بل يسألها، في مسحة جادَّة، أن يعيرها عينيه، فتتنفَّس «ايلّي» عميقاً وهي تطرق إلى أعمق أعماق كأسها الحاضرة أبداً بين يديها: «عيناك لا تكفيان. أعطني أحلامك». وكان «ميران» قد تلقّى منها، في المرّة الأولى التي دار بينهما حوار عن البكاء، جواباً كضوء الحانة الشاحب: «تعلَّمت أن أبكي من عظامي، أمّا عيناي فهما للخشوع». وظلَّ أمداً يقلِّبُ تلك الكلمة، في ممازحاته، على وجوه شتّى: «أتخشعين، ايلّي، وأنا أعطيك هذا؟»، مشيراً إلى أزرار بنطاله، فتتمتم المرأة، ذات الوجه الممتلئ: «أنت هرطوقي». لكن «ميران» يحسُّ، بالحنين الغامض فيه إلى ممالك الفراغ، أن الخشوع في عيني «ايلّي» أكثر طغياناً من أن يسهو المرء عنه، وهو برهان الليل على إقامته الأبدية فيهما، برغم أنهما شهلاوان فتَّ النهارُ فيهما طحينَ خَرَزِهِ.

تمنّى أن يرى ولَدَيْ «ايلّي»، ولو لمرّة واحدة، في آخر أيّامه بسالونيكي. لا يعرف «ميران» سبب رغبته تلك، ولم

يُفاتح المرأةَ حمراءَ الشَّعر بذلك؛ وهي كانت حدَّثْته، في أحيان مُتباعدة، دون إسراف، عنهما: صبيَّان، أحدهما في الحادية عشرة، والآخر في الثالثة عشرة، يقطنان منزل أبيهما الألباني، بائع تروس النحاس المزخرف، والمصابيح الزجاجية المُعَشَّقَة الخاصّة بتزيين بوَّابات البيوت. أرَتْهُ صورةً جامعةً لهما، تحملها في محفظتها، قبل سبعة أعوام من ذلك، ثم صورة أخرى مع أبيهما في السنة السادسة من تردّده على الحانة. لا يشبهانها. لكنه تعمَّد إظهار ملامح مشتركة بينهما وبين أمهما، في المرّة الأخيرة، فأغلقت «ايلّي» عينيه براحتها: «أنت تحتال عليَّ. هما يشبهان أباهما».

نصف وجهها الأيسر مُختبئ، دائماً، في زوبعة شَعرها الساكن، الذي تتركه حرّاً، يناوشُ بحمرته الضوءَ الشاحبَ، فيما تَرُدُّ القسم الأيمن منه خلف أذنها. وترتدي فوق ثيابها المحتشمة، عادةً، عباءتها الشفيفة، الحريرية الطويلة، كأنما تجعل للحانة توازناً ملحوظاً يخفّف من غلبة العري، الذي تبذله الفتيات الشقراوات الأربع للزُّبُن في ثيابهن المنحسرة حتى الأرداف، المُتقاصرة عن السُّرر، المُنْسَلِتَة عن الأثداء في إهمالٍ مُتَعَمَّد. وثمة عاملة خامسة في الحانة، حال بين حشمة «ايلّي» وطغيان المفاتن العارية عند فتياتها، اسمها «سَكِيْنَاس»، ولربما يكون محوَّراً تحويراً خفيفاً عن اسم «سَكِيْنَة» العربي، ما دامت تتباهى بجدّها المصري من جهة أمها. وهي تجاوزت الخمسين. صامتة، ومنزوية، لا تتحرَّش بزبائن «ايلّي»، التي تبرّر إبقاءها عاملةً في الحانة بماضي جمالها: «لا أخسر شيئاً» تقول لـ«ميران». وتشرح في اقتضاب: «لن أُشارك الزمن في جريمته». وحين تلتقي عيون المرأتين، في لحظات صمتهما، كل واحدة من جهة تبعد

عن الأخرى أحد عشر كرسياً، تتأسى «ايلّي» لها من ضباب حدقتيها، وتردّ «سكيناس» على ذلك بامتنانٍ ينبض مع نبض صدغيها المتورّدين بطلائهما الزهريّ الصاخب.

أنهى «ميران» دراسته في جامعة سالونيكي، في أربع سنين، ثم أمضى ثلاث سنين أخرى مترجماً لدى المكتب التجاري التابع لقنصلية بورما، حين أدرك أن عِلْمه، الذي تحصَّل له، لن يدرّ عليه شيئاً قط إذا عاد إلى بلده. وأجره كمترجم لم يكن قليلاً على أية حال، يصرف منه ويدَّخر أيضاً، ويحمِّل رسائله إلى أبيه ببعض الدولارات المطوية في ورق الكربون حتى تخفى على آلات الرقابة البريدية، بالرغم من أن «شريف التراكتور» يعلن لابنه أنه ليس في حاجة إلى نقود، بل لديه فيض منها، ويحثّه على العودة إلى أمّه، فلديهم - كما يقول الأب في رسائله - ما يكفيهم، ويكفي عشرين عائلة أخرى، ولا يهم أوَجدَ «ميران» عملاً أم لا. لكن «ميران» آثر، بشعورٍ يحفزه على أن لا تكون عودته إلى أهله بجناحَيْ خيبةٍ، البقاءَ بعيداً، حيث الفرصة ممكنة في العثور على حيِّز لاستخدام علومه مُعَزَّزاً، كمتخرّج نجيب من قسم «الفرضيات» الأكثر مثاراً للنفور بين الأقسام الكثيرة في جامعة سالونيكي. وقد درجت أوساط الجامعة على إطلاق تسمية «النحيليْنَ» على طلّاب هذا القسم القليلين عدداً، والمرهوبين بما في جدالهم مع الآخرين من سخرية مترفِّعةٍ، بليغة، حاضرةٍ حضور بداهةٍ رهيفة. وبالرغم من أن معظم طلّاب قسم «الفرضيات» لم يكونوا نحيلين، على ما أناط بهم اللقبُ المُغرِض من هيئاتٍ، إنّما لا يتبادر إلى خيالِ المتخيِّليْنَ إلّا أن يكون هؤلاء الطلّاب نحيفين، نحيلين، عجاف الجسوم، لانصراف فكرهم إلى ابتكار الغريب، المُعْجِبِ، الوحشيّ، اللّاممسوس، من

الإفتراضات، في قوانين المنطق والحق، ووضع صياغات معقولة للأحكام بصَدَدها.

كان «ميران» قادماً إلى سالونيكي بانجذابٍ هائجٍ إلى ما يُلقي به، مباشرةً، في هاوية الأساطير، المضاءة بلهبٍ رقيق، خافتٍ كلهب سراج يحمله العرّافون في كهوف الأقدار. وماذا يكون أقرب إلى الأساطير من الآثار حجراً ومعادن؟ «الآثار، إذاً». هذا ما قرّره «ميران» لدخول الحقيقة، فانتسبَ إلى قسم الآثار، الذي لم تَدُمْ إقامتُه فيه أكثر من أربعين يوماً، ثمّ توسَّل إلى ادارة الجامعة نقله إلى قسم «الفرضياتِ» فمكّنتْهُ من ذلك، بعد إجراءات شكلية، مع الكثير من الاستغراب أن يعمد شخص مقبول في نعيم قسم الآثار، إلى إلقاء نفسه في جحيم كلامٍ مُتْرَفٍ، مُلْغِزٍ، أُلْعُبانٍ، اسمه «الفرضيات»، يتخرَّج المتخرّجون من فنّه إلى افتتاح أكشاك لبيع الصحف، أو الرحيل إلى بقاعٍ أكثر نأياً عن المدنيّة، حيث الشعوب أنصاف عراة في غاباتهم، أو متدثرون بثياب سميكة في الصحارى، أو متقشّرو البشرات في الرياح الباردة لهضاب أواسط آسيا العالية، ليكون هؤلاء الرحّالة أقرب إلى تماسِّ الفرضيات الكبرى مع سحر العقل، وهو يصوغ أسئلتَهُ بدُرْبَة الوحشيِّ الحالم الذي فيه.

طالب في قسم «الفرضيات»، اسمه لينوس، نصب كمينَ هذا العلم لـ«ميران». كان يُشاركه الطاولة ذاتها، كل غداء، في مقصف الجامعة الذي يخدم الطلبة فيه أنفسهم بأنفسهم، فيختارون الأطعمة والمشروبات الغازيّة، ثم يتوجّهون كلٌّ منهم إلى مَن يرتاح إلى مجالسته بين الموائد الكثيرة في البهو الرخاميّ، الصقيل، الواسع، المتماوج الصدى. وقد دأب لينوس على اتخاذ «ميران» جليساً، بابتسامته الدائمة حتى وهو

يمضغ الطعام. وحين عرف، في المرّة الثالثة، أو الرابعة من مجالسته، أنه طالب في قسم الآثار، هزَّ رأسه هزَّةً تنمّ عن رثاء:

«الآثار افتراضٌ»، قال وعيناه على صحنه.

اعتدل «ميران» على كرسيه. رَشَفَ بلْعة ماءٍ، وحدَّق في وجه لينوس الممتلئ، الذي يتوسّطه أنف له عقْفَةٌ خفيفة، وسأله:

– من أي قسم أنت؟

«الفرضيات...»، ردّ لينوس.

«أتمزح، أمْ تماحك؟ إذا كانت الآثار، بحجارتها ومعادنها، افتراضاً، فماذا يكون قسم الفرضيات برمَّته؟ نِكاحاً؟!». فابتسم لينوس ابتسامة عريضة حتى بان الطعام بين نواجذه. أعجبته مفردة «ميران» المقذوفة بتهكّمٍ فيه استياء:

«هو شيء من هذا» قال لينوس في إشارة إلى «الفرضيات»، ثم أضاف وقد اتَّكأ بمرفقيه على المائدة، رافعاً ملعقته الشوكية في موازاة عينيه:

«علم الآثار عِنَّةٌ مزمنة».

قام «ميران» عن المائدة حاملاً صحفة طعامه، لينصرف عن جليسه، مزدرياً ما هُمَا فيه، فنهض لينوس من فوره، ومدّ يده يلمس بها كتف «ميران»: «انني أعتذر»، فالتفت إليه طالب علم الآثار وقد هدأت فورتُه قليلاً، لكنّه تردّد بين المضي إلى مائدة أخرى أو الرجوع إلى مجالسة لينوس، الذي أضاف إلى اعتذاره كلمات رقيقة: «لا تنصرف. لم أقصد أن تصل المحاورة إلى هذا الحدّ الفظّ». وبقي واقفاً

زيادةً في التأكيد على ما يعنيه، فما وجد «ميران» بدّاً من الجلوس، ثانيةً، إلى المائدة ذاتها.

صَمَتا. ظلّت عينا «ميران» على صحنه، وملعقته الذاهبة الآيبة في حركة رتيبة، بينما اختلس لينوس نظرات عدّة إلى وجه جليسه، ثم حاول أن يكسر طبقة الهواء الثقيل بينهما، فابتدره: «ما اسم مدينتك؟»، وكان عرف، من مجالَسةٍ سابقة، أن «ميران» كردي من سورية. لكن «ميران» لم يجبه على سؤاله، بل بادره من منحى آخر:

– أدأبُك أن تجد في كلِّ يقينٍ افتراضاً؟

مدَّ لينوس عنقه صوب «ميران»، من فوق صحنه: «عفواً. لم أفهم ما عنيتَهُ؟»، قال.

مسح «ميران» فمه بمنديل ورقيّ. مدّد شوكته في الصحن الفارغ فَرَنَّ معدنُها: «الآثار هي اليقين بعينه»، قال.

ارتدّ لينوس إلى الخلف معتدلاً فوق كرسيه البلاستيكي الأبيض: «الآثار صدى صوتٍ حقيقيٍّ في الخندق الذي ردمه الزمنُ حول بيوتنا. هذه جملة أستاذكم الأثيرة، أليس كذلك؟»، وضحك. ثم تفرَّس في ملامح «ميران» المتوفزة الصامتة، وضرب بعقب ملعقته الشوكية على المائدة ضربات خفيفة: «الآثار مبالغة استعراضية يقدّمها الخائفون للزمن، يا صديقي. معنى الآثار ليس ما تقوله هي، بل ما نفترض أنها تقوله». وأغمض عينيه كأنما يختتم مقدّماته هذه ببرهانٍ مّا صار حاصلاً: «الآثار هي الخوف».

كاد «ميران» يتثاءب. بدا الحوار مملاً فوق الصحنين الفارغين. وفي اليوم التالي تأخّر في حمل صحنه إلى أيّما طاولة في المقصف، ريثما يجلس لينوس إلى إحداها فيتحوَّل، هو، عنها إلى غيرها. وهذا ما فَعَل تحديداً.

لمحه لينوس ، الذي بدا على ملامحه أنه استأخره . قام ولوَّح له بيده ليلفت نظره إليه ، فتغافل «ميران» عن إشارة طالب «الفرضيات» ، الذي لم ييأس من إهمال الآخر له ، بل قام متوجّهاً ، بصحفته ، إلى حيث يجلس طالب علم الآثار ، بين ثلاثة آخرين يشاركونه الطاولة .

لم يكن هنالك متّسع لكرسيٍّ إضافيّ . بقي لينوس واقفاً . رفع «ميران» وجهه صوبه : «ألن تجلس ؟» قالها على ظاهرٍ من السخرية ، فتلفَّت لينوس من حوله هامساً : «أين ؟» وهو لا يجد مكاناً لمقعد خامس ، فردَّ «ميران» : «اجلس على إحدى فرضياتكم . ليكن المقعدُ مريحاً . وسِّعْ على نفسك قدْرَ ما تستطيع الفرضيةُ أن تصنع يا صديقي . اجلسْ . اجلسْ» ، وأشار بيده إلى فراغ ضيّق بين الجالسين لا يتّسع لمرور قنفذ .

فهم لينوس التلميح . ابتسم : «كنت أريد أن أخبرك برحيلي ، بعد غد . لن أكمل هذه الدراسة في علم الفرضيات القحبة» .

تفرَّس فيه «ميران» من وراء نظارته الرقيقة . تفرَّس فيه لينوس ، بدوره ، ثم استدار مبتعداً . نهض «ميران» حاملاً صحفته وهو يلحق بالشاب اليوناني . بلغا طاولتهما التي جلس إليها طالبان ، فجلسا إليها هُما أيضاً .

«ماذا جرى لك ؟ أمْ ما تقوله جزء من فرضية ؟» ، قال «ميران» ، وتمضغ لقمة من الخبز المنفوخ ، فردّ لينوس :

– الجامعة فرضيَّةٌ . سالونيكي فرضيّة . أنا وأنت فرضيتان . قرّرتُ الخروج من هذا الجدل المُغْلَق إلى علم الآثار ، مثلك .

طغت الدهشة على أقلّ عيني «ميران» وتمتم : «البارحة

عصرتني ببجاحةِ فرضياتِكَ، واليوم...»، فضحك لينوس مقاطعاً: «أعني أنني ذاهب إلى آثار المعاصرين. يجذبني الكومبيوتر، وأنا ذاهب إليه. الكومبيوتر نشيدٌ خرافيّ، يا صديقي».

«أتحبّ الأمور هكذا، دائماً، يا لينوس؟»، سأله «ميران».

«هكذا؟ ماذا تعني بها؟ كل شيء هو هكذا؛ أَمْ كيف تفسِّر وجودك هنا، في سالونيكي؟»، قال لينوس.

صمت «ميران». استرسل في مضغ طعامه، ثم توقف مادًّا عنقه صوب لينوس: «ما هي مهنة أبيك؟».

«عنده مصنع للألبان»، وحدّق في جليسه: «لماذا تسألني هذا؟».

«أيضع نظارة على عينيه، مثلي؟»، عاد «ميران» يسأله، فأرخى لينوس كتفيه متّخذاً وضْعَ المرحِّب بالأسئلة: «نعم. لكنها نظّارة شمسية. يكره الضوء القوي» قال.

في سالونيكي، تحديداً، اتخذ «ميران» نظّارة طبية. دوارٌ خفيف قاده إلى فحوص اكتشف عقبها خللاً في النظر. وقد برّر لنفسه قصور عينيه بسنوات ما قبل الكهرباء في «رأس العين». لا. كانت الكهرباء، على عهده بالمدرسة الابتدائية، تسلّلت إلى بعض الأبنية الحكومية وسط السوق الكبيرة للبلدة، ومدرستيها، في محيط ضيّق. وسيحفظ لنفسه، طويلاً، أن الحروف العربية، التي تعلَّم مقايضتها خيالاً بخيالٍ، كان لها طعم خاص في ضوء سراج الكاز، والفانوس. يستظهرها، ويستظهر معها الظلالَ القويّةَ التي ترشد متاهات اللفظ إلى يقين الصّور.

كان للحروف إغواؤها في ضياء السراج الخجول. لا قرارة لأعماقها. نقية، مغسولة، في كتب هي الأولى تدخل

بيتهم، سوى المصحف الصغير الذي يحفظه أبوه في جيب سترته الخارجيّ العُلوي، فوق الثدي الأيسر، حيث يستعرض الرجال، عادة، أقلام الحبر ذات التيجان الذهبية، حتى لو كانوا أمّيين. فالقلمُ الحبرُ مظهرُ رفعة. فألٌ. رقيةٌ. انتسابٌ إلى الأزل الذي دوَّنه الله به على اللوح، وحفظ الأبديةَ، والخلائقَ، بنفحةٍ من حبره. والقلم هو، «**والحوت**»، أوَّل حاملين للخير مذ خصَّهما الله بجلال الفعل، الذي لم يسبقه فعلٌ من قبل، فأوجدهما مباركيْنِ، لا يختلف المجتهدون في العلوم الإلهية حولهما، إلّا في سَبْق أحدهما الآخر: **الحوت**، أم القلم.

غير أن «شريف التراكتور» لا يضع قلماً إلى جوار المصحف في جيبه العلوي الظاهر، بل في جيب السترة الداخلي. ويعرف كيف يدوِّن به كلماتٍ محدّدةً، وأرقاماً، تخصّ مهنته كمتعهّد حراثةٍ وبذار بآلاته الصاخبة الرحيمة. وكان ملفتاً أن يعمد «شريف»، في مساء كل خميس، تحديداً، إلى استعراض مصحفه بين يديه، على دكَّة في المنزل، تحت الفانوس القويّ مباشرةً، وإذ يُطيل التحديق فيه، باستغراق مُحْكَم، لا يلبث أن يتذمَّر كعادته: «الحروف تتضاءل. لا أتمكّن من رؤيتها»، فيحثّه «ميران»، بحكمة أصابها من علوم المدرسة، أن يستعين بنظّارة طبية يأتيه بها أحدٌ مّا من حلب، أو القامشلي، دون حاجة للذهاب بنفسه إلى هذه المدينة أو تلك. فالوصف يكفي كي يُقدِّر طبيبُ العيون السماكةَ المتوجّبة للزجاج المحدَّب. لكن «شريف التراكتور» يتعلَّل لحاله بالأجر المضاعف الذي سيناله على قراءته: «أنا أقرأ ما لا يُقْرأ» يقول. وهو محقٌّ، قطعاً، في ما يذهب إليه. فمصحفه لا يجاوز ثلاثة سنتيمترات عرضاً في

خمسة طولاً. مُذَهَّب الورق من حوافه. فواصله بين الآيات ملوَّنة بالأحمر والأزرق. أسماء الآيات مؤطَّرة برسوم هندسية متداخلة، لها أشكال غصونٍ، وورق شجر، وعيونٍ، وغدائرِ شَعْرٍ مفتولةٍ مُتطايرة أفقيّاً. يُحيط دفَّتَيْ المصحف، من حوافهما، إطاران نحاسيان رقيقان، مصنوعان يدويّاً، وعليهما قفل بالغِ الدقة والصّغر، ينغلق - إذا أُطْبِقَ - بإبزيم يمكن التحكّم فيه بسبّابة اليد.

«شريف التراكتور» لا يحيد عن قراءة مصحفه، الذي يحوجه مُكبِّر، بعينيه المجرّدتين، المتقاصرتَيْ البصر. لكن، ما الذي خَطر ببال «ميران» كي يسأل لينوس عن مهنة أبيه وما إذا كان يضع نظّارة على عينيه؟ ذلك، بالتحديد، ولَّدَ سؤالاً على لسان الشاب اليوناني، مشوباً بالمرح:

- أأعجبتك مهنة أبي، ونظّارته؟

لكن «ميران» بدَّل اتجاه المحاورة بينهما: «لماذا اخترتَ علم الفرضيات، في البداية؟» قالَ، فردّ لينوس:

- لأُحاور نفسي بصوت مسموع.

«ما بالكَ؟ أتريد أن يراك الآخرون مخبولاً؟»، سأله «ميران»، فهزَّ لينوس رأسه يمنة ويسرة، قائلاً: «لا. أردتُ التدرُّب على أنْ لا يزعجني أحدٌ إذا ظنَّني الآخرون مخبولاً».

«هي تدريباتٌ، إذاً؟» قال «ميران» في نبرة سؤالٍ مستخفٍّ.

«نعم»، ردّ لينوس، ثم نهض مُبْعِداً كرسيّه، وهو يبتسم ابتسامة غير محسومة من خلف نظرته إلى «ميران»: «كل شيء يحتاج إلى تدرُّب عليه»، ومدَّ يده كي يصافح «ميران» مصافحةَ مودِّعٍ، مضيفاً إلى كلماته السابقة إشاراتٍ من الدخان: «الهزيمة، نفسها، تحتاج إلى أن نتدرَّب عليها قبل

حدوثها».

انتقل «ميران» من علم الآثار إلى علم الفرضيات. وصار يشحذ خبرتَه الجديدة بمذاهب الكلام على مسمع «ايلّي» أربع سنين، أي حتى أواخر أيام تخرُّجه من جامعة سالونيكي. ثم بدَّل منحى كلامه - مع حفاظه على ألاعيب مستورة في لغة أهل اليونان - صوب مجاهل الشاي، هذا النبات الأبديّ الخضرة، الذي اجتمعت عليه مواثيق أمم الأرض، وأخيلةُ الساهرين على بخاره في المساءات المنسوجة من ضياءِ مصابيحِ الشحم: «الشاي يروِّض الخُصَى» يقول «ميران» متفكّهاً.

ثلاث سنين وهو يمتدح الشاي على نحو لا تفهمه «ايلّي»، لكنها تُصغي إليه، وهي المدة التي استغرقتْهُ مترجماً لدى المكتب التجاري التابع لقنصلية بورما، حتى مساء ذلك اليوم الذي فاتحها فيه بعزمه على السفر إلى قبرص، للعمل هناك. إذ إنه توقف عن ذِكْر الشاي، في العشرين يوماً السابقة على رحيله، وبات يستفيض في الحديث عن الكنافة الحلبية، والحمّامات الكبرى التي بقَدر ما يتّسع الخيال عنها للمجون فإنما يتسع، أيضاً، لصنوف الحِيَل، وتخطيط المتذمّرين في أممهم لانقلابات ضد الحاكمين، وتدبير الاغتيالات غدراً، والإيقاع بالتجّار العابرين، وانعقاد حلقات الفلسفة، والمنطق، تحت عرائش البخار الطاهر فيها.

لقد أسرف أبو مروان، التاجر الحلبي، في عقد عرى بين حمّاماته المزمع إنشاؤها بقبرص وبين الخانات القديمة في المدن، حتى ظنّ «ميران»، نفسه، أنه سيُحيي تقليداً غَبَر، وانزوى إلى ذكرى محصّنة في أعماق بشر قليلين، دَرَسَتْ أعمارُهم ورثَّتْ. لكن، ما وجه الشبه، تحديداً، بين حمّامات

ستكون جدرانها من البورسلين، والمرايا، تجري مياهها الساخنة في صنابير مخفيّة في الجدران، وبين الخانات - فنادق العصور الذهبية للبغال والحمير المُبجّلة، وأسِرَّة القشّ، والشخير المُتداخل للنزلاء، والنوم المبكّر اقتصاداً في زيوت الأسرجة، والفوانيس المشتعلة؟ ربما لأن الحمّام، في الغالب، كان من ملحقات الخان. فالعابرون المتعبون، قوافل وجماعات، يعمدون، أوّل نزولهم بمحطّات النومِ المُسْتَأْجَرِ، إلى استعادة جلودهم المدفونة تحت قشرة الغبار والتعب الصلبة، فيلجأون إلى الحمّامات ذات المساطب الحجرية، والجرار المركوزة على النيران، والأقنية التي يَسيل عبرها الماء متَّسخاً إلى الساحاتِ مرتعِ الدجاج، والدعاميص، والخراطين، والذباب، والدبابير. وفي آناء اغتسال الرجال التجار تغتسل ثيابهم في القدور المغليّة أيضاً. ثم تُعتَصر وتُجفَّف على نار معطّرة بعيدان «حنين الجنّ»، ذلك النبات الغامض، الذي لا اسم آخر له. لكن المشهد كلّه يظهر رقيقاً، عذباً، نظيفاً، منمّقاً، في التصاوير التي رسَمها الرحّالة، بخطوط دقيقة يعتقل بها الحبر الأسودُ الماءَ، والبخارَ، والجلودَ العارية، وروائح ورق الغار المحترق تحت القدور، وبهجةَ مُدَلِّكِيْ الأجساد باللِّيف الخشن.

وصل «ميران» إلى مطار لارنكا القبرصي مصحوباً بثلاث حقائب ضخمة، واثنتين يحملهما على كتفيه، فيما كان أبو مروان أخفّ حملاً منه بكثير. وانتقلا من فورهما إلى نيقوسيا، متوجّهين بسيارة الأجرة إلى مبنى مينيرڤا ذي الشقق المفروشة، الصغيرة، والمستوفية - بالطبع - لمستلزمات أشخاص غير متزوجين. وقد اتخذا شقتين متلاصقتين في

الطبقة الثالثة، كانت واحدة منهما، أيْ المخصّصة لأبي مروان، مزوّدةً بجهاز هاتف، دفع ضمانةً عليه لصاحب المبنى ستمائة دولار نقداً، وتلك عادةٌ طرأت على حياة الجزيرة منذ أمد قريب، يسبق وصولهما. إذ عمد عرب كثيرون، نزحوا إليها في الحرب اللبنانية الطويلة، إلى مغادرتها، حال توافر ذلك، تاركين خلفهم فواتير هاتف، ومياه، وكهرباء، بمبالغ كبيرة ترتَّب على مؤجِّري الشقق المفروشة دفعها. أما ساكنو البيوت العادية منهم فقد تركوا للدولة عبء تحصيلها من المجهول. لذلك عمدت كل شركة من شركات الخدمات إلى فرض ضمانة مُسبقة بمبالغ يستعيدها طلّابُ الخدماتِ هذه إذا غادروا، بعد اقتطاع المُسْتَحَقِّ عليهم منها. وقد دفع «ميران» نفسه أربعمائة جنيه قبرصي لشركة الهاتف، في ما بعد، حين استأجر منزلاً عاديًّا في منطقة ستروفولوس، قديم البناء، سقفه قرميدٌ، وله حديقةٌ تحيطه من جهاته الأربع، بعرض أربعة أمتار، تتشابك فيها شجرات الليمون مع صبّار طويل عتيق، مع شجرات ورد غير مشذّبة، مع أربع شجرات زيتون يُداهمها أصحاب المنزل، دون استئذان قطّ، في مواسم القطاف، بمخالب خشبية طويلة، يمشّطون بها الأغصان تمشيطاً خشناً فيتساقط ثمر الزيتون. وقد تعوّد «ميران» ذلك، في اثني عشر عاماً من إقامته في المسكن ذاته، دون تبديله. تعوَّد أصواتهم العالية قرب شباك غرفة النوم، في الصباحات الباكرة، وهم يقطفون الليمون. يفتح الشباك بعين مغمضة وأخرى مفتوحة، فيبادرونه بتحيّات صاخبة فيها ودٌّ قرويٌّ لا تكلُّف فيه، وهم يعتذرون إليه عن إزعاجه. إنما يعوّضون عن زياراتهم المفاجئة اللامرغوبة بأنواع من الجبْنِ، ومخلّلات، وبيض

طازج، أو أرانب في بعض الأحيان، منذ انتقلوا، بعد تأجير المنزل لـ«ميران»، إلى مزرعتهم الصغيرة على الطريق بين لارنكا ونيقوسيا.

أمضى «ميران»، والتاجر الحلبيّ، عشرةً من أيّامهما الأولى بين مؤسسات الدولة ومكاتبها التجارية، يملآن استمارات خاصة، وبيانات، وأوراقاً شتّى، باللغة اليونانية الصّرْفة، كتمهيد لاستحصال ترخيص بالحلوى الحلبية تحديداً، دون ذِكْر أي شيء عن الحمّامات. ولمّا سأل «ميران» صاحب عمله الجديد عن إهماله أمرها في التسجيل، ردّ التاجر ردّاً مقتضباً: «ستكون المسألة تحصيل حاصل». أمّا كيف ستكون حكاية الحمّامات، والترخيص لها، مجرّد تحصيل حاصل، فذلك ما لم يُشغِل «ميران» نفسه به لغرابته. لكنّ أحد مديري الأقسام في مكاتب الدولة التجارية نصحهما باعتماد محامٍ يكفل للترخيص الذي يريده التاجر الحلبي دَعْماً، ومتابعةً، ورصانةً قانونية. وأبدى لهما استغرابه للجوئهما، بنفسيهما، إلى سُبُل تحصيل الترخيص.

بالطبع، لم يكن التاجر الحلبي يفقه شيئاً، إنما يُملي رغباته، ومخاطباته، عبر «ميران»، الذي ما أن نقل إلى التاجر نصيحة الموظف القبرصي المحترم حتى بادر إلى ازدرائها، محتقن الوجه: «أيريدون محامياً يسرقنا قبل أن نبدأ؟»، وأصرّ على متابعة طلب الترخيص من مكتب إلى آخر، في تلك المباني القرميدية، المُتلاصقة، القديمة، وسط المدينة، حيث تتفيَّأ الطيورُ والسياراتُ، معاً، ظلالَ شجر الكينا العريق.

كان تقديم الطلب بالترخيص لاستيراد الحلوى الحلبية كافياً، وشافعاً لهما كي ينالا إقامة شهرية في قبرص، يجري

تمديدها بشكل عادي، دون مساءلات، ما داما ينتظران ردّاً من الدولة. وفي آخر الشهر الرابع من وصولهما، استدعاهما موظف في أحد الأقسام المكلَّفة بالتدقيق في طلبات الأجانب، وأنزل على رأسيهما صاعقة باردة: «الدينا حلوى كثيرة. طلبكما الترخيص لحلوى أخرى، من بلاد أخرى، أمر غريب». فعرفا النتيجة، بعد ترجمة «ميران» لكلمات الموظف على مسمع التاجر: «لا ترخيص».

انكمش جلد «ميران». قال للتاجر الحلبي، وقد أخذته الحمّى من التفكير في الرحيل إلى بلده، بعد مغامرته هذه، التي ظنّها مُحْكَمةً، مُتْقَنَة: «فلنوكّلْ محامياً يا أبا مروان»، فوافقه التاجر: «ليكنْ. سنطلب ترخيصاً لدار نَشْر عربية». تململ دماغ «ميران» في أرجوحة قحفه: «دار نشر؟». أيُّ مساقٍ يوجِّه التاجرَ الحلبيَّ من حلم الحمّامات، والحلوى، إلى دار نشر؟ ولم يفهم حين شرح له الرجلُ الأصلع، البدين، أن المسألة، وغايتها، هما الحصول على ترخيص أوّلاً، ولكلّ حادث حديث، في ما بعد.

كلَّف أبو مروان محامياً قبرصياً على دراية بعلوم التراخيص للأجانب، فجاءه الرجل ببشرى بعد شهرين: «يمكنك المباشرة بأعمالك، ريثما تنتهي الإجراءات القانونية. إنها في الطريق» قال المحامي. وهكذا، بالطبع، بدأ أبو مروان، الذي قرّر أن يحوّل إحدى الغرف في مسكن «ميران» الجديد إلى «مكتب».

رفع «ميران» كتفيه مستغرباً. رفع المحامي كتفيه، ومطّ شفته السفلى: «تستطيع ذلك، طبعاً» قال باستغراب يشوبه ازدراء تجاهله التاجر، الذي سارع إلى أسفار متكرّرة بين بيروت ولارنكا، مصحوباً بحقائب يدوية أنيقة في العودة،

ملأ بها غرفة من مسكن «ميران» ، ثم عقد معه أوَّل اجتماع للبدء بمهمات العمل : «يا شريكي» قال مداعباً ، واسترسلَ : «سنُقَابل أشخاصاً في منزل شخص قبرصي هو وسيطنا ، ولديَّ قائمة بمواد عليك أن تترجمها لهم بشكل واضح ، ودقيق . أنا وأنت مدعوّان إلى عشاء من الأرانب البريّة . أتحبها ؟» .

يعادل الأرنب البري ، سِعْراً ، ستة أضعاف أرنب المَزارع الأليف . رماديٌّ ، مُتطاول ، نحيف ، عصبيّ ، مذعور أبداً ، قَلِق ويائس . وهو على ما هو عليه مذ ضاقت به الأرض في العقدين الأخيرين ، بعد التكاثر العبثي للصيادين في مساحات يتزاحم عشرة منهم على متر فيها . الطلقات بلا حساب . البنادق بلا حساب في أيدي دخلاء على هذه الهواية ، وفي أيدي محترفين يحتقرون الضوابط ، وفي أيدي شبّان أفاقوا ، توًّا ، على غريزة حُبِّ الصوت الصاخب للبنادق . يطلقون عشر طلقات من عيار ١٢ ملم على عصفور واحد ، من خمس سبطانات مزدوجة . لا يعرفون ، عادةً ، مَنْ منهم أصاب الهدف أوّلاً أو أخيراً ، حتى أن مواسم الصيد تتحوّل ، في فترات خصْبِها ، إلى مصادفات لا تُحصى من الأخطاء ، يقتل فيها صيادون صيّادين ، أو يهشمون أطرافهم ، فكيف يهدأ قَلب الأرنب البرّي وهو المطلوب أباً عن جدّ ، وسلالة عن سلالة ، بالوعيد الذي ينتظره من موسم صَيْد إلى آخر ؟

كان الأرنب ، الذي تصدّر المائدة ، برأسه وأحشائه دون نقصان ، متبَّلاً بالصعتر القبرصي ، والكثير من الزيت كي يحمرَّ ويتوهج ، محفوفاً بكُراتٍ من البطاطا المذهَّبة . وتقديمه ، على النحو ذاك ، كان ينقصه الخَيال على

الأرجح ، إذ إن إنضاجه في الفرن ، منقوعاً في زيت كثير ، هو المذهب الأسهل ، الكسول ، في فنون الطبخ الفقيرةِ الجاذبية. والطريقة الآنفة تُتَّبع في أَسْرِ الدجاج أيضاً ، واستعباد لحم الضأن ، فإنْ غُفر التواطؤ على الدجاج الكريم ، والضأن الصبور ، بإنضاج على ذلك النحو ، فإنما يغدو فَرْضاً أن تتزيَّن المخيلةُ للأرنُب البري على قَدْر خيالِ الأحراش ، وأكمات السفوح ، التي يتّخذها هذا الحيوان مرتعاً لدمه وحلمه ، كأن يُنْقَع يومين في نبيذ أحمر من صنفٍ ذي شأن ، دون إسراف في جودته ، بإضافةِ كأس من عصير البرتقال ، وملعقة من نعناع يابس ، وأخرى من الخردل ، وما يُماثلها من رُبِّ البندورة ، وزيتون أخضر مهروس ، وثلاث ورقاتِ غارٍ طريّة ، وفلفل أحمر طازج طُحن في زيت الزيتون.

بعد يومين يستخرج الأرنب البري من الخلائط ، ويُسْلَك فيه سيخُ السّفود ، ثم يُؤتى برقائق من شحم الضأن أرقّ من شفرة السكين نفسها ، فيكفَّن بها الأرنب حتى تحفظ لحمَه الخالصَ ، الذي لا دَسَم في عضله ، من اليباس فوق الجمر. ويُراعى أن يكون سيخ السفود مرتفعاً نصف متر أو أكثر عن النار ، يبلغه لَفْحٌ هادئ منها ، غير متسرّع ، يكفل الإنضاج بعد ثلاث ساعات ، وهي المدة الكافية كي يرشح الشحم عن آخره منكشفاً عن لحم الأرنب الورديِّ كأنما هو نيئ بعد ، لكنه يذوب تحت اللسان ، ويذوِّب غمَّ الكبد.

أرنب ذلك المساء كان على قَدْر من اليأس في الصَّحْفة المستطيلة ، ذات الحواف الفضية الملتمعة ، ويزيده يأساً ذلك الرنينُ الآسن في آلة البوزوكي الهادرة من المسجِّل الضخم ، ذي العيون الصغيرة التي تقدح منها ألوان حمراء ، وصفراء ،

وخضراء، إلكترونيّاً، بحسب نبرات الصوت وانقلاباتها المُتتالية. و«ميران» يجهل كيف يجري اقترانُ هذه الآلة بعراقة الإلهام اليوناني. ولطالما حاول أن يكون منصفاً، بحيادٍ، في سماعه طنين البوزوكي، فلم يقدر إلّا أن ينحاز إلى نفوره الصارخ منها، ما دام اليونانيون، من أقاصي مراعيهم بأوروبا الوسطى حتى قبرص، ألزموا هذه الآلة بمواكبة الولائم التي يقطر منها الشحم، والزيت، وقَطْر السُّكَّر، والنبيذ الحامض، وبراندي النجوم المنطفئة، الذي يحوِّل حناجر الشاربين إلى أبواق إذا تجشّأوا.

آلة في كل مكان، بلا رفعة أو خيلاء. تزدحم بها الأعراس، وسهرات الجماعات الصغيرة التي تتخلّلها مباريات الزجل الركيك، المُحَطَّم، المنقبض من كثرة القوافي المُخَلَّلة. وهي، فوق هذا كلّه، حاضرة كما تحضر الكراسي في المطاعم الليلية، التي تتباهى بشعبية مآكلها الثقيلة على الأحشاء حين الانتهاء منها. ويكثر في حضورها، عادة، صراخ الأطفال، عراك كؤوس الزجاج المُتصادمة، والسُّكْرُ السريع، وزَجْر النساء لرجالهن المحملقين في وجوه زوجات أخريات. كما تكون آلة البوزوكي مصحوبة بغناءٍ نمطي أجشّ من حناجر المغنّين، وبصوت منفلت الأجراس دون لجم، أو تطويع، من حناجر المغنّيات، اللواتي ينهال عليهن، من فوق صحون الطعام وزجاجات الشراب، الكثيرُ من زهر المنثور العديم الرائحة، أو أطواق الياسمين المعقودة في خيطان بيضاء، تبيعها عجائز يجرجرن وراءهن قبوراً خفيّة.

وآلة البوزوكي، في مقارنات خيال «ميران»، توأم الخلّ وقرينته بإطلاقٍ. ففي الخلّ يتشاكهُ، طَعْماً، كلُّ متنافرٍ من

النبات أو متآلفٍ: البصل مثل الخيار تماماً، والكرنب كمثل الفلفل، واللفت نظير الزيتون. ويكون لطعم بيض السُّمّن، واليمام، ما لطعم المُوْل البحري، والصَّدف، والعصافير الصغيرة، التي يتباهون بها مقبّلات في الخلّ. والنغم، في البوزوكي، مهما اختلف أو تآلف، وافترق أو تقاطع، ذو طعم واحد على لسان الإصغاء: نَغمٌ عاميٌّ، رتيب، شبه مرتجل حتى لو دوَّنه الموسيقيُّ على أربعين صحيفة من ورق النوتات. وكانت صديقة «ميران» الفلبينية «سُوْ»، المهتزّة الجسد أبداً كراقصة مبتذلة بالسليقة، تجاريه في بعض لحظات امتعاضه من صنف تلك الموسيقى، فتزعم، بضحكٍ صاخب، أن البوزوكي آلة تشبه فروج الآسيويات إذا تعرَّين في العتمة، وأن طعم بيض طائر السُّمن مُخلَّلاً أشبه بطعم خصية مخلَّلة.

تعرَّف «ميران» إلى «سو»، في أيامه الأولى إقامةً بقبرص، مذ اهتدى إلى حانة «خريسو - كوتوبولو» (الدجاجة الذهبية)، وكانت تُبادله كلمات بالعربية اقتنصتها من ليبيين لا يغيبون عن ملهى «كورنيت» الليلي، يبذرون على رائحة البيض المخلّل، الموصوف لهم كمهيّج لا يرقى شك إليه (بإشاعة أطلقها صاحب الملهى، عرّاب الفَرَس «ما شاء الله» المنتمية إلى حلبة سباق الخيل بنيقوسيا. ويلفظون اسمها هكذا، بالعربية المتلَجْلِجَة)، ما يجعل صدود أية امرأة، في ذلك الملهى، عن أعراق الناس وروائحهم، أمراً غير وارد: «أأنتم عريقون في إهانة أحاليلكم؟» تسأل «سو» صديقها الجديد «ميران»، بعد أيام من تعارفهما، فيفاجأ، لا بوقاحة السؤال، بل بالمغزى فيه: «ماذا تعنين؟»، فتوضّح: «العرب الذين يرتادون الكورنيت لا يوفّرون فرجاً قط». فيمطّ «ميران»

شفته السفلى: «ضوء الملهى الخافت يوحّد الجوعَ»، ويبادرها، بنفسه، سائلاً: «ولماذا أنتن سخيّات إلى هذا الحدّ في إهانة لحمكن؟ لا شك تولد إحداكن ممسكة بإحليلٍ».

كانَ المزاح، في عُريه، يقارب الإهانة أحياناً. لكنه منطق الحانة إذا ارتجل اثنان، زبونٌ وعاملةٌ، مماحكاتٍ - من أجل توطيد التعارف أكثر - تنطلق من محيط العانات، والألفاظ النضرة في تهتُّكها. فإن تصاحبا - كما «سو» و«ميران»، بآصرةٍ من جاذبٍ غير عارض، أشهوةً متجذّرة كانت أم نازعاً إلى اتصالٍ بطبعِ الاستئناس -، رقَّ لسانُ التخاطب بينهما، حتى أن «سو» درّبت شفتيها، وعينيها، معاً، على احتشامٍ كثيرٍ، فلا تستحضر لفظاً ماجناً، ولا تسهو عن لَجْم بصرها المطبوع على الإغواء كحرفةٍ هو عالمُها. وباتت لا تتبرّج إلّا خفيفاً حين يلتقيان، خارج الحانة، في منزله عادةً، منذ انتقل نصف حوائجها إليه، مع احتفاظها بالنصف الآخر في مسكنٍ وسط نيقوسيا القديمة، تُشاركها فيه اثنتان أخريان من صنف نساء الضوء الخافت.

ليس «ميران» بمتأكد أن «سو» تعصم احتشامَ لسانها، وعفافَ بصرها إذا غاب عنها، لكنه، في الأحوال كلها، غير مُكترث بانقلاب بعض سلوكها مَلْبساً وأحاديثَ، فيما يحفظ لخياله أن يتألّق أكثر حين يحضر جسدها الفاتن بألاعيبه. فلـ«سو»، بحقٍّ، حالٌ لا تكون إلّا لقليل قليل من النساء جرَّدت المصادفاتُ عليهن طغيانَ المهارة، إذ كانت نصف بهلوانة في سيرك محلّيٍّ، منذ نعومتها، درَّبت أعطافها على لِيْنٍ لا يكون إلّا للمطاط. ولمّا اقتربت أن تصير بهلوانة ذات أجر يليق بمحترفة، في أوائل يفاعتها، مطلع سبعينات هذا

القرن، لم يبق ذكَرٌ من العاملين في السيرك لم يغتصبها، بقليل من التهديد، أو بكثير من العراك، كما تروي. بدأها المدير النحيل كالقصبة، ثم تولّاها مدرّب كلاب، فمنظِّف اصطبل الجوادين الراقصين وحمار الوحش الوحيد. وفي آخر السلسلة صاحب القرد المهرّج، ثم القرد نفسه. «حتى القرد؟» يسألها «ميران» مستفظعاً مبالغاتها، فتؤكد، بقسَمٍ على حليب أمّها، أن القرد، الذي حضر ما فعله صاحبه بها، مزَّق سروالها حين كانت في الحجرة الصفيحية تستبدل ملابسها. طوَّق عنقها بيديه من الخلف، ولمّا قاومت، مذعورةً، شدَّ شعرها حتى تصلَّبَ جسدها من الألم. وانكبَّ على خاصرتيها، وردفيها، دفعاً بجذعه المسعور بحثاً عن ثقبٍ مّا. وتشرح لـ«ميران» أنه لم يتمكّن منها، بالطبع، كما تمكَّن سائر الرجال، إنّما أفرغ على جلدها العاري زبدتَهُ المحتقنة، ثم تراخى كآدميٍّ، وتكوَّم خائراً على صندوق من البوص فوقه ثيابُ وصْلَتِها الاستعراضية، فضربته، على رأسه، بفردة حذاء ذي عقب دقيق كالمسمار، غار كلّه فيه، ولمّا أخرجتْهُ وقد انتفض القرد منقذفاً في الهواء من وَقْدَةِ الألم، كان عقبُ الحذاء أبيضَ مصطبغاً بمخّ القرد، الذي دار من حول نفسه دورتين، ثم زفر، وخرَّ هامداً.

هربت «سو» من السيرك، كما تروي. لكن هروبها ذاك لا يشبه انتقالها من ملهى «الكورنيت» السخيّ بنقود الزبائن المنطفئين إلى حانة «الدجاجة الذهبية»، حيث الأمور متقلّبة، راكدة حيناً مصطخبة حيناً آخر. ولطالما حاولت أن تتدبَّر روايةً مُتجانسة عن سبب طلاقها من الملهى فلم تفلح. فقد ردّت الأمور، أولاً، إلى إهانة تلقَّتها من عربي، أرادها أن تسعِّرَ متعتَه تحت الطاولة، وسط حلقة من الجالسين فلطمته.

ثم أضافت إلى ذلك أن مدير الملهى أوكل إليها مؤانسةَ كلِّ قريب من أقربائه، وكل صديق له، من أولئك الذين ينبت الشعر على أكتافهم وترقواتهم، فإذا تنفَّستُ دخلَ بلعومها ما يتقصَّف أو يتساقط منه من كثرته، ناهيك بروائحهم المُدَخَّنة. «قلت للمدير...» - بحسب روايتها - «يكفيني أن أحتمل صَنَّةَ عانتك وما دونها، فاعفني من أقربائك، فطردني». إلى آخر ما هنالك من قصص عن شعور بالمهانة لم يأخذها «ميران» على وجهٍ جادٍّ قط، فما من سابقة، وفْقَ علمه غير المتواضع في شؤون مسامراتِ الليل، تجرَّدت فيها فتاةُ ملهى فلبينية من «أصول» العقد اللامكتوب بين مديري الملاهي وعاملاتهم.

كل مدير، دون استثناء، من متوارثي المهنة عن آباء ولدوا على مدرّجات سباق الخيل، أو طاولات القمار الطافية على تاريخٍ من شتائم السوقيين. أمّا الكثرةُ من عائِلِيْ هذه المهنة وأربابِها فهم ممّن اغتنوا فجاءة، في الأسواق القريبة من زواريب الملاهي، تجتذبهم إليها روائح لياليهم في الملاهي، وخيباتهم المتراكمة من الفشل في إقناع امرأة بعلاقةٍ عبرَ جاذبٍ شخصيٍّ فيهم، غير دفع ثمن المتعة نقداً.

الملهى فرصة من ذهب. جناحان. تعويض لا يتدبَّره الله. ضوء خافت يخفي نظرة المدير، الذي ينأى بنفسه، عادةً، إلى ركن من ملهاه، مترصّداً قطيعَه الأنثويَّ، المُمْتَلَكُ بعقدٍ يُجدّده أو يلغيه، فيحفظ للفروج، من حوله، ديمومة السَّهَر على انتصارات خصيتيه الكوكبيتين. فرصةٌ من نور. فرصةُ المدير الذي يتشبّه بأرباب الأعمال العريقين ثياباً، وعطراً، وتدخيناً للسيكار، في قناع من الرزانة الأبوية يتهشَّم كل ليلة بفائضٍ من الشتائم للراقصات، ووعظٍ بأخذِ المهنة على

محمل دعارةٍ مستورة، لا أكثر ولا أقلّ، لأن الزبائن يفكّرون - وفْقَ حكمة المدير العصامي - من أعضائهم المستطيلة لا المستديرة. فما الذي أخلَّت به «سو»، حقّاً، كي تُطرد، أو تُصْرَف، إذا رُوعي تخفيف العبارة، عبر عدم تجديد العقد معها؟ يظن «ميران»، بينه وبين نفسه، أن في الأمر سرقةً مّا. ما همَّ. جسدها البهلوان، الذي يستطيع أن يتّخذ أوضاعاً تُرْعِدُ الهواءَ نَفْسَه بشرارات فجورها، هو حكمةُ شهواته كإرثٍ أرضيٍّ وسماويٍّ؛ وهو - أيضاً - حَرْبُهُ العارمةُ على جبهة اليقين، كلَّما انصهر في وحدة لذّته، المُمْتَلَكة بلغز أعضائه، تعدَّدَ حتى أنه لا يعرف أية جهة من نَفْسه هي أوّل السحر وآخره، معاً: إنه يستطيع بحركةٍ من «سو»، عبورَ منابعها ومصبّاتها كما لا يقدر ذَكَر آخر أن يحظى به في مبايعات الجماع.

«سو» حُرّيَّةٌ من لحم. لكنّ «ميران»، بجسارة اليأس، التي هي ابتكارٌ إنسانيٌّ حالمٌ، قوَّض تلك الحرية بعد أشهر لا تبلغ السنة من وجوده في قبرص. قال لها، في ظهيرةٍ من آب: «لا أريد حوائجك هنا، بعد الآن»، فارتدَّتْ عن المقلاة، التي كانت تقلي فيها مكعّبات من لحم السمك المجلّد. عاينته بفم مفتوح، ثم عادت إلى المقلاة متمتمةً: «حيوان. أنت حيوان». غير أنه اعتبر طلبه بمثابة قضاءٍ لا جدال فيه، ومضى إلى غرفة مغلقة في المسكن، حيث يستودعها التاجر الحلبيّ صناديقه، فاستخرجها، صندوقاً بعد آخر، متوجّهاً بها إلى رصيف الشارع، أمام بوّابة البيت. جَمَعَها كومةً هناك، مُنضَّدةً بعضها فوق بعض، كما قذف بحقيبتين كبيرتين فوق تلك الكومة، وعاد إلى داخل المنزل. رفع سمّاعةَ الهاتف وانتقى أرقاماً في القُرص تستولد

الأصواتَ من الجماد، ثم صرخ بألفاظٍ تفلّعتْ من قسوة النَّفْخ عليها ملءَ حنجرته: «يابنَ القحبة، خُذْ صناديقك، أو تبوَّلتُ عليها»، وأقفل المَهَبَّ الخفيَّ في أحشاء الآلة.

أطفأت «سو» لهبَ الغاز تحت المقلاة. توجَّهت إلى غرفة النوم كأنّما هي على موعد مدوَّن مع رغبة «ميران»، وعكفت تلملم حوائجها المزروعة، ثياباً وأحذيةً وأدوات تبرُّج، من الخزائن والأدراج، قبل أن تتوقّف حين قفز «ميران» إلى الخارج هرولةً، وقد خلع نظارته.

كان التاجر الحلبي قد رَكَن سيارته لصق الرصيف، ووقف مذهولاً يتأمَّل صناديقه. دفعه «ميران» بعاصفةٍ يديه فتهاوى الرجل البدين فوق الكومة، مستسلماً زائغ البصر من الصدمة. حاول النهوض فتلقّى صندوقاً على رأسه. انفجر الصندوق الورقيّ المكعّب. تناثرتْ على الرصيف مواسير ملوّنة، وعلب صفيحية ذهبية مستديرة، ولفائف مستطيلة في أغلفة أنيقة. ضرب «ميران» التاجرَ بصندوق آخر. فتدحرجت أحشاء الصندوق من فوق الرصيف إلى الشارع معرَّضةً لهرْس السيارات إذا عبرت. وانكبَّ، بعد ذلك، رَكْلاً على خاصرة الرجل البدين، مختنقَ الصوت من الهياج الذي في قلبه. هرولت إليه «سو» وهي خائفة أن تعترضه فتتلقَّى منه فائضَ عَصْفِه، مؤثرة البقاء على مبعدة منه، متوسّلة فيه شفاعة القادر، لكنه أمعن تمزيقاً في الصنايق بحذائه، بينما انسحب التاجر، زحفاً، صوب سيارته يستنجد بها. ولم يكد يفتح بابها حتى اجتاحت الشارع سيارة شركة استهدتْ، من الرائحة، إلى مكان المشاجرة، فنهض التاجر مهرولاً صوبها، باستغاثة من يديه.

لم يتوقّف «ميران» عن ترديد كلمة «ابن القحبة»،

باليونانية، في مخفر الشرطة. وقد وجد التاجر الحلبي، المقصود بتلك القِسْمة البذيئة من الكلمات، نفسه، فجاءةً، في أرض رملية تبتلع شحمه قليلاً قليلاً، تحت رغوة من عَرَقه. «ميران» كسر الجرَّة التي انتفخت في أحشائه أشهراً: «حوِّلني إلى مترجمٍ في صفقات التهريب» قال للضابط، الذي قدَّم إليه كأسه المَلأى بعصير البرتقال، ثم سَرَد عليه ما ملأ ستَّ صفحات من تقرير رجل القانون: أسماء المروِّجين، والوسطاء، والعملاء، وبعض الوكالات التي تعيد تغليف أدوات التجميل النسائية، ومُستحضرات التبرُّج، ثم تزوِّد بها محلّاتٍ تملكها في مدن الجزيرة.

كان «ميران» سريعاً في الانتقام من التاجر الحلبي، باستفاضته، تلقائياً، في البوح بكل شيء، كأنما يغسل قلبه. وقد التفت إلى أبي مروان، حين انتهى من إملاء صواعقِ مرارته على حبر رجلِ القانون، وتمتم بالعربية: «لماذا جئت بي إلى هنا يا صاحب الكنافة والحمّامات؟»، وأردف متشفّياً: «تصلح مُدَلِّك أحاليل يا سليل الزبدة».

كيف تلاطم السطح الراكد لوجود «ميران» في الجزيرة، فجاءة، فهشَّم حلقةَ القريبين من هاوية أيامه، التي كادت تجتذبه إلى سرّها الكئيب؟ منذ الولائم الأولى، التي طحَنتْ أرواحَ الأرانب البرية في أجرانٍ من الزيت، أدرك «ميران» أن الرجلَ البدين استبدل أبخرة الحمامات بزيوتِ البشرة، واستبدلَ قَطْر الكنافة بالمساحيق، واتَّخذَ صناديقَه، وحقائبَه، وجيوبَه، وجلدَه مخابئ لعُلب صغيرة تعكف النساء على تزويق طلَّسماتها فوق بشراتهن، كأنما يصحّحن للأقدار غفلاتها القاسية.

استسلم «ميران»، بظاهر أعماقه لا بغورها، لتلك الخديعة

التي استقدمه الحلبيُّ إليها. فقد حرمه، مثلاً، أنه كان يستطيع البقاء في اليونان، على علّات عمله مترجماً بأجرٍ متواضع لكنه غير قليل، بمباركة القانون الذي لا يخشى ترحيلاً من جانبه، أو مُساءلة في أسباب بقائه. وقد لام نفسه، بكَدَرٍ ساحقٍ، أنه لم يتقدّم بطلب للحصول على الجنسية هناك، على إهمالٍ لا يستطيع تبريره إلّا بتسهيلات إقامته التي صرفته، برخائها، عن التفكير في تلك النعمة. لكنه، في قبرص، «كائن» يبدأ من صفرِ سِجلّات المكان، التي ينكبُّ على التدقيق في شاردها وواردها فيلقٌ من موظفي «دوائر أحوال الغرباء»، المتمتعين بسلطاتِ الاستنطاق، والتحرّي، وإلقاء الذعر المهذَّب في قلوب من يقصدون بيوتهم باسئلتهم اللطيفة، الرتيبة، المتواترة، المُعادة حتى الإنهاك.

غير أن الشرارة الحقيقية، التي وُلِدَ حريقُ المرارة، ذلك اليوم، من رحمها، هو رفضُ السفارة السورية تجديد جواز سفره - حلقةِ اتصاله بالعالم نصفَ حُرٍّ أو أقلّ. لقد تعوَّد «ميران»، في أرض الإغريق بسالونيكي ذات البحر الدائخ من رائحة المجارير، أن يحصل على تمديد روتيني كل ثلاث سنين، بختمٍ كبير، مُكْلِف. ولم يعترضه إشكال، أو بعض إشكال، في تدبير ذلك، لكنه فوجئ، في قبرص، بموظف له لكنة الساحل السوري يُعيد إليه جواز سفره، بعد أحد عشر يوماً من تقديم طلب التمديد، قائلاً له في بساطةٍ شرخت روحَ «ميران»: «عليك بتمديده في دمشق».

«ما المشكلة؟» سأله «ميران» بصوتٍ جاف انكمشتْ فيه الكلمات ويبستْ، فردَّ الموظف المتكلّف في شدِّ ربطةِ عنقه: «أنت متخلِّفٌ عن خدمة العلم».

انفرجت مضائق قلب «ميران» أول الأمر. ثمة سوء فهم

على الأرجح. نادى الموظّفَ، الذي استدار مبتعداً عن الشبّاك الخشبي الفاصل بين صالة المعاملات ومكاتب الموظفين، فاستدار الموظفُ إليه: «نعم، أفندم» قالها بنفاد صبر، فاعتذر «ميران» إليه اعتذاراً صامتاً بأصابعه وعينيه: «عفواً، أيها الأخ. هناك خطأ مّا».

رجع الموظّفُ ذو الشاربين القصيرين إليه بخطى كئيبة، ملولة: «نعم؟. خطأ؟. ماذا تعني؟».

ابتسم له «ميران» مُطْمَئِنًا إلى أن تبديد سوء الفهم أقربُ إلى كلماته من حنجرته: «أيها الأخ، أنا وحيدُ عائلتي. الوحيدُ مُعفى من الجندية».

فتح الموظفُ فمه دليل لا اكتراث ثقيل: «جدِّدْ، أو مدِّدْ، جوازَ سفرك في دمشق؟»، وابتسم متهكّماً: «دمشق في سورية. سورية بعيدة عن قبرص نصف سنتيمتر على الخريطة»، وعكف عائداً، فكاد «ميران» يصرخ من أحشائه، لكنه ليَّنَ، بجهدٍ سريع، حبالَ صوته المشدودة على آخرها: «ألن تسألوا وزارة الداخلية، أيها الأخ، إذا كان يحق لي...»، ولم يكمل جملته، حين رأى يد الموظّف تلوّح له، من وراء ظهره، دون أن يتكلَّف عناء الالتفات إلى «ميران»: «إذهب أنت إلى الخارجية، ثم عُد إلينا».

«فَرْج أختك» قال «ميران» مستديراً على عجل، فتوقف الموظف ملتفتاً إليه: «ماذا قلتَ؟»، لكن «ميران» صار إلى الشارع في أربع خطوات، متنفّساً غمامةَ الجحيم: «فليذهبْ فرج أختك إلى وزارة الداخلية» قالها صارخاً، وهو ينظر إلى مبنى السفارة الحجريِّ يلتهمه، من سوره الحديدي حتى العَلَم المتهدّل فوق الصارية، بتنّينِ روحه.

كان حريًّا بـ «ميران»، في ذلك اليوم المُمزَّق، أن يردم

الكونَ فوق لحم التاجر الحلبي، دون غيره، لكنه لم يفهم لماذا شملِ انفجارُهُ «سو» أيضاً، التي كانت غادرت مسكنه بمتاعها كلّه، وبعض مناشفه الشخصية، حين عاد عصراً من مخفر الشرطة، بعد تأكيد الضابط عليه، بلطف زائد، أنه سيستدعيه غداً إلى «محادثةٍ جادّة». لكن عينيها كانتا طافحتين بالإهمال لمّا التقتا عينيه، ليلاً، في حانة «الدجاجة الذهبية»، وهي تُجالس شابًّا قصير الشَّعر من جنود الأمم المتحدة. وقد ظنَّ أنها ستعمد، أكيداً، إلى معاتبته، ولو في صمتٍ، بعد انصراف جليسها، فبدتْ باردةً كظلِّها المتكوِّم في الضياء الشاحب لأنوار الحانة: لقد كانت كما يليق بكل عاملة في الكهوف الشهوانية أن تكون، تحديداً، عندما يعتذر الزبون عن تقديم شراب إليها بعد تودّد متكلّفٍ منها إليه؛ أيْ تعود إلى ركنها الذي انطلقت منه إلى الزبون بعرضٍ صريح من ذئبَيْ ثدييها أوّلاً، وبأصابع معتمة تمشّط بها شَعْرَها في حركةٍ ثقيلة الدَّلال ثانياً، وتجلس، من ثمّ، فارغةَ الروح والجسد معاً، في انتظار قنيصٍ سكران، أو ليبيٍّ ينزلق إلى مصيدة لحمها، الذي انحسر عنه شاطئُ ثوبها المتشبّثُ بحافة سروالها الرمليِّ.

مرّت بضعُ ساعاتٍ تتجشّأُ الزمنَ. اتّسع التجاهل الأصيل، غير المُتَعَمَّد، الذي هو من طبع الممسوسين بشقاءٍ دفين، حتى بات الأرجحُ أن «سو» لم تعرف «ميران»، ولم يعرف «ميران» فلبينيَّةً تُدعى «سو». عاد الضوء الشاحب للحانة إلى صفاء شحوبه. تململَ الجديدُ الكامنُ، أبداً، في حُرِّيَّةِ خسارته؛ الجديدُ، العذبُ، الخسران، المُستيقظ بدلالٍ من نشوة الضجر، ليعرض على الوجود الصغير شراكة مثل الفستق، الذي امتدّت أصابع «ميران» إليه، فيما أرسلت عيناه

دعوةً إلى صاحبة الحانة «ماريانا»، فاقتربت شبرين، من وراء اللوح الخشبي الحاجز بينهما، واتكأَتْ على مرفقيها العاريين: «أضيَّعتَ عظامَك؟» قالتْ عابثةً، فقرَّب «ميران» صدره منها: «ما رأيُك في ليلةٍ معي؟».

حرَّكت «ماريانا» مروحتها اليدوية، الآسيوية، أمام وجهها الممتلئ لأنثى تجاوزت الأربعين ربما، وغمغمت: «أراكَ تحنُّ إلى عذراء».

العدَمُ، نفسُه، نقضَ هدنتَهُ مع الأمل تلك الليلة؛ تعرَّى في ظل «ميران» المترجرج على سرير «ماريانا»، وتسلَّقَ، خفيفاً، برشاقة الهبَّارِ، دغلَ أنفاسِها المُدرَّبةِ على شَبَقٍ مُحْتَرِفٍ يتأخَّرُ في الإعلانِ عن بيعتهِ لجسدها.

العَدَمُ، نَفْسُه، تبلَّل، تلك الليلة، برذاذ العَرَق المُتناثر من ارتطام فخذيْ رجلٍ بفخذَيْ امرأة، وهما ينهبان كنوزَ الزبد الأكثر أَلَقاً كلَّما غرِقا.

كانت تلك الليلَةُ هي العقد المُبْرَم بينهما، في سنوات «ميران» الإثنتي عشرة بقبرص، وقد نصَّ ببندٍ خفيٍّ فيه أن تتغاضى عن أيّما قَنْصٍ في حقل حانتها، ما دامت هي المُشرفةُ، بطغيانٍ طاهرٍ من احترافِ الغفران، على ترتيب كل بداية بين «ميران» وإحدى عاملاتها، على كثرةِ تبدُّلِهُنَّ، وكذلك على توفير كلّ نهايةٍ أيضاً.

في اليوم التالي على مشاجرة «ميران» الصاخبة مع التاجر الحلبي، عرض عليه ضابط الشرطة في مخفر استروفولوس أن يعمل مترجماً، بتدبيرٍ نافذٍ منه، لدى قسم الجنايات، بعدما أصدحَ «ميرانُ» قلبَ الرجل بلغته اليونانية المُقْتَطَفة من لهبها الإغريقي، وكان الرجل باهظ الانشراح لمّا أدرك اتقان الشاب للانكليزية، والكردية، إضافة إلى عربيّته، غير ملتفت

إلى اعتذاره الواهي بأسبابٍ حَصَرَها في مأزق جواز سفره. لقد ابتسم ضابط الشرطة ابتسامة بليغةً: «ستأتيك أذونات إقامتك حتى إلى قبرك إذا متَّ، ودُفِنْتَ في قبرص». ويعتقد «ميران» أن موجبات هذا السخاء مردّها، في الأرجح، ذلك التدفّق الهائل لشعوب الشرق القريب على البلد إلى درجة الإرباك، وانهمار طلبات الترخيص لشركات الـ«أوف شور» على الدولة، مطلع الثمانينات، إثر القلاقل الكبرى في أرض لبنان، وانتقال الفلسطينيين بأجهزتهم الإعلامية المُتخمة إلى نيقوسيا، وما أحدثته من جذب لعاملين عرب، من النيل إلى دجلة والفرات، من غير أن يتقن نصفهم أية لغة أخرى عدا لغته الأم. وبالرغم من أن مهمة «ميران» الأساس كانت لدى شرطة الجنايات، لكنه وجد نفسه معاراً إلى أجهزة الهجرة، التي تتلاطم بين جدران مكاتبها لغة انكليزية، يحملها معهم المراجعون العرب في أمور إقاماتهم، وتبديل عناوينهم، فيها من رطانات الأرض ما يجعلها لغة بلا قواعد قط، منسلخة الألفاظ عن جذورها. كما يغدو بعض تلك اللغة الانكليزية لهجاتٍ عربية، لا يقدر الموظفون القبارصة على فكِّ نحوِها وصرفها العربيَّين.

كانت تسهيلات الدولة لهؤلاء الوافدين، المقذوفين من الخطوط الخلفية للجحيم شرقَ المياه، كبيرةً، وقد فوجئت، كجزيرة صغيرة، بمورد من العملة الصعبة لم تكن تستجلبه إلّا من السياحة، التي ازدهرت، بدورها، على أنقاض سياحةِ أرض فينيقيةَ، المهلهلة من حروب التاريخ، وتدريبات الزمن الشاقة على فهم رطانة الموت. لكن تلك التسهيلات القبرصية كانت مشروطة، عبر أذونات الإقامة القصيرة الأمد، وتجديد البطاقات الصحافية كل ستة أشهر،

والطلب المتكرر للصّور الشخصية، وتنبيه الغرباء إلى تجديد جوازات سفرهم قبل انتهائها بأشهر. وحصر الإقامات، أحياناً، بالمُدَد الزمنية المتبقية لانتهاء الجوازات تلك، حتى لَيَحدُثُ أن تقتصر مدّة إذْن الإقامة على ستين يوماً، ربما.

لم يكن في الأمر، على الأرجح، مبالغات للتضييق على النشاط الفائض للشركات المستحدثة، قَدْر ما كان عائداً إلى الطاقة المتواضعة لدوائر الدولة، المجبولة على بيروقراطية لها ثقة عمياء برضا الزمن عن قواعدها. وقد صارت تتدرَّب على الوضع المستجدّ، في السنة العاشرة لوجود «ميران» على أرض قبرص، عبر الالتفات إلى القوانين الأوروبية المُطبَّقة في هذه المجالات، إثر الصخب الفائض، الحماسي، عن قرب انضمام الجزيرة إلى فجر أوروبا، وهي قابضة على جرحٍ يعوزه أمل كبير، وسحريٌّ، كي يندمل.

على أية حال، صار لـ«ميران» وضع خاص في سجلات الدولة. كما نُظر إلى الطلب، الذي تقدَّم به لنيل الجنسية، بعطف زائد، إنّما ببتٍّ مؤجَّلٍ في منحها له لأسباب لم يجرِ الخوض فيها كثيراً، مع عرضٍ تسهيلٍ يتعلَّق برغبة «ميران» إذا أراد السفر، عبر إعطائه، حين الضرورة، جوازاً يصلح لذهاب وإياب واحد. وهو عرض سخيٌّ بالطبع، يخفّف عنه أيّ شعور بالإقامة القسرية. لكن «ميران» كان خالياً، طوال سني إقامته الاثنتي عشرة، من أي نزعة للسفر: لقد لبس المكانَ، وتحرَّر من مجاملة الغد، الذي بات يستلقي صامتاً، كل صباح، على سرير «ميران»، قرب نسائه الناعسات أبداً بوجوههن الآسيوية المغسولة بكسلِ الليل.

الغد. نعم. غدُ «ميران» المتعاقب كالقُبل المبذولة، التي

قلَّما يتذكرها المستيقظون بعد سهرٍ مُنْهِكٍ. غدُ «ميران» الآسيوي، المصنوع بخيوط القنَّب في حانة «الدجاجة الذهبية»، على خفقات مروحة «ماريانا» المنتفخة الأجفان من تَرَف اللامبالاة بحماقة العالم وحكمته المقذوفة كحذاءٍ عسكريٍّ. لكن سرير «ميران» صار يشهد انقلابات على صعيد اللحم، بعد اتساع غزوات الأمم الجديدة، من أوروبا الشرقية، وجارتها روسيا ذات الحظوة في قبرص، بحُكْمِ النَّسَبِ الأرثوذوكسي.

نساء شقراوات بدَّدْن، في عبورهن الجارف، صفوفاً معهودة من نساء الفلبّين كما تبدِّد نفخةٌ من الفم دخان لفافة التبغ. جميلات. نهمات. غير مدرّبات على الدلال الذي يعقبه جشع هائل لاستنفاد الفرائس الذكورية من فتحات جيوبها، كما تفعل الآسيويات، وبعض الراقصات العربيات. لكنهنَّ بلغن، سريعاً، مراتب العلوم القصوى في مجاهل هذه المهنة، وأدغالها الناعمة، ليس بسبب تفوُّقٍ في المدارك، بل بسبب التسليم الذي قدمته الذكورةُ إليهن، مُبَجَّلاً، في هذا القاطع من مفازة العالم الأرضيّ، حيث الشُّقرةُ هي تعويذة الشهوة، وأملُ اللون. وقد انسكب الفائض من هذه الشُّقرة واللّحم على سرير «ميران» أيضاً، بعدما امتلأت حاناتُ المدينة وملاهيها بهما ككأس تفور من حوافها رغوة الجعة، حتى كان ما كان من مصاحبته «إيونا» البلغارية، ذات الشَّعر الأحمر، التي كشفت سرَّ عانته الحليقة لصديقتها «فارو» المصبوغة الشعر بفحمٍ من موقد الإله الحداد «فولكانو». و«فارو» لم تكتم معرفتها بالأمر، حين نظرت، ذات يوم، إلى بطاقة بريدية يبرز في ظلام كادرٍ فيها عريُ محاربٍ حجريٍّ، فلمَّحَتْ إلى عانته «إنها تغطي كلَّ شيء»

قالتْ ، مردفةً : «ليس مثلك» .

تقصَّف الهواءُ ، مراراً ، عصر ذلك اليوم تحديداً ، بين ثديي «فارو» . تكوَّمتْ ملاءةُ السرير من جراحٍ ناعمة فوق تطريز ورودها الزرقاء ، وانسحقتِ الوسادة ثم غُرقت في مدٍّ من شهقات «ميران» وصديقة صديقته . خوذة المُحارب الحجري ، في بطاقة البريد ، تدحرجت ، عميقاً ، على سفح روحيهما المتّصلتين ، في تلك البرهةِ المأخوذةِ - حتى الذهول - بعنقود اللَّذة يتساقط عليه رذاذٌ من الألم العريق .

عانةُ «فارو» الكثيفةُ الشَّعر عرَّشتْ فوق عانة «ميران» . انغلق العدمُ بعضَلِهِ القويِّ على المشيئة المتعظة ، القوية . اكتملت الحيلةُ . فتنفَّس **النون** .

لم تعاتبه «إيونا» على اختياره صديقتها صديقةً لسريره ، ولم تبرح حَلَقَتَهما . لكنَّها ذكَرتْ ، مرّة ، ببعض الغَمْز ، شيئاً مّا من أمرِ الغبار ، فابتسم «ميران» . لقد عادت به إلى ما كان يسرد عليها ، باستعراضٍ ساخر ، عن العبودية ، التي هي ، دون غيرها ، منشأ الآثار الكبيرة : كلّ حضارة تركت آثاراً ضخمة هي ، قطعاً ، من عَرَقِ العبودية وسُعالها . كلّما كثر العبيد المُسَخّرون كبرت الأنصاب ، والأعمدة ، والأهرامات . الأمم الرعاة ، والصيّادون ، لم يتركوا وراءهم نُصْباً يُذْكَر ، لأنهم كانوا مأخوذين بانحلالهم في نسيج الكون - ذلك الصدى الحيّ ، الذي يتوارثونه روحاً بعد أخرى . والآثار الضِخام لم تحجب أنين العبيد ، فحسب ، عن قلب التاريخ المزهو بخيلاء النقوش والأشكال ، بل كتمت ، بكمّاماتها ، شكاوى الصنّاع ، الذين شحذوا على مبرد أسمائهم مَلَكاتِ الهندسة ، مُنْسَلِّيْنَ ، نكراتٍ ، إلى المجهول ، وهم ينظرون خلفهم ، بأنينٍ ، إلى فنونهم تُسمَّى بأسماء

الملوك وسلالاتهم.

ما كان يهمُّ «إيونا» مقدارُ الصواب في احتقار «ميران» للآثار، إنما تصغي، بمرحٍ كبيرٍ، إلى سخرية حركاته وهو يستعرض العصور عارية من الإثارة التي تدوّخ السائحين عادةً. وقد سألته إحدى المرّات، بعد جدال خفيف عن عمران بلغاريا، عمّا إذا كان للأكراد آثار عريقة، تماثيلَ أو نقوشاً صلبةً، فردّ من فوره، بيقينِ العارف: «نعم. الأكثرُ عراقةً في تاريخ الأرض هو من صناعتهم»، وحدَّق فيها حتى تغلغل إلى مشارف يقينها، متمتماً: «إيونا، الغبارُ، نَفْسُه، من صناعتهم. الغبارُ كرديٌّ».

٣. الوليمة

«أأنت السيد ميران اسماعيل؟»، سأله أحد الشخصين الواقفين على عتبة الباب، فردّ «ميران» وهو يزنهما بعينيه اللتين أثقلهما ذهبُ السهر: «بمَ أخدمكما؟».

«أنستطيع محادثتك لدقائق في الداخل؟»، سأله أحدهما.

«تفضّلا»، ردّ «ميران» وقد استرعته أصابع الذي حدّثه: كانت مفرطة في طولها. جلس الشابان طويلي الشَّعر. اعتذر «ميران» قائلاً إنه سيغيب برهةً. زرَّرَ بنطاله، الذي ارتداه سريعاً حين سمع جرسَ الباب ذلك الصباح، وغادرهما إلى غرفة نومه. كانت «فارو» مستلقية على عرض السرير يتدلّى رأسها من حافته. لم تكن نائمة، لكنها مغمضة العينين: «أشمُّ رائحة حجر رطب» قالت هامسةً. توقف «ميران» عن إدخال ذراعه اليسرى في كمّ قميصه، مستغرباً: «حجر رطب؟!»، ثم ابتسم: «الصيفُ على قرب خطوة من العالم، فارو. إنه

يجفّف ناسَ هذه المدينة، فاحفظي نفسك رطبةً إذا استطعتِ»، واقترب منها، ثم أمسك جَمْعَ راحته بلحمها، تحت السرة: «احفظي هذا رطباً»، فتأوّهت وهي تضمُّ فخذيها، سراعاً، إلى صدرها، لتتّقي عبثَه.

دخل «ميران» الحمّام. شتم بصوتٍ عال. رطوبةُ ذلك الصباح لم تمكّنه من تسريح شَعره كما ينبغي. ربطه بخيطٍ مطّاطٍ أضمومةً سوداءَ خلف رقبته. عاد، بعد ذلك، إلى الشابين الجالسين في صالة البيت. سألهما إذا كانا يريدان قهوة، أم عصير برتقال. شكراه: «شربنا قهوتنا توًّا. فلنحادِثْك». جلس «ميران». أشعل لفافة تبغ، ثم استدرك فقدّم علبته إليهما معتذراً عن سهوه. شكراه: «لا ندخن».

«أنت جيّد في الترجمات» قال أحد الشابين، وقد فتح راحة يده ذات الأصابع الطويلة، كأنما يسند كُرةً خفيّة: «نعم. أترجم، لكنني لا أعرف إذا كنت جيداً. ذلك تبْعٌ للغة» ردّ «ميران» مبتسماً على حياءٍ خفيفٍ، مضيفاً: «ما اللغة التي تريدان أن أُترجم منها؟». كان يحادثهما بالعربية، ويُحادثانه بها. قرّب أحد الغريبين رأسه من الآخر. تهامسا، ثم تباعد رأساهما. قال الذي بادره بالكلام أول مرّة، مبتسماً ابتسامة تبدو جزءًا من ملامحه العصبية قليلاً: «أنت تعرفها، حتماً».

«حتماً؟!» ردّد «ميران» الكلمة بتساؤلٍ. رفع حاجبيه: «أنا لا أعرف الفرنسية، مثلاً»، قال: تكلّم الشاب الآخر، الأبيض بياضاً شاحباً: «إنها لغة البحيرات، سيد ميران»، فتلقّفها «ميران» على مزاحٍ: «عسى أن لا تكون لغة بحيرات كبريتية». أخذ نَفَساً من لِفافة التبغ. خاطبهما: «ماذا تريدان مني، تحديداً؟».

تقارب رأسا الشابين. تهامسا. قال أحدهما: «اخترِ الوقتَ

الذي يُناسبك لنصطحبك معنا. سيكون لك أيّ أجرٍ تحدّده. لا مشكلة».

«تصطحبانني إلى أين؟»، سألهما «ميران».

«إلى مجلس ينعقد لأعمال خاصة»، ردّ أحد الشابين.

«يناسبني بعد الظهر» قال «ميران».

نهض الشابان. صافحاه مودّعين: «نمرّ عليك في الثالثة، إذاً»، قالا.

عاد «ميران»، بعدما ردّ الباب خلف الزائرين، إلى «فارو». كانت ما تزال مستلقية على السرير، تعلو وجهَها فراشات طائشة من الدخان. قال لها: «انتبهي» وأشار إلى الرماد الذي تقوّس من استطالته فوق جمر لفافتها، وأردف: «انهضي إذا أردتِ أن تشاركيني الإفطار»، فمدّت «فارو» ذراعها من خلف رأسها المتدلّي على حافة السرير، وأمسكت به من بنطاله: «سأفطر من دمك» قالت، ومسَّت بأناملها ملتقى فخذيه، قبل أن تسترسل: «كم طفلاً يكمن في الدفقة الواحدة لمنيِّ الرجل؟»، سألته باليونانية إلّا كلمة «المنيّ» قالتها بالانكليزية، فردّ «ميران» وقد ضمَّ راحتها المستقرّة على أعضاء مياهه الخبيئة: «آلاف أطفال ترافقهم آلاف ملائكة، وآلاف آلاف المعاول».

أمالت «فارو» رأسها حتى تتمكّن من رؤيته، في وقفته العالية من موقعها الواطئ: «معاول؟!»، سألته مُبتسمة على فضولٍ.

«نعم. لحفر القبور وردمها»، ردّ «ميران».

زمّت «فارو» شفتيها كأنما تعفي خيالها من تصوُّر آلاف المعاول نابتةً، مثل شجر صمغي أسود، في حقلٍ من الزلال الأبيض الدبق. امتصَّت لفافةَ التبغ، ثم كشفت الغطاء الرقيق

عن جسدها ونفضت الرماد المُتطاول في حلقة سُرَّتها، فيما «ميران» لا يُبارح وقفته. عادت تسأله:

كم طفلاً بذرتَ فيَّ؟

لم يجبها «ميران». ساد صمت يتململ في درقتِهِ حنينٌ غامض. رفعت «فارو» جذعها العلوي مستقرَّةً جلوساً على ردفيها. قالت: «لو نزل آلاف الأطفال، واحداً بعد الآخر، من رحمي، مولودين أصحاء، في يوم واحد...»، وضحكت ضحكةً مُجلجلةً، فارتمى «ميران» فوق بطنها، وعضَّ لحمها من فوق قماش السروال المتوغل، من فرط ضآلته، في ثنياتِ ما تحت العانة. صرخت «فارو» بمرحٍ وألمٍ معاً. انحنت عليه وعضّت ظهره.

سقطت نجمة محترقة على الوشم المائيِّ للنَّعمة. تمرَّغت خصلة منفلتة من شَعر «ميران» الطويل في رماد لفافة التبغ، الذي أسقطتْهُ «فارو» على سُرَّتها. طارت نحامةٌ من سَبْخَةٍ مالحة في الفراغ الأخير للجسد. هدأ **النون**.

قالت «فارو»، في الليل الذي سبق صباحهما ذاك: «إذا عدتُ إلى بلغاريا، نهائيّاً، سأرسل إليك زغنفة سمكة من البحر الأسود»، فلمس «ميران» أنفها بلسانه: «بل أرسلي إليَّ طَرْداً من الفُرُوْج»، قال.

«اللعنة عليك» قالت «فارو»، فاندفع «ميران» بجذعه فوقها، متزلجاً، حتى بلغ صدرَها ببطنه، هامساً: «ليكُنْ. ثم ماذا؟ افتحي فمك...».

كانت «فارو» متوعِّكة تلك الليلة، أو هكذا ادَّعتْ. لم تذهب للعمل في الحانة. «ميران» شرب كأساً واحدة من البراندي ممزوجاً بالصودا، وعاد إلى البيت ينتظرها، قبل نشرة أخبار الساعة التاسعة بالانكليزية، في التلفاز، على

القناة الثانية. لبس منامته الربيعية ذات البنطال القصير حتى الركبة، والقميص ذي الكمّين المقصوصين من الكتف. (قصَّهما بنفسه). سحب من مكتبته الصغيرة كتاباً بالفارسية، التي لا يتقنها، وبدأ يستعرض الرسوم الملوَّنة فيه، مستلقياً على كنبة الصالة الصفراء، العتيقة. و«ميران» يملك كتابين في تلك اللغة، يحملان عنوانين طويلين، موزّعين على بضعة سطور فوق غلافيهما. ولطالما حاول أن يجد مَن يترجمهما له فما اهتدى إلى عارفٍ، فاكتفى بصورهما المشعشعة في ألوان نمنماتها، المُرقَّنَة باللون الأحمر مع أكسيد الرصاص.

يستهويه، في أحد الكتابين، رسم لحديقة: خمائل من كل جهات الصفحة، وعلى كل غصن من المشهد الدائريِّ بضعة حيوانات تجلس، أو تقف، أو تقعي، متجاورة، بأنصاف هيئات إنسانية من جذوعها السفلى تحديداً. يتوسط الصفحة، في عمق مركزها، رسم لحوت بثماني زعانف، ولسان متشعّب منبثق من فمه كلسان الأفعى، فيما تستقر على قمّة رأسه سفينة بسبع صوارٍ.

حين دخلت «فارو»، بمفتاح الباب الاحتياطي، الذي أعاره لها «ميران»، لم يحسَّ بها على الأرجح، ليس بسبب انتعالها خُفَّيها الرياضيَّيْن من ماركة «ريبوك»، بل لانسراحِ خياله إلى البحيرة الكبريتية في بلدته «رأس العين»، وهو يزعم لنفسه - بالصوت الخفيض لعبور السَّحَرةِ المائيَّيْن برزخَ روحه البازلتيَّ - أنه كان يحسُّ دفئاً ينبض حيًّا آن يجلس على نَهْدٍ من الأرض يُشرف على الدَّغْل الفيروزيِّ للمياه، كأنما بينه وبين **الحوت** الدفين قشرةٌ من الريح لا من التراب؛ وفي جلوسه ذاك يسمع جدال الخمائر في الطين الساخن، الرماديِّ اللون من تمازج المعادن، وتفاعلات

الذوائب الحجرية، تحت دروع الأحماض.

تقدَّمت «فارو» حتى صارت مشرفةً من عليائها عليه. رفع وجهه عن الكتاب إليها. ثدياها اللذان يتزاحم على نضْرهما البلغاريِّ هواءٌ رضيعٌ، وزمن رضيعٌ، يحجبان ذقنها عن بصره المتسلّق فخذيها وبطنها، في استلقائه على الكنبة وقد وسَّدَ الكتابَ، مفتوحاً، صدرَهُ، تاركاً للرسوم أن تنزلق من سماء الصفحة إلى متاهات قلبه العريقة.

تحرَّكت يدا «فارو» فتتبَّعتهما عيناه. كانت ترفع تنّورتها القصيرة، المشدودة القماش على موانئ لحمها ومخازنه، بحركةِ إغواءٍ مُدَرَّبةٍ، إلى أعلى، حتى استقرَّت حوافُها فوق سرَّتها، فعافتْها حيث بلغتْ، ثم أرسلت يديها أسفلَ تجرفان سروالها الذي غدا حبلاً رفيعاً، ملتفّاً على فخذيها عَرْضاً، فانفلتَ شعاعٌ جَسُوْر من الكمين الأنثويِّ، عارياً، صلْفاً، متهوِّراً، نقيّاً كأبدٍ: كانت «فارو» حليقة العانة كما لم يعهدها «ميران» من قبل، مثلومةً ثلْماً أحمر في ملتقى جسدها، حيث يسردُ اليقينُ، جريحاً، نبوءاته المشتَّتةَ.

ذبابةُ المشهد اللجوجةُ ظلّت تطنُّ بين فقارِ ظهر «ميران»، حين كانت سيارة الشابّين، الطويلي الأصابع، تقطعان به منعطفات الشوارع إلى موعده مع الترجمةِ المنتظَرة؛ ذبابةٌ من زجاج تحوِّم حول شهوته المدهوشة قليلاً من تلك الهِبَة العارية، التي نثرتها «فارو» في مهبِّ ذكورته، مُشرِفةً عليه، هكذا، من كمال اللَّحم، الذي خرج على الصيرورات، منشقّاً عن تبعيَّةَ الأعضاء للجسد.

قبضةٌ من الذهولِ هو الفَرْجُ حليقاً. غير أن ارتجاج السيارة على الحُفَر المتناسلة للشارع تُبعد عنه ذبابةَ المشهد الرقيق، الذي جرفت فيه «فارو» ببطنها الكتابَ الفارسيَّ عن صدره،

مدوياً بسقوطه الخشن على الأرضية الخشبية لصالة البيت. وتضاعفت يقظة «ميران» حين نقر الشابُ الأبيض بياضاً شاحباً على كتفه، من المقعد الخلفيِّ: «لماذا تمتهن الترجمةَ؟»، سأله، فالتفت إليه «ميران» محدّقاً فيه باستنكارٍ يلتمع في الفاصل المشدود بين حاجبيه: «أترى في هذه المهنة عيباً؟»

لمس الشاب الأبيض الشاحب أعلى المَسْند الجلديِّ بينهما، مستعرضاً أصابعه المفرطة طولاً أمام عيني «ميران»: «قصدتُ: لماذا تترجم؟»، قال، فردّ «ميران» دون أن يرفع بصره عن أصابع الشاب المضمومة على جلد المقعد كأنها تتعرّى علاماتٍ مهشّمةً: «أعرف بعض اللغات فأَستخدمها لما يفيدني في تحصيل رزقي، ويفيد الناس»، ومدَّ سبّابته فلمس بها سبّابَة الشاب الشاحب: «لماذا أصابعك طويلة إلى هذا الحدّ؟ أتنبش بها الجحور؟».

«أتخيفُكَ؟» سأله الشاب الشاحب، فأبدى «ميران» هزءًا خفيفاً وقد أَلوى فمَه متمتماً: «بل أثارت فضولي كونها أطول مِنْ...»، وضحك، مشيحاً بوجهه عنه إلى زجاج السيارة الأمامي، متجنّباً أن يريه المعنى الساخر في جملته المبتورة. لكن أنامل الشاب الشاحب عادت تلمس كتفه، تقودها كلماتٌ لا رنين فيها:

– لماذا تترجم؟

همَّ «ميران»، لبرهةٍ صاعقةٍ، أن يلتفت إلى محدِّثه فيكسر إصبعاً أو اثنين يغريان بكسرِهما، من تلك الأصابع الطويلة، التي تفتِّتُ بحركاتها الثقيلة مرجانَ الفراغ، لكنه توجَّه بعينيه إلى الشاب الآخر، سائق السيارة: «مَن الذكي الذي يرسل شخصاً مثل هذا في مهمّة؟»، وأخرج لِفافة تبغ أشعلها

بأنفاسه قبل عود الثقاب، مسترسلاً: «صرتُ متأكداً أنكما ذهبتما إلى مترجمين آخرين، وقد استفزَّهم صاحبُك فرفضوا الحضور...».

«نعم» قال الجالس وراء المقود، بهدوء ينمُّ عن لامبالاةٍ بانفعال «ميران».

«وماذا لو سألتك، بدوري، أن توقف سيارتك الآن، وأرجعَ من حيث أتيتُ؟»، قال «ميران» جادًّا، فردّ الجالس وراء المقود: «إذا رفضتَ، الآن، نقتلك».

طحين ذهبيٌّ؛ زوبعة صغيرة من طحين ذهبيٍّ عبرت البحيرة الكبريتية، من ضفة إلى أخرى، تلمسُ الماءَ الفيروزي لَمْساً رقيقاً بذيلها الذي يتلوّى مرِحاً. وقلَّبتْ، في عبورها، صفحاتٍ من كتابٍ بين يدي «ميران» كان يتتبَّع، وسط قلاعِ سطوره وقبابها، تنّينَ الزبد في خليج كورنثه ذي الكهوف البحرية، المرصودة بتماثيل النحاس العملاقة، ونيران العاشقات المنتحرات.

«أقتلتم أحداً، من قبل؟» سألهما «ميران» ساخراً، فنقر الشابُّ الشاحبُ على كتفه نقرتين تسرَّبتا إلى شرايين ذراعه: «ما الذي تبحث عنه حين تترجم من لغة إلى أخرى؟» قال بنبرةٍ ممتعضةٍ تجاهلها «ميران»، الذي عاد يُلحف بسؤاله: «أقتلتما أحداً؟».

«نعم» أجابه الجالس وراء المقود.

تختفي الزوبعة الذهبية على حدود العشب الرمادي، شرقَ البحيرة، حيث يتساوى نبض قلب «ميران» مع نبض زُحل، وهو مُقبل على ترتيب روحه وثيابه معاً، في حقيبة ستصحبه إلى الهواء الذي زفرتْهُ الخيولُ حريقاً في بكائها على أخيلياس المحارب: هكذا تذكّر ابنُ «شريف التراكتور»

ومضةً مثيرة من عمره، قبل سنين لا تُحصى، في ارتجاج السيارة به، وقد عرتْهُ حالٌ من الإنقباض في حلقة الجذب بين الشابين، اللذين عاد الشاحبُ منهما إلى نَقْرِ كتفه:

- ما الذي تبحثُ عنه حين تترجم؟ ماذا تتصيّد في الفراغ بين لغتين؟

«أبحث عن قحبة. في كلٍ ترجمة تجلس قحبة على الكلمات»، ردّ «ميران» متهكماً، فاعتصرت يدُ الشاب الشاحب كتفه حتى التمعت شرارةُ في عظم «ميران»، الذي حاول التملّص فلم يقدر، كأنما شُلَّ، فتمتم متألّماً: «دعْ كتفي» فتراخت الأصابع المفرطة في طولها عن لحمه المنكمش، لكن الكلمات المثقوبة بالإبر رنَّتْ تحت صدغيه من جديد: «ما الذي تبحث عنه حين تترجمُ، يا سيّد ميران؟».

ما الذي يبحث عنه «ميران»؟ كلماتٌ تأخذ مواقع كلمات أخرى، مقذوفة من شِباكِ الأصوات المختلفة لأناسٍ مختلفين. لا شيء أكثر. المصادفةُ تضع «ميران» في العراء الحجريّ، الذي ترتجُ فوقه الكلماتُ المقذوفة كأثداء دافئة، فيردُّ كلَّ كلمة إلى الشبكة المعاكسة ليستقيم لها طَبْعٌ آخر في استسلامها الجديد. والحكاية ليست صَيْداً. وجودُ الشِّباكِ لا يجعلُ الأمرَ صَيْداً. الشِّبَاكُ هي من أجل راحة الكلمات، مثل تلك التي يستخدمها البعض للقيلولة، مربوطة من طرفيها إلى سقف البيت، أو منصوبة بين شجرتين.

بغتةً تنبَّه «ميران» إلى أن الشابين يحاورانه بالانكليزية، ليس في لحظاته تلك، بل منذ اصطحباه من بيته، وقد جاراهما في ذلك، على الأرجح، بشكل تلقائي، كأنما هو في برزخ من برازخ النوم الرقيقة، حين لا تكون الأصوات

آتية من الخارج إلى الأذن ، بل تتوالد ، بذاتها ، في فراء الدماغ وقطنه المحلوج . هزَّ رأسه ، واستدرك : «ألم تكلّماني بالعربية في زيارتكما لي صباحاً ؟» ، قال ، فقرَّبَ الشاحب رأسه من رأس السائق ، وتحادثا هَمْساً برطانة مثلومة ، قبل أن يحادثه الجالس في المقعد الخلفيّ : «نحادثك بأية لغة تشاء ، سيّد ميران . لكن قلْ لي لِمَ تترجم ؟» .

كانت السخرية فادحة في تلك البرهة من وجودهم معاً ، داخل هيكل صفيحيٍّ يقوده الزمنُ بأربع عجلات إلى منابت حِيْلَته الرحيمة : «هذا فخّ» قال «ميران» لأحشائه المنكمشة ، المُثارة ، المرتابة دون فزع . ثم نقل شكَّهُ إلى شفتيه ، فخاطبهما : «أهذه خدعة ؟ إذا كنتما تتقنان لغات كثيرة ، فلماذا تستعينان بي ؟ أنتما تستدرجانني إلى لعبة» .

«لا» ردّ الشاحب . وأكّد الجالسُ وراء المقود ذلك بالكلمة الانكليزية ذاتها : «لا» .

ليس للعقل بأسٌ إلّا بسَنَدٍ من التسوية . «ميران» يتعقَّب براهينَ مفترضةً لتأكيد ما هو غير مفترض ، لا يتوسَّلُ البراهينَ : إنه يقف في سرداب صغير من سراديب «تسويات العقل» ، ذلك الملحق المعرفيّ المتَّصل بعلم الفرضيات ، المكتوب بخطٍّ إغريقي مشوّش جدّاً ، تتداوله المعاهد مصوَّراً ، كما هو في الأصل ، في كرّاسة كبيرة القَطْع ، قليلة الصفحات . ولم يتمّ ، من قبل ، أنْ جرى نقلُه إلى حروف طباعية أبداً ، بتوصية من مجالس العلماء ، منذ اكتشاف المخطوط الأول مشوَّشاً هكذا ، فصار الأمر عرْفاً بعدئذٍ ، بإفتاء المحلِّلين المقتدرين لأيٍّ من دارسي هذا العلمِ تبديلَ المعاني حيث يكون اختلاط الفكرة فادحاً ، وكذلك تبديل كلماتٍ بأخرى على أوزانها حين تُشْكِلُ الحروف على

العين، أو تضلِّلُ سياقاتِ المنطق. غير أن بعضهم رأى ذلك الخلطَ، والتشويشَ، والتضليلَ، توريات مدروسةً بفكرٍ ثاقب، محترفٍ في نازعِهِ التأويليِّ، عن قصدٍ به من الإفراطِ ما يبلغُ الهذيانَ، كيما يستدرجَ الدارسَ إلى «فنّ المغالطة» المتفرِّع عن حيثياتٍ مَسُوْقةٍ بإتقان كمقدمة لكتاب «علم اليأس» الأوفى بين أصناف التآليف حول بطانات النَّفْسِ، وطِباقاتها الجبريَّة.

«تسويات العقل» تبريراتٌ لا تُدْحَضُ في مرافعة المنطق أمام الخسارة: كلّ عقلٍ ينسحب، في لحظة من لحظات الإشكال الصارم، كي يتوكَّل التوازنُ الخفيُّ في مجابهات الكينونة من ترتيب الوجود على قَدْر الضرورة، بخاصِّيَّةِ العماءِ نَفْسِه الذي يُنْشِئُ العِلَلَ على صورة تجلٍّ، أو إشراقٍ، أو لغةِ خطابٍ وتدوين. وانسحاب العقل، هذا، يدعى «تسويةً»، في إنشاءِ وسط بين الفلسفة والتأويل. والبعض يرجّح أن الأمر ليس «تسوية»، بل «مُقايضة» يتزلَّف بها المنطقُ للإشْكالِ المُعْضِل. والنتيجة؟ لا نتيجة: ديمومةٌ من براعات النقائض، حيث ينفخ المخدوعون، وحدهم، عن راحات أيديهم نحاساً مطحوناً في مهبّ الأمل المذعور.

تخرج السيارة من دائرة «سترفولوس». تنخفض السماء قليلاً، في ما وراء الإشارات الضوئية الكبيرة على تقاطع الطرق في اتجاه لارنكا. السيارة تتبع سهمَ الخيالِ الضوئي إلى الطريق القديمة المفضية، في نهايتها - عبر البرِّ الحجري - إلى مدرَّجات البحر، المشرفة - بانحدارٍ شاهق - على حَلَبة الآلهة المخدوعة.

بساتين برتقال إلى اليمين. حظائر من خشب عتيق وصفيح مبنيَّة دون إتقان، إلى اليسار. ماعز يرعى على حواف

أخدود غير عميق، متصدّع الصخر، ذي شروخ طولانية هي ما تبقّى من أبجدية العواصف الكسيرة وتعازيم كاهناتها. الشاب الشاحب يدندن أغنية كالفحيح من وراء ظهر «ميران». بقرٌ يلوح من جنبات الحظائر كسولاً كالنَّدم. قرنان مفتولان يبرزان بين مِزَق الغيم العابر. السماءُ، خلسةً، تنطح بوّابات العوالم بكبشها الخشبي، ذي الجبهة الشبيهة بجبهة كَوْد الجبل، المرسوم على ورق النقد بقبرص. يتبدّد القرنان. يتبدّد الغيمُ العارض. تتبدّد السماء ذاتها، منكشفةً عن كُرَة البحر المتدحرجة على خيال زبدِهِ. عَماءٌ فوق عَماءٍ نبيلٍ. يُرى كلُّ شيء. «الكون فكرةٌ، والخيالُ ظاهرُ وجوده». لم يقرأ «ميران» هذه الكلمات في كتاب مّا، على الأرجح. ما همَّ إنْ كان قرأها. تحسَّسَ نظّارته فمسحها بطرف قميصه الربيعي، وأعادها إلى عينيه يستعرض من وراء إطاريها الرقيقين أحوال المياه، التي يتدلّى منها الأفقُ نازفاً.

دارة قرميدية كبيرة تبرز من وراء كثيب رملي، يتفرَّع في اتجاهها طريق مُمهَّد خاصّ عن الشارع الإسفلتي العامّ. تعرِّج السيارة، بعد تباطؤٍ، صوب تلك الدارة، التي يستلقي البحر أمام ساحتها الشرقية ككلبٍ سلوقيٍّ أزرق. يترجَّل الثلاثة ويمشون إلى البوابة الكبيرة، الحديدية، غير العالية. يدفع أحد الشابين إحدى دفتيها. صريرها خافت. دُهِنَتْ مفاصلها بالزيوت حديثاً، على الأرجح. ثمة ساحة أمامية من الإسمنت، تنبثق من حُفَر دائرية فيها، بإزاء الجدار الأمامي، أشجار بوغانفيلي متشابكة، تتوسَّد غصونَها عناقيدُ من الزهر الأحمر، والبرتقاليّ. لا يتوجّه الشابان إلى باب الدارة، بل يُشيران على «ميران» بسلوك ممرٍّ ظليل، أقرب إلى الظُّلْمة، لصق السور الجنوبي، ارتفعت على جنبيه شبكتان من

الخشب تسلّقهما نبات عريض الورق، كثيف. يتوقّف «ميران» بعد خطوتين. شعاع نحيلٌ، رهيف، أصابَ عينه اليسرى، جانبياً، فتوقّف. عاين مكمنَ الشعاع المباغت فألفاه منعكساً على إطارٍ نحاسيٍّ صقيلٍ، محمول على قوائم من خشب، وسط ساحة الدارة. لا. ليس إطاراً واحداً، بل ثلاثة. كيف لم ينتبه إليها في دخوله إلى الفضاء المعرِّش تحت زهر البوغانفيلي؟ ثلاث مرايا دائرية ضخمة، مرتكزة على حوامل قوسية داكنة اللون، وأمام كل مرآة آلة طولانية، ذات أحشاء من تروسٍ ومُسَنّناتٍ رتيبةِ الحركة.

إنها ساعات. هياكل قديمة لصناعة الوقت على صورة شبابه. مزوَّقة بنقوشٍ لأنْصافِ أشكال، ورموز، وأرقام، تكتملُ إذا تقاطعتِ التروسُ الدائرةُ حول مراكزها، تحت بصر «ميران»، الذي عرَّج عليها حتى طوَّقها بظلّه، في ذلك الغروب المتألّق: «الوقت يتقوَّض، هنا. نحن نرمِّمه»، قال الشاب الشاحب، فيما استعجله الآخرُ المبتسم من غير مبرّر: «تستطيع، يا سيد ميران، أن تتأمل هذه الساعات قدر ما تريد، بعد إنجاز العمل. هيا».

الممرُّ الذي يعبرونه طويل، وواسع أيضاً. شبح يتحرّك في آخره المفتوح على باحة حجرية. رائحة رطوبة قوية تدغدغ رئتي «ميران». يتشمَّم الهواءَ بطريقةٍ مبالَغ في شهيقها المتقطّع. وهو يفعل ذلك، أحياناً، في مداعبتِهِ صديقتَه «فارو»، دائراً بأنفه على محيط سرّتها: «هنا الخدعة الكبيرة، فارو»، فتدلق المرأة البلغارية ثفْلَ القهوة السميك، المترسِّب في فنجانها، تحت السرَّة بقليل: «ما دمتَ قريباً من جلدي، اقرأ لي نجمَ الشيخوخة»، فيوسِّع «ميران» رقعة ثفل القهوة، بأصابعه، على بطنها، ثم يرسم بلسانه خطوطاً متعرِّجة،

صعوداً هبوطاً، فوق الرقعة البنِّيّة، التي يخرُقُها زغبٌ ناعم يتلألأ من لعابه المُحْرِق.

زعم «ميران» لـ«فارو» أنه يحسن قراءة الطالع في ثُفْل القهوة. الرَّشْفةُ الأخيرة تفتحُ ممرّاتٍ في الرَّمل النباتيِّ، المُرِّ، المُحَلَّى. وتتراكم على جدران البورسلين البيضاء - من أثر اندفاع السائل إلى الفم، بإمالةِ الفنجان - جروفٌ ناعمةَ كجروف السيول على سفوحٍ ترابية. كل جُرْفٍ قَدَرٌ؛ وكلّ أخدود، أو ثلْم، أو عرْق نافر، في الثُّفْل، إشراقٌ وظهور. الصّور الناقصةُ للأشكال تلمِّحُ إلى كمال المكنون. الدوائر مرايا. المرآة رقابةُ الجوهر على العبث مرئيّاً. الحقيقة خلاءٌ يعلو الثُّفْل، عادةً، على حواف فوَّهة الفنجان. «إذا تفرَّعتْ عن الشكلِ الواحد هيئاتٌ كثيرة، فارو، فذلك يعني الموت». هكذا علّمها حين أرادت البلغارية أن تجاريه في نَهْبِ المقاطَعاتِ المُحْتَجِبةِ للمعلوم المُحْتَجِب: «انظري، أوّلاً، إلى الكتلة السميكة، الكتيمة، التي لم ترتسم فيها أشكال، أو خطوط، وابدإيْ باستشراف أعماقك أنت، بادئةً بانعكاس كتلة الثُّفْل عليها. كلّما أسرعتِ إلى التأويل كنتِ أقرب إلى توقعاتِ مَن تقرأين طالعَهُ. أنت لا تستحوذين على أمل الشخص الجالس معك، أو مخاوفه، وترقُّبه، وتهيُّبه. ما ينكشف لكلماتك الأولى هو ما ينكشف ليقينه أيضاً. أنتما تتبادلان سحرَ ما حدث في مكانٍ مّا من أمكنة المجابهة المعلنة بين إنسانٍ وتوقُّعاته. إنّ من تقرأين طالعَه، في تلك البرهة الخاطفة من إطلاق الوقيعة الأولى، هو أنتِ، نفْسكِ؛ واسترسالُك - بعدئذ - في كشف المُدَّخر في بواطن الظنّ، والتخمين، والاستشعار، ليس إلّا محاولة لفصل شخصكما الواحد إلى اثنين، من جديد، يا فارو، كما تقتضي المفارقة

القدريّة». ولطالما جذبته «فارو» - بعد استطراداته الطائشة، المتشابكة، التي لا تتابعها، عن نكبات الغيب المتتالية تحت رعود البُنِّ - معتصرَةً ظهيرةَ جسده، وهي تهمس: «ألن تعلّمني قراءةَ المنيِّ، أيضاً؟»، فينقاد «ميران» للجذب، مُمَرَّغاً في الإثم الطاهر، تتدفَّق اللذَّةُ من قلبه حروفاً تتراصف - كمديح المشيئة - على سطور قلبها.

«ميران» يتشمَّم الهواءَ، في الممرِّ الكثيف الظلِّ، بشهيق مُتلاحق: «هذه رائحة دم» يقول للشابّين، ويتلمّس شكلاً معتماً يتدلّى لصق جدار الممرّ، ثم يسحب يده المُجْفَلَةَ من الملمس الطريِّ للكتلة المعلَّقة، في برهةٍ خشنة بين اليقين والشك: «لحم؟!! أهذا لحم؟»، ويصحّح وضع نظارته على ملتقى أنفه بالحاجبين، مقترباً بوجهه من الكتلة التي تنكشف لعينيه بعد تركيز: «ذبيحة!!»، ويستدرك فيعاين جداري الممرِّ، عن يمينه وشماله، فإذا بصفَّين من حيوانات مسلوخة تتدلى من خطاطيف حديد، مكوِّنةً مع الورق المعرِّش على الجهتين ستاراً يزيد الظلَّ ضراوةً وانغلاقاً: «نحن في مسلخ، أليس كذلك؟» يسألُ الشابّين الصامتين، المتباطئين عنْهُ يلحظانه في تورُّد هواجسه المستيقظة. غير أنه يسرِّع خطواته، كأنما سيكون سؤال مثل ذاك أجدى في آخر الممرِّ، حيث شبحُ الشخص الذي لمحه أوَّل دخوله ما يزال منحنياً، في الفضاء القوسيِّ، يجمع حوائجَ في سلَّةٍ ضخمة، عميقة القاع. ولمّا يصير إلى الضياء يدرك أنه بات في الساحة الخلفية للدارة، المرصوفة بحجر رمليٍّ أحمر مرصوص، يمتدُّ كلسان إلى صَحْفة البحر الزَّبدية. ثم يتجمَّد حين يعيرُ الشخصَ ذاكَ التفاتةً تحصره جانبيّاً: «عاطف حامد؟ والله إنك عاطف»، ويتأمل الرجلَ الذي فوجئ بالنداء، فاستقامَ مُرَحِّباً

ترحيباً يُمازحه الدَّهشُ والحَرَج معاً: «سيِّد ميران!!».
ظنَّ «ميران»، لزمن ليس بالطويل، أن الجزّار السوداني غادر قبرص إلى بلاده، لمّا ألفى الدكّان خالياً، معروضاً للإيجار، في المرّات المعدودة لعبوره شارع شجرات الكينا الساهرة على جسر پروذْرُوْموس، فبادره بأوّل سؤال أُوحيَ إلى لسانه: «ألم تغادر هذا البلد؟»، واستدركَ بلاهةَ سؤاله فابتسم: «ما تزال هنا. إنني أراك. لكن ما تفعل هنا؟»، فافترّت شفتا «حامد» عن أسنانه المدخَّنة، وأشار بإيماءة من رأسه إلى أعماق الممرّ: «لحم حلالٌ، ذَبْحُ يدي، على اسم الله».
«لمَن كلّ هذه الذبائح؟ أيحضِّرون لوليمة؟»، قال «ميران»، فهزَّ الرجل الداكن السُّمْرة رأسَه نفياً:
- استهلاك عاديّ. لا ولائم هنا.
نقل «ميران» بصره، تلقائيّاً، إلى باب الدارة الخلفيّ، الخشبيِّ المُعَرّق بنقش لدوائر، كأنما يخترقه ليستطلع ما وراءه: «إنهم كثيرون» أسرَّ لنفسه، قبل أن يتقدَّم الشاب الشاحب فيضمَّ أصابعَه المفرطة في طولها على مقبض الباب الكرويّ الأسود، ويُديره فينفتح.
لم يتمكن «ميران» من معاودة حديثه المجامِل مع الجزّار، إذ حجز بينهما جسدُ الشاب المبتسم ابتسامته الأزلية، الثقيلة، وهو يدعوه، بحركة ممدودة من ذراعه اليسرى، إلى الدخول، فخطا «ميران» داخلاً إلى الضياء القويّ، الذي أعشى بصره لبرهة، ثم ضيّق ما بين أجفانه ليحدِّد الأشكالَ والفراغات.
كان ضوء المغيب البهيّ كافياً، في الأرجح، ليُنير صالةً شاسعة مثل تلك، المطوَّقة بنوافذ كثيرة. لكن، لسبب

استعصى على فهمه، كانت مصابيحُ الكهرباء القوية، الكشّافةَ ذات الزجاج المُضاعَف، تفيض بضيائها العَرِم على المكان من جهاته كلها، على نحوٍ يرقِّقُ الأشكالَ حتى لكأنها أطيافٌ، في جلوسها نصف الدائري على زرابيات برتقالية أشبه بغماماتٍ ذات تخاريم مُشِعَّة.

رجال في ملاءات بيضاء، تنزل من رؤوسهم على أجسامهم الجالسة متربِّعةً. نعم. إنها ملاءات. هكذا خمَّن «ميران». ثلاثة من بينهم بدوا مختلفين باختلاف ما يعتمرونه من لفائف أشبه بالعمامات الرقيقة، ولها لون الكهرمان الأصفر المائل إلى خُضْرَة فوسفورية. كلّ رجل منهم يستأثر بزمرة من الرجال متراصَّة إلى جنبيه، يفصلهم عمّن يجاورونهم فاصلٌ فراغٌ ينتصب فيه زيرٌ صغير من الفخار. لمس أحد الشابّين كتف «ميران»: «اجلسْ هنا، من فضلك»، وأشار إلى بساط مربّع يواجه حلقة الجالسين، فجلس «ميران» مرتبك الحركة، فيما جاراه الشابان متخذين مكانين إلى يمينه ويساره.

رفع الرجال، جميعاً، وجوههم الحليقة إلى «ميران». الضياء القويّ يخفّف، قليلاً، من وقْعِها المتفحّص عليه. شمَلَهم، هو نفْسه، بعينِ الفاحص. الترقّب مُتطابق، قبلِ أن تتهشّم البرهةُ: «من أين نبدأ؟» قال «ميران» بصوتٍ متكلّف، وابتسم للشابين كُلاً بالتفاتةٍ، عسى يُعيناه على تبديد حَرَجه، فإذا الحركة تدبُّ في الرجال، الذين بادروا، فجاءة، إلى فتح دفاتر كبيرة على حجورهم، بيضاء بدورها، لولا ورقُها المصوِّت لظنّهم يقلبون أطرافَ ملاءاتهم من جهة إلى أخرى، وهمهموا بصوت واحد، كأنما يبحث كلّ شخص منهم عن جملة فاتته في سياق قراءة عالية. وانبرتْ في أيديهم الأقلام

الطويلة كأشواك حيوان النّيص ، تترقب برهةَ انقضاصها على سطور البياض.

الرجال الثلاثة ، ذوو العمامات الرقيقة الكهرمانية ، لم يحوزوا دفاتر كالآخرين ، بل كانوا يميلون برقابهم إمالاتٍ مترفّعة ، كلٌّ إلى أقرب شخص في زمرته ، ويُملي عليه. أصابعهم مفرطة في طولها وهم يُشيرون إلى السطور الخفيَّة في دفاتر المدوِّنين.

سمع «ميران» خطوات من خلفه ، اقتربت منه ، ثم حادت عنه. كانت خطوات «حامد» ، الذي جلس على حشيةٍ ، لصق الجدار الغربي ، على مبعدة مترين من محيط الحلقة ، وعيناه على «ميران».

توقفت الأقلام. ارتفعت عن الصحائف البيضاء قبل أن تدوِّن شيئاً.

احتدم الجدل بين الرجال الثلاثة ، ذوي العمامات ، فجاءةً ، امتداداً لما انقطع عند دخول «ميران» ، ربما.

تمتم «ميران» ، ناقلاً وجهه بين الشابّين الجالسيْن إلى جنبيه: «ماذا يتوجَّب عليَّ ؟» قالها متأفِّفاً ، فأشارا عليه بنبرةٍ آمرةٍ: «إصغِ».

يصغي «ميران» إلى صورة الجالسين نصفَ حلقةٍ أمامه ، لا إلى كلماتهم. جدال الرجال الثلاثة صورةٌ ، بدوره. موقف بلا كلمات. هكذا تنطبع شبكةُ الضياء على عقله ، المُشرف ، تلك البرهة ، على الفراغ الذي يرصد الصورَ من ثغرة الهباء الأبويِّ. قد تكون الصورة ، في تأويل «الماهيات العابثة» (بحسب كتاب «تسويات العقل») ، هي الروح. شرطُ الوجود ظهورُه صورةً. العالم صورةٌ حادثةٌ ، والمعنى قِدَمُهُ. المعنى مياه ؛ صورةُ مياه ؛ فَيْضٌ مرئيٍّ يحوزُ الضروراتِ في غلافه

كَلْبٍ الفستق. الروح - كونُها شرطَ ظهورٍ بلا عِلَّةٍ - ظلُّ العالم في بزوغه على المعنى، حين العالمُ وجودٌ في أصل الماهية المنبثقة عن نَفْسِها - نَفْسِ الهيولى. والعالم هيئةٌ، أيْ أن الروح، التي هي ظلُّه، هيئةٌ بدورها.

إذن، الصورةُ - كمقامٍ يعرِّفُ الوجودُ به ماهياته - هي فكرةُ الحقِّ مرئيةً، وما يصدر عن الحقِّ حقٌّ بدوره. وكلمةُ «الحق» تَرِدُ، أحياناً، في «تسويات العقل» مُسْتبدَلَةً بكلمة «الضرورة»، ضمن سياق «الماهيات العابثة»، التي لا تحجم، كمصطلح، عن التصحيف حتّى، إذا رأت في الأمرِ مؤدّى إلى تأويلٍ عريقٍ للعبث في إشكاله الخالد.

الجالسون، نصفَ حلقة، أمام «ميران»، يتسلّلون إلى خياله بلا كلمات؛ يتسلّلون صوراً مُنْجَزَةَ الماهية، من ثغرات الضياء العَرِم، ثم يقتسمون خيالَه على ثلاثة زُمَر، تماماً كجلوسهم في بهو الدارة الواسع، فيما ينقر الشابُّ الشاحب على كتفه: «إبدأ، الآن».

«بِمَ أبدأ؟»، سأله «ميران» باستنكار، فردَّ الشاحب:

- ترجم لكلِّ واحد، من السادة الثلاثة هؤلاء، ما يقول أحدهم للآخر.

فتح «ميران» فمه بحركة ساخرةٍ، ورفع نظّارته عن عينيه يتطلّع إلى الجالسين إمعاناً في إضفاء العبث على مهمته: «كانوا يتجادلون بأصوات مُتداخلة أنَّى لي أن أُتابعها»، وأعاد نظّارته إلى عينيه، محدّقاً في الشاب الشاحب: «أظنّهم تخاطبوا بلغة واحدة؟ أليس كذلك؟».

تمتم الشاب المبتسم، متوجّهاً بكلماته إلى الشاب الشاحب، من وراء رقبة «ميران»: «أعطِهِ فرصةً أخرى».

ساد الصمت. الجالسون نصفَ حلقة ترقّبوا صدور

ترجمةٍ مّا من فم «ميران». تنحنح «ميران». رفع الشابان أصابعهما الطويلة يُخاطبان الجمع بإشارات خرساء، كأنما يرتئيان أن يتناوب السادة الثلاثة على الكلام، كلٌّ على حدة.
تحرَّكت الرؤوس موافقةً.
بدأ أحد الثلاثة مُداخلةً قصيرة، فانكبَّتْ زمرتُه على التدوين. توقَّف، فتوقَّف صريرُ الأقلام.
نشرَ الترقُّبُ جناحيه الغشائيَّيْنِ في الضياء المُكتنز كضروع الجواميس، فصعدت الحيرةُ ضباباً إلى قلب «ميران»: «لم أفهم» قال بصوت خفيض.
زَفَرَ الشابان استياءً، وارتبكا. غطّى على الموقف صوتُ شخص آخر من السادة الثلاثة، لم ينتظر الترجمة المرجوّة، فأطال الخطابَ، فيما التهبت الدفاترُ على حجور زمرته تدويناً في عصف الأقلام ببياضها.
«هذه ليست لغة» تمتم «ميران».
أحْدَثَ «حامد» صوتاً خفيضاً يُلفتُ إليه نظر «ميران»، فتطلَّع الأخيرُ إلى الجزّار، الذي لاح في وجهه قبسٌ من الذُّعر: «قُلْ أيَّ شيء، يا سيد ميران»، وكرّر كلماته بإلحاح. لكنَّ ردّ «ميران» جاء بارداً:
- ماذا؟
تراخى فك الجزّار. أُسقط في يده، على الأرجح. فيما عاد «ميران» يسأله: «ماذا؟ أتريدني أن أقول شيئاً؟ أيَّ شيء؟».
لم ينطق الجزّار. أبعد بصره عن «ميران» دون أن يفارقه ذعرُه الخفيُّ.
كرّر «ميران» جملته الصاخبة، ذات النَّبر الهادئ: «هذه ليست لغة»، ونقَّلَ بصره، شمالاً ويميناً، على الشابّين:

«لماذا جئتما بي؟».

«لا تحتاج الترجمةُ المَكينةُ إلى محترفٍ، بل إلى نَظَرٍ مُحترِفٍ» كان «ميران» يقول لـ«فارو»، في فسحات الوقت التي يتَّفقان فيها على هدنةٍ لأعضائهما المدرَّبة على حروب الشهوة، فيما تؤكد هي له أنه يشبه - حين يتحدث جادّاً - صورةَ شخصٍ مُلْصقة على الجدار الصفيحي لموقف الباص ٢٣، الذي يُقِلُّها إلى سوبر ماركت هاريس، غربي المدينة.

ثيوفيلو يوريادِس اسم الشاب الهادئ الملامح، في المُلصق. اغتيلَ أمام بيته بمسدسٍ مأجورٍ، ثم اغتيلَ صاحبُ المسدس لتضيع آثار المحرِّضين على الجريمة. لكن الرائحةَ كانت قويّة إلى درجة لا تستطيع سماءٌ مديدة على إخفائها، - رائحةَ الاستخبارات التركية، المحمولة من أنقرة على رياح درجة العَرْض ٣٤، إلى الشطر الشمالي المحتل من نيقوسيا.

يظن «ميران»، نفْسُه، أن لأحدهما ملامحَ من الآخر، منذ عرضت شاشة التلفاز صورةً مظلَّلة للمغدور ثيوفيلو. غضب «ميران» يومها؛ غضبَ في حنقٍ جفَّفَ رئتيه فسعل حتى دمعتْ عيناه دون بكاء. لم يتعرَّف إلى هذا الشاب القبرصي، الذي أَلْزَمَ روحَه برسالةٍ كرديّة إلى كل محفل بَلَغَهُ، وحوَّل بيتَه، ومكتَبَه - مكتبَ الصداقة القبرصية الكردية، إلى نشيدِ إيمانٍ صاخب. لكن نبأ مَقْتله، في يومٍ ثلاثاء، جعل يديه تعرقان عرقاً بارداً، ثم عضَّ على مَسْنَد الكَنَبة التي يجلس عليها، كأمره حين وُلِد وهو يعض على الحَبْلِ السُّرِّيِّ. هكذا قيلَ له. وتلك من مزاعم ولادات الكُرْد: كلهم يولدون عاضِّيْنَ - من الغضب - حبالَ سُرَرِهم.

يومٌ ثلاثاء. قرأ «ميران» ترجمة يونانية لفقرات من كتاب

عربي قديم يزعم أن يوم الثلاثاء هو أثقل الأيام، فيه أُوحيَ إلى الجبالِ الظهورُ من مهاجعها الدافئة تحت أثداء **النون**، فانبثقت بكماءَ مزهوَّةً بإشرافها من مقالع الفراغ على الكينونات.

كانت الأرضُ جِرْماً قَلِقَ الهيئة حين خُلِقَت، خفيفةً تضطرب في الدورة المهيبة للمنظومات الكبرى، المستظلَّة بعَرْشِ السديم، فقُضيَ - بحسب الفِقَار المترجمة إلى اليونانية - أن تنبتَّ فيها ركائزُ من ثِقَلٍ عظيمٍ - أوتادٌ تثبِّتُها حيثُ هي من مدارج السماء، فأُلقِيَتْ إليها الجبالُ الثقيلة (والخلافُ كبير بين المُؤَوِّلينَ، بهامش الترجمة، في أن تكون الجبال انبثقت من جِرْمِ الأرض ذاتها، فلها خواصُ الأرض، أم سِيْقَتْ من وراء الكثافات المعلومة إلى مرابضها. والمنظور الثاني، من هذين، فيه ما يوحي بحدوث الجبال قبل حدوث الأرض، لِذا تُميِّزُها هيبةٌ هي - بسبب القِدَم - هيبةُ العَرِيقِ المسكون). وتضيف الترجمة أنَّ في يوم الثلاثاء خلقَ اللهُ المكروه كخاصِّيَّةٍ.

«ميران» مفرط في الجدّيَّة، في موقفه بين أولئك الجالسين نصف حلقة، لذلك لا يشبه ثيوفيلو على الأرجح. ولو كانت «فارو» معه لأقنعته بالتخفيف من تلمُّس نظارته الملتمعة بانعكاس الضياء على إطارها الفضّي. قليل من الجدّية هو كل المطلوب ليشبه صورةَ الملصق، في محطة الباص ٢٣، والكثيرُ منه، كما هو في لحظته تلك، يقلبُهُ ساخراً: «هذه ليست لغة»، فيعيد أحدُ الشابّين الموقفَ، برمَّته، إلى حيث ينبغي في خيال «ميران» المُنكشفِ مشهداً حقيقيّ الأبعادِ: «إنتبهْ. إنك تعيد تكرار ما قاله جدُّكَ «ساكو» أمام هؤلاء السادة الكرام. إنتبهْ، وكُنْ مسؤولاً».

جدُّه «ساكو» ؟. من الفكاهة أن يبحث «ميران» عن معنى للجملة المذبوحة تلك. متى وأين وقف أبو «شريف التراكتور» موقفاً كهذا، وهو الذي لا يتذكر حفيدُه منه إلاّ رَسْماً متشقِّقاً على ورق سميك كالجلد، قيل إنه - أيْ ساكو - كان يحتفظ به، أبداً، في جيبه، فأورثه ابنَه شريف التراكتور، قبل موته السابق لولادة «ميران» بثماني عشرة سنة ؟. **حوت**. رَسْمُ حوتٍ. لا يشبه حوتاً، لكنه حوت. على كل ناظر أن يرى في فراغ الخطوط، التي تكاد تتلاشى، هيئةَ ذلك الحيوان السابح في العماء الأزليّ، حاملاً على قرونه الكثيرة، المتشعبة، سماءَ الأقدار ومراقي الحضورات. و«ساكو» لم يكن اسم الجدِّ الحقيقيَّ، بل لقب التصق به من اقتنائه معطفاً عسكرياً، أوروبيّاً، لم يوثِّقْ أحدٌ في العائلة كيف وصل إليه، وتجرّأ على ارتدائه. ولما كان اسم المعطف «ساكو» بالكردية، فقد لصق به، فيما ذهب المعطفُ هِبَةً من الرجل الشيخ إلى الوافد الغريب الشهرودي اليمني، ضمن ما جمع بعضُ الكرام للرجل وأمّه من متاعٍ يعينهما على الإقامة في تلك الأرض.

لم يَسْعَ «ميران» إلى توضيحٍ من الشابيّن. كيف سمعا بجدِّه، مثلاً ؟. لو أحصى السنين، التي تفصل بين موت جدّه ووقوفه، هو، في مجلس هؤلاء السادة، لأجفلتْهُ الحيرةُ وبلبلتْ بصرَه. من أيّ جيل هم ؟. حريٌّ بهم، إذاً، أن يكونوا أطيافَ أثير، أو هياكلَ تستعير من الضياء القوي ثيابها، وعماماتها الرقيقة. لكنهم يتخاطبون، ويتحركون في مجلسهم. وها هو قد أُحْضِرَ، بنفْسِه، ليتولّى ترجمةً لا يجد ما يعينه عليها من ألسنة الأقوام التي يستظهرُها عقلُهُ: «هذه ليست لغة»، ذلك هو الأرجح. «انهضْ» يقول لنفسه،

وينهض مردِّداً باستياء: «هذه ليست لغة»، ثم يمسك بعضد الشاب الشاحب، متهيِّئاً لعراكٍ لو اقتضى الأمر: «إذا كنتما تعرفان ما يتبادلَهُ أجدادكما، هؤلاء، من اللّغات، فما حاجتكما، إذاً، إلى مترجميْن»؟.

الكلماتُ، في يقينها الثاني: تلك هي الترجمة. الكلماتُ في هيئتها الثانية، متنقِّلَةً بمعناها من صوتٍ ينطقُ بها إلى صوتٍ آخر، ومن تدوينٍ يرسمها على هذا النحو إلى تدوينٍ يستضيفها عى النحو ذاك، تلك هي الترجمة.

الترجمةُ أن تُعيرَ الكلمةُ الواحدةُ المعنَى الواحدَ أقنعتَها كما يرسمها كلُّ خيالٍ بالرَّفاهةِ التي فيه: حروفٌ لا تُحصىٰ، للغات لا تُحصى، تجتمع - مَسُوْقَةً بسوط المعنى وترويضه - كي تشكِّلَ كلمةٌ واحدةٌ ميزانَ مخاطباتٍ عديدة في العالميْن. فكيف لا يُصعَق «ميران» من النداء الهمجيِّ للكلمات وهي تعبِّئ المعنى دفاعاً عن كنزها الغريق؟ لطالَما ردَّدَ هذا التأويلَ على روحه، هازئاً من مهنته العبثية - مهنةِ انتحار الشكل، وانتحار الصوت.

لماذا تتوحَّد الكلماتُ في المعنى، وتتقوَّض في الشكل؟. لماذا كلُّ هذه الأصوات اللامعدودة للنهوض بلفظِ معنى واحدٍ؟. لقد فطنَ «ميران» إلى أنه يشهدُ عذابَ الكلمات مُعَارةً، برفاهية الترجمة، إلى يأسها؛ وأن الكلمات شرودٌ في هول المحنة، وهو يتجرَّأ على اقتحامها، بالتهوُّر المزمن للوجود، في أكثر خلواتها سلاماً، ليستعير منها - رضىً أو اغتصاباً - أملَ المخاطبات الناقصَ، الذي لا ينفكُّ العقلُ عن التحصُّن به احترازاً من مداهمة المُطْلَق ذي الكمالِ اليائس. لكنَّ «ميران»، في حضوره البارد أمام ذلك الجَمْع، يجد بابَ الترجمة مغلقاً. لا كلِمات. صدى مُبْهمٌ لشيءٍ قبْلَ

مُبْهَماً. فجوةٌ كالحيلة. ليس عليه أن يقدّم اعتذاراً حتى. وصل إلى الباب. فتحَهُ: الليل في قلنسوةِ الساحرِ خارجاً. نجوم تتماحك وهي تذرْذِرُ السكونَ من أكياسها القَمريّة. شِعْرٌ متكدِّس بين سطور الظلام. كيف، ومتى غربت الشمس؟. ظنَّ أنه لم يصرف من الوقت إلاّ القليل. أكانت محاورات السادة الثلاثة طويلة إلى هذا الحدّ؟. التفت بوجهه إلى «حامد الإنكليزي» الواقف قرب الجدار بارداً حجرياً في صمته، ملتمعَ البشرة في الضياء المتفجِّر كأنما دهنَها بشحمٍ من عصعص الماعز.

«إنتظر برهةً، يا سيد ميران» قال الشاب الشاحب منادياً بصوت منبسِطٍ، خفيض. وتقدم منه بجذعه المتمايل، فيما شخصت إليه وجوه الجالسين جميعاً من ثغرات الضياء. إنها برهة حاسمة في مهمَّته: هكذا بدا الموقف.

«ترجم هذه الورقةَ، في الأقلّ، يا سيد ميران، قبل خروجك»، قال الشاحب، ومدَّ إليه لِفافةً بيضاء، فتحها «ميران» بطولها الذي يبلغ ثلاثة أشبار، ثم نقَّلَ بصره أفقياً عليها، وعاد فعاينها عمودياً من أعلى إلى أسفل. رفع وجهه عنها مغمض العينين ملتمساً بعضَ المرح كي يصوغ ألفاظه: «يلزمكم أعمى ليترجم هذا البياض»، وطوى الورقةَ، الخالية من أية حروف، أو رموز، أو أشكال، وأعادَها لِفافةً إلى الشاب الشاحب، الذي تناولها بأصابعه المفرطة في طولها، وقد خلت سحنته من أيِّ انفعال، بملامح يخالها الناظرُ لم تكتمل، بَعْدُ، نَحْتاً.

«أهذا دأبُ المترجمينَ مع هذا العقْدِ يا ميران؟»، قال الشاب الآخر، المبتسم ابتسامةَ الفراغ، على نحوٍ فيه استدراجٌ مّا.

«أيّ عقدٍ تعني؟» ، سأله «ميران» وهو يكاد ينقل خطوتَه خارجَ الباب.

«هذا الذي أريناك» ردّ المبتسمُ ، فأشار «ميران» إلى اللفافة الورقيّة في يد الآخر:

- أهذا عقْد؟

«نعم. عقْدُ هؤلاء السادة» ، ردَّ المُبتسمُ ، وفتح أصابع إحدى يديه أمام وجهه يظلِّله ، ربما ، من شلال الضياء المنسكب: «ألك لغة؟» قالها وقد ازدادت ابتسامته كثافةً حتى باتت أشبه بحجاب بينه وبين «ميران» الذي بوغت ، قليلاً ، من السؤال غير المعهود ، لكنَّه ، وقد أحسَّ أن الشاب مسَّ فراغاً راكداً من عقله ، سارع إلى إجابةٍ ظنَّها - بدفاعٍ خاطفٍ من رغبته في تأجيلِ تأمُّلِ السؤال ، أو ملاحظته بتأنٍّ - أنسبَ بلاغةً في البرهة تلك:

- اللغات التي أُتقنُها ، مجتمعةً ، هي لغتي.

«إذن ، لا لغة لك ، يا سيد ميران» ، ردّ المبتسم ، ثم أضاف بعربيَّة ملتبسة اللهجة: «كلَّما كثرت لغات الشخص الواحد تلاشت لغته».

همَّ «ميران» أن يسترسل ، كأن يجرَّ الشابَّ إلى بلاغةٍ متاهيَّةٍ: «الخيال هو اللغة». ربما هي جملة مناسبة ، باستعارتها - مع تحويرٍ - من كُرَّاسته «تسويات العقل»: «الخيال هو الهوية». هكذا هي في الأصل. لكن «ميران» وجد المحاوَرَةَ ساخرةً ، فاستنكف عن الخوض في مزيْدِها. وأزمع على الخروج ، دون أن يسأل نَفْسَه كيف سيُعينها على العودة إلى نيقوسيا ، التي لن تكون بعيدة على أية حال ، قياساً إلى المسافات في جزيرة قبرص الصغيرة. وإذْ خرج بنصفه إلى ظلام الساحة أوقفه ، ثانيةً ، نداءٌ من الشاب الشاحب: «خذ هذا

معك» ، وألقى إليه ، خَطْفاً ، بقُرْصٍ صغير سقط ثقيلاً في راحتيْ «ميران» ، اللتين تلقَّفتاه وقد بوغِتَتَا .

نظر «ميران» إلى القُرص المهشَّم الحواف ، فوجده حجراً آجُرّيًّا ، مُقْتَطَعاً من زِيْرٍ ربما ، أو أصيصِ نباتٍ ، أو جَرَّةٍ . لكن رعشةً مقذوفةً من أحشائه تسرَّبت في عروقه مع الدم وهو يجدُ لقطعةِ الحجر صورةً في ذاكرته ، فيكاد يُسْقِطها من يده ، لأنها شبيهة بتلك التي وجدها محقّقو الشرطة في يد «وهّاب حليم» ، الشاب الذي وُجد أسفل العمارة العالية في شارع شجر الكينا ، حيث كان يسكن الجزار عاطف . ولبرهةٍ خاطفةٍ عبرت شفقَ خياله صورةُ «وهّاب» مثبّتة بدبّوس في أعلى ورقة تقرير الشرطة ، وتحتها أنه بلا عمل ثابت ، لكنه يترجم إلى لغة اليونان أدبياتِ أحزابٍ سياسية كردية تصدر من ألمانيا بأغلبها ، ومن بعض المناطق التركية سِرّاً كمنشورات .

معلومات أخرى كانت تقسم الورقة سطوراً من آلة كاتبة ، مثل مولد «وهاب» مكاناً وتاريخاً ، وبعض علاقاته المعلومة ، لكنها غابت عن الشفق المتماوج لخيال «ميران» ، الذي اندفع إلى الظلام الأمين لليل أيار ، حيث الإرثُ الكونيُّ مقسَّم بالتساوي بين الأفلاك الكبرى والصغرى ، والأبراجُ متدانيةٌ بلا برازخ في الأطلس .

صريرٌ خافتٌ تحمله نسماتٌ رطبة من جهة البحر : إنه قلمُ الهباء يدوِّنُ المعيارَ النوارنيَّ ؛ فيما يتلاشى صدى الكلمات البازلتية ، التي دحرجها الشابُّ الشاحب من وراء «ميران» : «أَعِدْ هذا الحجرَ إلى تاف» .

٤. نزيف القُطْرُب

يتناثر الذهبُ على جسد «ميران» عناقيدَ، وأفعواناتٍ، وتروساً يُغمى على العذوبة في أَلَقِها. خيمةٌ ذهبٌ تحتها يتنفَّس العريُ الذكوريُّ، ويخرج الدمُ عن طوره.

ذات خميس، قبل الظهيرة بقليلٍ، دخلت «فارو» مسكن «ميران» بشعر ذهبيٍّ. غادرته صباحاً، على نعاسٍ ثقيل من سهر الليل في الحانة، بشَعرٍ احتجزَ الظلامَ رهينةً، ثم عادت، بعد ساعات، شقراء متماوجةَ الذؤابات. رفع «ميران» رأسه عن أوراق عليها أختام الشرطة كان يقارنها بأوراق أخرى عليها أختامُ مؤسساتٍ عربية مرخَّصة، ووضع قلم الحبر الجاف جانباً يتأمَّلها. دارت المرأة حول نَفْسها تستعرض، أمام بصره، شمسَ رأسها، وتمتمت: «أنا جائعة».

لحق بها «ميران» إلى المطبخ. اعتصرها من الخلف وهي تمضغ خبزاً عليه زبدة ومربّى جوزٍ أخضر. تحسَّستْهُ بيدها الأخرى، الطليقة، من وراء ردفيها، تحت سرَّته: «أأيقظ شَعري أطفالَك؟» قالت ضاغطةً على صدره بظهرها، فردَّ: «أيقظْتِ الليلَ».

دخلا غرفة النوم يدفع أحدُهما الآخرَ بشفتيه، تمدَّد «ميران»، فغطَّته «فارو» بعاصفة شَعْرها نزولاً من فمه إلى ركبتيه.

أفاق «ميران»، في العاشرة من ذلك اليوم، فلم يجد «فارو» في فراشه. مدَّ يده إلى نظارته الموضوعة على منضدة صغيرة إلى جوار السرير فوقعت قصاصة ورق في يده. قرأ فيها خطَّ صديقته، مكتوباً باليونانية: «سأجعل عروقك تنزف حليباً حين أعود». أعاد نظارته إلى مكانها

فوق المنضدة، واستسلم، من جديد، لنعاسه الساحر.

أربعة أيام قضاها «ميران» في مركز دائرة الهجرة، قبل ذلك التاريخ الذي جرَّدتْهُ «فارو» من ذهبه. أربعة أيام، كل يوم بدورةٍ من الساعات لم يعرف «ميران» مثيلاً لطولها منذ انخراطه في العمل مع الشرطة مترجماً: «إنه ابن قحبة»، كانت هذه أول جملة افتتح بها مسعاه حين استُدعي للوقوف على إفادات لا تُقال إلاّ بالعربية. بالطبع لم يترجم «ميران» ألفاظ تلك المرأة المهتاجة بحذافيرها، لكن الموظفيْن القبرصيين، الموكَّليْن بتدوين إفادتها التقطا كلمة «قحبة» على إلمامٍ بها، مع تحريف الحاء هاءً وغيناً مندمجتين. ضحكا، وضحك «ميران»: «تقول لكم إن ابن الحمامة...»، وعاد يصغي إلى المرأة ذات العينين القلقتين وهي تشرح حقدَها تفاصيلَ متداخلةً لا تقرنها ببرهان: «كلّما أراد ابن القحبة، هذا المدير نصف الأعمى، أن يتخلص من موظَّف يستنجد بكم، أنتم».

- «وما دخل دائرة الهجرة بمشاكل مؤسستكم؟» سألها «ميران» وهو يسمع اتّهامها الصريح للرجلين الموكلين بتدوين إفادتها، ومرافعتها النارية، فردَّت وهي تلتهم عينيه غضباً:

- اسألْهُما.

سيعرف «ميران»، في أيامه الأربعة تلك، أن مدير إحدى المؤسسات العربية أرسل إلى دائرة الهجرة، في فترات متتالية، بأسماء موظفين عنده يدّعي وجود أخطار تتهدَّدهم، وتتهدَّد أمنهم، على نحوٍ لا تفاصيل فيه، فتضطر الجهات المعنية بأمن قبرص وقاطنيها إلى منعهم من العودة في حال خروجهم عبر المطارات، أو الموانئ، بأعذار أمنية ليست

مضطرة إلى الإفصاح عنها، على أية حال. وبالرغم من شكوك تلك الجهات الأمنية في غايات المدير، إلاّ أنها كانت حريصة على أخذ كل «خبر أمنيٍّ» على محمل المصداقية، بسبب النشاطات المقلقة لاستخبارات دول من المنطقة على خصومةٍ قاتلة، وحدوث عمليات دموية، اغتيالاً وتفجيراً، وانتقال الحساسيات السياسية، المتضاربة، المتناحرة، إلى ساحة البلد، المتهاون قليلاً في تسهيل إقامات العرب، والترخيص لشركاتهم المتدفقة، الإعلامية، والمُقَنَّعة.

لم يكن مدير تلك المؤسسة العربية مخوَّلاً طرد أحد من موظفيه، لأن مرجعية توظيفهم كائنة خارج قبرص، وهي تفرض عليه - مثلما عيَّنْته هوَ - وجوهاً ترسلها للعمل في إدارته، فإذا ضاق بأحدٍ من الوافدين عليه عمد إلى أسهل الحيل، وأكثرها نفاذاً، أي «التَّسريبات» الأمنية، التي يظهر مفعولها على الفور. وكان المدير يبدي استغرابه، بحسب وصف تلك المرأة المصدومة، كلَّما حصل ترحيلٌ لموظف عنده، أو رُدَّ من المطار إلى حيث جاء، ويتهدَّد ويتوعَّد، بمبالغة تمثيلية لا تخفى على أحد، أن يبذل كلَّ شيء لتصحيح «خطأ» دوائر الأمن، مستدعياً محامي المؤسسة على عجل، فيعقدان خلوة يخرج، بعدها، المحامي واعداً باجتذاب الملائكة الكروبيِّين، وسحَرةَ المنازل النجمية، ومرايا كاهنات بافوس ذوات الأذناب، وقلوعَ رياح المرجان، واللوحَ الثالث عشر، المحفوظ تحت كَمأةِ البرق، كي يبدد الأستار عن خفايا الدواهي المفاجئة، ومصائر المرحَّلين من الناس والممنوعين من ولوج المطار إلى رحابة الحقيقة الأرضية.

أنصتت دائرة الهجرة ، بأذنها الخفية ، إلى الأنين المكتوم للذين لا حول لهم في مقارعة مديرٍ لا يخضع لرقابة من رئيس أو حسيب ، فباتت تستدعي زوجات الذين شملتهم إجراءات التحوُّط الأمني ، اللواتي ينتظرن ريثما تستقرُّ الأمور بأزواجهن في مكان آخر ، فيلحقن بهم. وأُفرِدَ لمرافعاتهنَّ المتأخرة بعضُ الأضابير ، فامتلأت باتهامات النساء للمدير نصف الأعمى ، الذي - بحسب أقوالهن - أثرى في سنين قليلة من بنود الصرف على خدمات وهمية ، ومطبوعات وهمية ، ومراسلين إعلاميين وهميين ، ومكافآت وهمية لم يتلقَّ موظفوه منها شيئاً ، واستجلاب تعويضات لموظفين قبارصة وهميين (وهو مجال التوظيف الوحيد الذي بقي في منأى من تعيينات المرجعية الخارجية) جرى صرفهم من الخدمة بعد سِني عمل وهمية. إضافة إلى الفوائد المالية المصرفية على الأموال المحوَّلة باسمه من الخارج ، حيث كان يعمد إلى تأخير سحبها تأخيراً متمادياً بتأجيل يكاد يبلغ الشهرَ ، أحياناً ، في دفع الأجور ، ومصاريف الخدمات التي يوفّرها عملاء المؤسسة المحليون. وبالطبع لم تخلُ الأضابير من شهادات غير مدعومة بأسانيد ملموسة ، لكنها مثقلة بطبقات من القَسَم تكفي لتدخُّلِ الغيب بثقله إلى جانبها ، ومنها أن المدير نصف الأعمى يشتري عقارات كبيرة في لبنان باسم زوجته وأولاده ؛ وودائعه المالية تجاوزُ قبرصَ إلى اليونان ، ودول أخرى ؛ وأن عشيقته الموظَّفة ، التي لا تجيد أية لغة إلاّ الصمت ، المرفهة بالهدايا ، وبمخصَّص من مال المؤسسة ، تستخدم المطبخ الخاص بالموظفين لإعداد مأكولاتها في ساعات الدوام ؛ وأن أدراج مكتبها تحوَّلت ، يوماً بعد آخر ، إلى مستودع للتوابل ،

والثوم، والسكاكين، والأرزّ، واللوبياء الجافة، والذُّرة، والزيت النباتي، ودقيق صناعة الحلوى، والسكَّر، ومساحيق التجميل، والأمشاط، وأصباغ الأحذية، وبعض الملابس الداخلية، وهي تغلق على نفسها باب مكتبها، فيما ينبغي أن يبقى مفتوحاً لتردّ على استفسار الزائرين كسكرتيرة وعاملة هاتف، وإذا سأل أيُّما شخص من الخارج، هاتفياً، عن موظّفٍ، فردُّها الدائم أنه غير موجود، وتغلق السمّاعة من فورها. فإذا أعاد الشخصُ اتّصاله مراراً، بإلحاح العارف ان الموظّف المطلوب موجود في المكتب، ردّت عليه بانكليزية مفرطة في ركاكتها: «تعال. ابحث عنه بنفسك».

الموظفون، في المؤسسة العربية تلك، يتولّون، بأنفسهم، تدبير الخدمات عبر الهاتف. ويتصرّفون على أن عشيقة المدير، المغسولة بصباغٍ ذهبيٍّ حتى عانتها، غير موجودة. «مهمتها واضحة» تقول شهادات النساء المطعونات. ويضفْنَ حتى على تلك المهمة الواضحة شكوك السخرية المُرَّة: «أيعرف المدير نصف الأعمى أين يوجِّه إحليله؟. ابن القحبة جاء إلى هذه الجزيرة بجِلْدٍ أكْمَدَ، داكنٍ، مغبرٍّ من السَّقَم ورثاثة الحال، فغدا أبيض البشرة من كثرة الشحم الذي طفح تحت جلده بنعمة الأطعمة الغالية، يا للَّقيط». وتحفل الأضابير بأخبار عن أربعة سائقين قبارصة صرفتهم زوجة المدير نفسها، لأن المساكين لم يستطيعوا التوفيق، بالسرعة القصوى، بين مهمّاتهم في خدمة المؤسسة وخدمة المرأة الحديثة الجاه، التي تحفظ عن المُستخدمين فكرةً واحدة لا تتجاوز أن زوجها اشترى أولئك السائقين، بيقين كامل. وفي الأيام التي تكون سيارة المؤسسة خاضعةً لترميمٍ، أو كشفٍ ميكانيكي على قلبها

المسلول، أو خامدةً من نوبة تمرُّدٍ مفاجئة، أو خرجت عن طورها كآلةٍ إلى كائن مجدِّفٍ، فإنما تطلب المرأةُ من أيِّما سائق أن يأتيها بمستلزمات طبخها اليومي من سوبرماركت معروفة بأسعارها... المتهاودة، أقصى شرقي المدينة، باستخدام سيارة أجرة في الذهاب والإياب تدفع المؤسسة، ضمن مصاريفها، فاتورةَ الأكلاف. وتُقْسِم النساء المطعونات، اللواتي أدْلَين بشهاداتهن المشوية في حرائق قلوبهنَّ، أن ما توفِّرهُ المرأة من فرق الأسعار على مشترياتها من تلك السوبرماركت قد لا يجاوز دولاراً واحداً، فيما تدفع المؤسسة لسيارة الأجرة عشرة دولارات.

حرائق الذهب فوق جسد «ميران». موازين الحمّى مثقلة بالقُبل. فم «فارو» كشّافُها الطائش، يقلب كل آجُرَّةٍ في فِناء الرغبة كي يستجمع حروفَ الخَلْق الناقصةَ في سطر التدوين. ذهاب وإياب بين الرأس والفخذين حيث الدّمُ عاصفاً يجادلُ الدّمَ. الينابيع تتبادل سَهَرَها، المرايا تتبادل سَهَرَها. خليَّةُ الأزل الزرقاء تتدحرجُ في الدفق الحيِّ: يهدأُ **النون.**

رذاذ مطر في الخارج ينتهك ثقةَ أيار بشمسه، والأرجح أن «فارو» رفعت حقيبة يدها فوق رأسها، حين نزلت من سيارة الأجرة مهرولةً إلى داخلِ البيت، ذلك اليوم الذي وهبَها الذهبُ شرارةَ معدنه المُعَذَّب. ولمّا فصل الفراغُ بينها وبين «ميران»، إثْرَ نَهْشٍ عذب للمباهج على رقعة جسديهما، سألته نصف لاهثة: «أما يزال حَجَرُك يتنفَّسُ؟».

استقرَّ الحجرُ الآجُرّيُّ، الذي عاد به «ميران» من مهمَّته إلى ترجمةٍ لم تحدثْ، فوق الرفّ الثاني من مكتبته المتطاولة قرب باب المطبخ، موضوعاً إلى جوار كتاب

«الجِمَال المغوليّة» ، الإنكليزي اللغة ، الذي تفوح منه روائح السهوب ، وتتململ فيه منامات أباطرةٍ تتجلّى فيها أقدارُهم ، وأقدارُ سلالاتهم. جِمال ذوات سنامين لكل منها ، ووبر طويل كلبدة الأسد. جلودها ، حين تُكْشَطُ وترقَّقُ بشفرات الحديد ، هي الأثيرة لدى مدوِّني سِيَر العاشقين. ويختار الشعراءُ جلدَ إحليل الجمل الفحل لقريضٍ فَحْلٍ ، مهيبِ اللفظ على أغراضِ المديح ، والوصف. أمّا غلاف خصيتيه فيُتَّخذُ نعلاً للفتاة في أوَّل حيضٍ ، فيُخاط جلدُ الخصية إلى جلد القدم ، من عُرْقُوبه ، فلا تخلعه الأنثى أبداً ، تخطو به من القبر إلى نهر المغول العظيم ، في الشروق الثاني للعدم.
والجِمال المغولية ، بحسب استقصاءات رحَّالةٍ اختصوا باقتفاء مناماتِ أصحاب الخانات وتدوينها ، تَفْضُل الجِمالَ الأفريقيةَ ، وتمتاز عليها بخاصيّة الحلم. ولطالما وجد راكب أحد تلك الجِمال ، في الرحلات الطويلة ، نَفْسَه في حُلْم جَمله ، ووجد الجَمَلُ نَفْسَه في حلم راكبه. فيعرف الرجلُ ، بإلهامٍ غامض ، أين سيقف جمله برهةً يستذكرُ عبورَه من المكانَ ذاته ، في وقت ماض ، وأين قضم رزمةً من العشب نبتت في أرضٍ عَلَتْها الخيامُ. ويعرفُ الجَملُ ، بإلهامٍ غامض ، خيالاتٍ تعبر قلبَ راكبه فيغمض عينيه كي يستبقيها. وببعض التعميم يجزم أولئك الرحالة ، أنفسهم ، أن انجذاب حيوان إلى حيوان ، واهتداؤه إليه على بُعْد المسافة بينهما ، هما حاصل اهتداءٍ في الحلم أصلاً: يحدِّدُ واحدهما ، في حلمه ، معالمَ المكان الذي هو فيه ، فيتتبَّع الثاني تلكَ المعالمَ ، في حلمه هو ، إلى محظيِّهِ إن كان ذكراً ، أو محظيَّته إن كانت أنثى.
كلُّ ما في الأمر أنهما يؤكدان ، في الواقع الظاهر ،

لقاءَهما الذي حصل فعلاً، من قبل، في باطِنَيْ حقيقتيهما الشفيفتين. وما يُقال عن الانجذاب بالرائحة مَحْضاً، بحسب ذلك الزعم الذَّلق، لا يصدر عن درايةٍ حقَّةٍ بمكنونات اللَّطائِفِ الحيَّةِ، التي بضمنها الحيوانُ، والغيمُ، والغبار. وهذا الترتيب يرِدُ في ذِكْر «الموازين» ومراتبها في مصنّفات المناطِقَة، الذين أوقفوا علومَهم على «المثاقيل والأوزان»، الواقعية منها والاعتبارية، الواردة أسماؤها في فهرست «تسويات العقل» نَفْسه. ومن تلك الموازين يعرف «ميران» - مسترشداً برسمٍ توضيحي ألْصَقَه على جدار خزانة الثياب، من الداخل - ما تُسمّى «موازين العدل»، وهي الجسد، والرغبة، والجنون، والأزل. وقد استثنى «علمُ الفرضيات»، من هذا الترتيب، معنى الأبد، لأنه يتضمن مصادرةَ الحاضر، واليقين، بشكلٍ عسفيٍّ.

قرب «الجِمال المغولية»، إذاً، يستلقي حجرُ «ميران» الأملس، متنفِّساً، بحسب ما زعم على مسامع «فارو»، مع تأكيدات يحار في إثباتها: «أصغيتُ إلى كل شيء في هذا البيت، من فرن الغاز إلى بالوعات المياه، حتى اهتديت إلى المصدر. حين أقرأ، تحديداً، أسمع لهاثاً مّا يا فارو». ولمّا حاول البرهان على ذلك، في حضورها، وعمد إلى القراءة، لم يسمع شيئاً. غير أنه كرر الأمر، وحيداً. فعاد الحجر إلى تنفُّسه: «ماذا أفعل، يا فارو؟ إنه يخذلني في حضورك». وها هو، في ذلك اليوم الذي سكبت فيه «فارو» على جسده أنوثةَ الذهب، يسمع أنفاس الحجر متعاليةً، من وراء الجدار الفاصل بين غرفة النوم والمطبخ، تتساوق، في شهيقها وزفيرها، مع أنفاسه هو، حين تراخى قرب أنثاه فارغَ الكيان من أية كثافة، بعدما استنفدَ خاصّيَّةَ الذَّكَر فيه، وتحرَّرَ

من جاذبِ الموت، الذي يجعل المنيَّ مبايعةً من مبايعات الألم للحقيقة.

كان المطر، في الخارج، متردّداً في ضبط إيقاعه. يضرب مسطبةَ النافذة الحجرية حيناً، والزجاجَ حيناً آخر، بحسب عزفِ الريح الخفيفة عليه: «إنه يتنفَّس، الآن»، قال «ميران» وهو يتحسَّس بإحدى راحتيه صدر «فارو»: «مثلُك»، فرفعت «فارو» جذعها مستقرَّةً، جُلوساً، على طرف السرير، وأشعلت لفافة تبغ، ثم مالت عليه فنفخت الدخان على عانته: «ربما هاج حجرُكَ وهو يسمع وَهْوَهَاتِنا».

تمطّى «ميران». جلس ضامّاً فخذيه العاريتين إلى صدره وقد طوَّقهما بذراعيه: «هاتي نَفَساً يا فارو»، قال، فحملت المرأةُ لفافتَها المشتعلةَ، بأناملها، إلى شفتيه. سَحَبَ نَفَساً قوياً من اللفافة ملء رئتيه، ثم أفرغهما على مهلٍ:

- ما الذي يخيفك أكثر، يا فارو: الموت أم القبر؟

مشَّطت المرأةُ شعرها الذهبيّ بأصابع يدها، وتأمّلتْهُ بطرف عينها اليسرى، الساخرة:

- أيفتتح الأكرادُ يومَهم بأسئلة جميلة كهذه؟

«لو جعلوا القبرَ محتملاً، في الأقل، بانتظار القيامة؛ لو وفّروا فيه ترفيهاً خفيفاً» قال «ميران» بنبرة تنمُّ عن صياغة مُبَلْبَلة لفكرةٍ مُبَلْبَلة، لها طابع الثرثرة، فقرَّبت «فارو» لفافةَ التبغ من شفتيه: «خُذْ نَفَساً»، قالت، وأردفت فيما هو يمتص العقبَ القطنيَّ للفافتها: «من هم، حبيبي، أولئك الذين يجعلون القبرَ لامحتملاً؟».

«كلهم» ردَّ «ميران»، ونهض عن السرير يجمع ثيابه الداخلية المبعثرة، متمتماً دون أن يبلغ صوتُه مَسْمَع «فارو» بوضوح: «حياة مخيفة، وآخرة مخيفة، وبينهما قبر مخيف.

ألا يرتاحون من تصنيع الخوف النقيِّ ؟» ، وأمسك ، فجاءة ، بقرطٍ في أذن «فارو» اليسرى : «خوف من عيار هذا الذهب» .
ابتسم وقد رآها أجفلت قليلاً من حركته ، ثم ضحك : «كم عيار الذهب في هذا القرط ؟» .
«لا أعرف» ردّت «فارو» .
ليلاً ، حين اتخذ «ميران» مقعده العالي ، في الزاوية المكوَّنة من التقاء مسطبة الحانة الخشبية بالجدار الشمالي ، لم يتوقف عن صياغة فكرته المملَّة لـ «فارو» حيناً ، ولـ «ماريانا» ، صاحبة الحانة حيناً آخر ، بحسب الوقت الشاغر بين تقديم طلبات الشاربين إليهم ، أو ممازحتهم في وليمة القَنْصِ المُعْلَنة . لكن بعض المفردات كانت تخذله ، وتأبى انتقالاً إلى قناعها اليوناني ، فيذكرها بالعربية : «السّدرة . شجرة السدرة» ؛ «شجرة الزقوم» . شجرتان ، وخلاف ضئيل في صفاتهما : الأولى بجذور في زعفران النعيم ، والثانية بجذور في سجّيل الجحيم . والقبر مُعَلَّق بينهما كسرير : «ثلاث وثلاثون درجة على صفيحة الاسطرلاب العربي ، يا فارو . حرِّكي شظيةَ الاسطرلاب يميناً تسع درجات بحسب الترقيم الغباريِّ . حاصلُ الفراغ هو حاصل القبر . الزاوية المتشكّلة على المقياس هي زاوية القبر . أتعرفين الأرقام الغبارية يا ماريانا ؟ أسمعت بالأرقام الغبارية ؟ وجدوا لها معادلاً بالحرف اللاتيني . لكل رقم حرف . لماذا هي غباريّة ؟ . أنا آسف . شرحت الأمر على نحوٍ مقلوب : الأرقام الغبارية هي حروف عربية وليست أرقاماً . لكنهم أطلقوا عليها تسميتَها هكذا . وقد عالجها العلماء المتأخرون فاستبدلوا الحروفَ بما يعادلها من أرقام ، بانطلاق من أن كل حرف يتضمن في ذاته مقاديرَ من الزوايا . ولمّا كانت

«الزاويةُ» إدراكاً باطنياً محضاً، وصناعةً من صناعات الحدس أبعدَ من مزاعم الهندسة وقياساتها، فقد أُدْرِجَتْ ضمن «التقدير التأمُّلي» في مذاهب الفكر، حيث يخمِّن كل «متأمِّلٍ» القيمةَ الفعلية لـ«الزاوية» بما يعدلها من أرقام، وحاصل مجموع الزوايا، في حرف مّا، هو منتهى المعنى الذي «تليه غيبوبةُ اللغة. أتعرفين ما تعنيه غيبوبة اللغة يا ماريانا؟. أين إيونا؟».

«في إجازة» ردَّت صاحبة الحانة، وأضافت نافثةً دخاناً منكسراً من فمها: «ستتزوج».

«تتزوَّج؟ أبقي لها فَرْج؟» همس «ميران» بخبث، فردّت «ماريانا»:

«لديها بقيةٌ ستتعهَّدها الأممُ المتحدة بالعناية الأمنية الكافية. قد ينمو من جديد، كاملاً»، وسعلت ضاحكة.

«ستتزوج مايك، جنديَّ الأمم المتحدة، الكنديَّ، إذاً»، قال «ميران» وهو يَهْرشُ شعره هَرْشاً خشناً، فهزت «ماريانا» رأسها وثدييها معاً:

- لا. ستتزوج آمِرَ مايكْ، الضابط مالون.

«واوو» تمتم «ميران» بنبرة إعجاب. هزَّ رأسه يطردُ عنه قبراً يحوِّم مثل ذبابة. هزَّ فكرتَه في فراغها: «هاتي قبلة» قال لـ«ماريانا»، فعابثته مقدِّمة إليه ظاهرَ يدها. قبَّل «ميران» تلك اليدَ الممتلئة: «ما الذي يخيفك أكثر يا ماريانا، الموت أم القبر؟»، سألها.

«لا هذا، ولا ذاك»، ردّت المرأة المتبرِّجة بفرشاةِ الضوء الخافت، وقرّبت رأسها من رأسه:

- يخيفني أكثر منهما معاً أن تُهْجَرَ هذه الحانة.

«لا يفرغُ مكانٌ مثل هذا، في موقعٍ محدّد بقياسٍ

سماويٍّ، يا ماريانا»، قال «ميران»، وتناول قَلَماً من جيب سترته الربيعية، ثم فرش أمامه منديلاً من الورق الخشن: «سأحدّد لكِ موقع السماء وفق مركز الحانة. انظري»، فأراحت «ماريانا» رأسها على راحة يدها، متكئة بمَرفقها على المسطبة: «السماء ليست في حاجة إلى تحديد موقعها»، قالت وهي تنفخ دخاناً على قلم «ميران»، الذي رفع رأسه عن الورقة متصنِّعاً دَهَشاً: «الأكراد لا يعرفون موقع السماء. شعوب أخرى لا تعرف موقعها، وهم يشكّكون في إمكان تحديد موقع الكُرة الأرضية، أيضاً».

بَدَتْ «ماريانا» منشغلة عن ثرثرة «ميران» حين غفل عنها برهةً، إذ كانت تعاين خمسةً دخلوا في خجل ظاهر، هادئين، واتخذوا مجلسهم حول طاولة هرولت إليها «فارو» بفخاخٍ من الترحيب منصوبة بين ثدييها المهرولين بدورهما. ابتسم «ميران»، مدّ يده إلى علبة تبغ «ماريانا» متمتماً: «أقسم أن هذه المرأة سترتدي الشادور ذات يوم» مومئاً برأسه صوب «فارو»، فضحكت صاحبة الحانة.

عاد «ميران» إلى قلمه وورقته. رسم دائرةً: «هنا صفيحة الاسطرلاب. هنا عنكبوت الاسطرلاب. سأحدّد أقاليمَ الأرض السبعة وفق «الميل الكلّيّ» القديم، وسأتخذ الحانة هذه مركزاً على القرص الحديدي هذا»، وضرب الورقةَ برأس القلم المدبَّب: «أسمعتِ رنينِ الحديد، يا ماريانا؟. هذا القرص، الذي رسمْتُه حديديٌّ»، وشدَّ يدَها حتى لامستِ الورقةَ: «تحسَّسي هنا. تحسَّسي النورَ الحجريَّ للقبر».

«أنت تعرق» قالت «ماريانا» وهي تلمس جبينه براحةٍ فيها ظلٌّ نسيتْهُ الأمومةُ الضائعة، فردَّ «ميران»، وهو يلمس جبينه، بدوره: «نعم. هذا المطر المفاجئ، المتواصل، سيصيبني

بالزكام». ثم ضغط براحته على راحتها الثابتة تحت غرَّة شعره: «حين تخبرين شخصاً مقرَّباً منكِ بسرٍّ مّا، تكون لديكِ رغبة دفينة في أن يخونكِ»، قال.

لم يبدُ على صاحبة الحانة أنها فهمت إسراف «ميران» في عرض تورياته المضطربة، لكنها ردَّت بتلقائية: «لا أسرار عندي. الحمد لله».

هز «ميران» رأسه موافقاً: «ذلك أفضل. ذلك أفضل، حقاً»، والتفت ينظر إلى «فارو»، التي تنحني من فوق أكتاف أولئك الخمسة وهي تقدِّم زجاجات الجعة، فيكاد لحم ثدييها أن يندلق فيملأ كؤوسَهم الفارغة.

«لماذا لا ترتمي فوق المنضدة كي يأكلوها؟»، قال «ميران».

أومض برقٌ ذو قرونٍ ذهبية من وراء نافذة الحانة؛ فارتعش الضوءُ الكهربيُّ في الداخل.

«هذه جملةٌ شفيفة يُكتبُ بها حُلمٌ شفيف» عقَّب «ميران» على عناق الضوئين.

أومض البرق من جديد، ثم انسكب الرعد من أباريق الأرض الفخَّارية. تسع عشرة امرأة أُضِئْنَ في ذلك الوميض، جالسات على زرابية طويلة فوق الحصى الناعم بأرض الساحة، وكلُّهن عاكفات على تطريز النسيج المشدود داخل إطارات دائرية من الخشب، استقرت على حجورهن. أم «ميران» تغني غناء خافتاً، وضرَّتُها الصغيرةُ، حبيبةُ شريف التراكتور، تجدلُ شَعْرَها جانبياً. رائحة الكبريت النفَّاذة تعبر أنوفهنّ آتية من البحيرة الطافحة بالفيروز. شريف يدخل ساحة بيته حاملاً صاجاً جديداً من تلك التي تجرُّها المحاريث الآلية. الصّاجُ مشروح وصدِئ. لا تتوقف أم

«ميران» عن غنائها الخافت. لا تتوقّف إِبَرُ التطريز، والخيوطُ الصاعدةُ الهابطةُ في اختراقِها الملوَّنِ للنسيج الأبيض. أجزاءُ الأَشكال تتراصف ببطءٍ، ولكن بثقةٍ. السديمُ يتفتَّح عن تويج المياه. قرونٌ تبرز عاليةً، قرونٌ من المرجان. صليلُ أصداف وراء الحجاب. هرطقةٌ من نورٍ.

النساء يتوقّفن عن التطريز، متأمّلاتٍ نسيجَهنَّ في إطاراتها باعتزازٍ ذكوريٍّ: إنَّه **النون**.

مسح «ميران» رقبته بمنديلٍ ورقيٍّ. عرقٌ بارد: «خففوا جلبةَ أصواتكم يا أولاد آدم» قالها منتَهِراً، بانفعال مُحْتَقِنٍ، واستدار على كرسيّه العالي يواجه أولئك الشبّان الخمسة، الذين تحوِّم «فارو» حول منضدتهم بظلِّها القنّاص، فبوغتوا. جمدوا برهةً، ثم اتخذت أساريرُهم صورةَ اعتذارٍ تجلّى واضحاً أكثر في عيونهم. تمتم أحدهم بالعربية التي حادثهم بها «ميران»: «ليس قصْدُنا أن نزعج أحداً، أيها الأخ». كانت نبرة الخجل قوية في كلماته. أحسّ «ميران» بوطأة انفعاله غير المبرَّر، فحاول تدارك البلبلة. تشمَّمَ لهجتَهم:

- أأنتم من اللاذقية؟

«من طرطوس»، ردّ أحدهم.

تخفّف الهواءُ الراكدُ من ثقله. عمَّ شيءٌ أليف.

«كنتُ أكلِّم المطرَ» قال «ميران» باعتذارٍ مَرِحٍ، فرفعوا كؤوس الجعة:

- نخب المطر.

«أنتم عمّال بناء. عرفت من حديثكم» قال «ميران»، فغمغموا مؤكّدين ما يقول، فيما استرسل هُوَ: «مهنة شاقة. إسمنت، وصقّالات، وسلالم، وجبّالةٌ تدوِّخ الروح بصوت محرِّكها».

«لا. لا» قاطعه أحدهم بلطفٍ متماد من حركات يديه المتضرّعتين: «نحن عمّال رخام، وبورسلين. نزيّن مداخل البيوت وحمّاماتها».

«جميل. مهنتكم فنّيّة» عقَّب «ميران» مُجاملاً. رفع كأسَه في اتجاههم: «نخبكم. ليت لي بيتاً أُزيِّن جدرانه بالحجر، بالحجر الرخام»، فأبدى أحد الخمسة اعتراضاً: «الرخام ليس حجراً» قال. وحيٌّ بسيطٌ ألهمَهُ مَلَكة الفرق بين الرخام والحجر. ابتسم «ميران»: «كما تشاء» ردَّ، ثم كرّر الكلمات: «كما تشاء. الرخام ليس حجراً. البورسلين ليس حجراً. سأرصف قلبي، على الأرجح، بالبورسلين».

أعجبتهم الدُّعابة. تبادلوا نظرات منشرحة، ثم تجرّأوا على مبادلته أسئلةً بأسئلةٍ:

- عفواً، ما اسمك؟
- ميران.
- من أين أنت؟
- من «رأس العين».
- منذ متى... كيف...

انفجر صوت مغنٍّ كئيب، يتصنَّع فَرَحاً في كلمات مذبوحة تحت ضربات البوزوكي. الآلة الضخمة، ذات الأزرار، والثقوب الخاصة بسقوط قِطع النقد المعدنية، تجشَّأت فجاءةً، حين أدارتها أنامل جندي من قوات الأمم المتحدة، وقد اختار ذلك المغنيَ اليونانيَّ تودُّداً إلى ماريانا، على الأرجح. تقدَّم منها وقبَّلها على وجنتها، ثم عاد إلى صاحبيه الجالسين على كرسيين عاليين، قريبين من باب الحانة. أطلق «ميران» شتيمةً بالكردية. رفع كأسه نخب الشبان الخمسة: «هذه أوّل مرة تدخلون حانةً..» قال.

تبادلوا نظرات مبتسمةً. أعجبتهم فِراسَتُه.

ضرب المطرُ بقوَّة على الشبَّاك القريب من «ميران». الريح التي ظلت وقورةً، منذ أيام، أيقظتْ حدّاديها، ورماةَ منجنيقاتها، وقرَّاءَ ألواحها الغاضبين. نشيجٌ خافت تسرَّب من تحت باب الحانة الزجاجيّ المسدلة ستائره السميكة، صاعداً من حنجرة الرصيف. دخلت «ماريشكا» الروسية، التي تسمّي نفسها «ميكي»: «ماذا يجري في الساحة؟» قالت بانكليزية سحريَّةٍ سبقتْها إلى فضاء الفردوس النائم، ثم خلعت معطفها ذا الفرو الأشعث، الخشن، المصنوع من ألياف جوز الهند، على الأرجح، وعلَّقتْهُ إلى مشجبٍ، مسرعةَ الخطو صوب الفراغ الذي ينتظرها خلف مسطبة الحانة.

«تأخّرتِ» قالت «ماريانا» دون أن تنظر إليها، فردّت «ميكي»، المنضمّة إلى فريق الساقيات قبل بضعة أسابع: «وصلت أُمي مِنْ...» فقاطعتها صاحبة الحانة بصوتٍ هادئ: «أمّك، أم زبون دَسِمٌ؟».

تجاهلت «ماريشكا» ذلك التعليق، لكنها عادت إلى إبداءِ استغرابها، الذي رافقَ دخولها: «ماذا يجري في الساحة؟»، مشيرة، بالطبع، إلى الساحة الدائرية أمام فناء الحانة، التي تتفرَّع منها بضعة أزقّة إلى عمق منطقة ليدرا القديمة، وتقوم على محيطها عمالقةٌ من شجر الفيكوس.

لم تُبدِ ماريانا رغبة في الذهاب إلى باب الحانة لتستطلع الساحةَ، وقد وفَّرت على نَفْسها دورةً مِن وراء المسطبة في اتجاه الشبّاك، فنادتْ «ميران»: «هلاّ تطلّعْتَ أنتَ؟»، فنزل «ميران» عن كرسيِّه العالي ذي القوائم الثلاث، ثم أزاح ستارةَ النافذة، وظلَّل الزجاجَ براحة يده اليسرى كي يتمكن من

معاينة الأشكال خلف غشاء المطر.

«أثمَّة أنثى تتعرّى؟»، قالت ماريانا وقد استرعاها استغراق «ميران» في النظر، لا يتحرَّك ولا ينبس ببنت شفة. فلمّا ظل على حاله دقَّت بعقب زجاجة في يدها على خشب المسطبة: «هيْه... أيبِسَت عظامُك؟ حرِّكها، حرِّكْ ذيلك»، فارتدَّ «ميران» عن النافذة ببطء شديد، جامد الوجه، وتوجّه صوب باب الحانة. فتحه، وانسلَّ خارجاً، ثم مشى لصق الحائط، محتمياً بالشرفة الطويلة، الموازية للرصيف من طبقة المبنى الثانية، التي لا ثالث لها، بل يعلوها القرميد الذابل في شيخوخته.

استقرَّ «ميران» قرب زاوية الحانة المتقاطعة مع أحد الزقاقات، في النقطة الأقرب إلى ذلك الحشد الواقع تحت شجرات الفيكوس، مبتلاً بضياء المصابيح الثلاثة العالية، وبالمطر، والظلال المرتجفة المسكونة منذ العدم الثاني. الثياب البيضاء الطويلة ملتصقة بالجذوع الآدمية. لا تبين الرؤوس تماماً، لكنها موجودة فوق الأكتاف، تحت الملاءات. إنهم هم؛ إنهم الذين التقاهم في المنزل المجاور للبحر؛ ويستطيع، ببعض التحديق، أن يميّز الرجال الثلاثة، ذوي العمامات الصفراء.

هادئون في الريح العابثة، وأمامهم، على بُعْدِ خطوات، تنتصب المرايا الدائرية الثلاث، والساعات ذاتها، على قوائم نحيلة من خشبٍ يلتمع التماعاً مترقرقاً، كأنما يذوب صاعداً من أسفل إلى أعلى بانسكاب المطر عليه عضّاً ولَثْماً. وليس ثمَّةَ ما يدلّ على خطوة أخرى هم مقدمون عليها غير الوقوف هكذا، مغسولِيْنَ حتى عظامهم، يتأمَّلون آلات الوقت مبذولةً لكمالها الماجن، والمرايا التي تتجرَّد فيها

الأشكالُ، تحت المطر، من المواثيق الكبرى للكينونة. لكنَّ ثلاثة رجال انفصلوا، بغتةً، عن المجموعات المتجاورة على نحوٍ قوسيٍّ، وهرعوا إلى عمود إنارةٍ حديديٍّ من تلك الأعمدة ذات الفاكهة النورانية في الساحة، ثم التموا في شلّال الضوءِ متقاربيْنَ، يفتحون دفاترَ كبيرةً بين أيديهم، ويوسِّدونها أذرعهم اليسرى، مُنكبِّيْنَ بأيديهم اليمنى تخطيطاً بالأقلام فيتمزّق الورقُ المبتل، فيقتطعونه من دفاترهم، ليكرِّروا التدوينَ المستحيلَ على صفحاتٍ أخرى لا تلبث أن تهترئ وتتفتَّت وسط همهماتهم المكتومة، المتبرِّمة، إنما بإصرارٍ محموم من أعضائهم المرتعشة، المنحنية على هاوية الأوراق.

الصفحات البيضاء، المنكمشةُ، الممزَّقةُ، تتساقط من حول أولئك الثلاثة، وتتراكمُ منضغطةً بعضها فوق بعض، من ثقل المطر. ظلالهم تشتبك وتتطاعن خرساءَ الهذيان، فيما يجاهد ضوءُ المصباح العالي أن يفضَّ عراكَها فما تنفع وساطته النورانية. سيولٌ صغيرة تتكسر على أقدامهم الملتحمة بالأرض الإسفلتية. شجراتُ الفيكوس الضخمةُ تؤوِّل للريح حلمَها الدائريَّ، فيغمض «ميران» عينيه، في وقفته التي لا تحميها الشرفة العالية من مناوشات المطر. يغطي الرذاذ الطائش نظارتَه، فيغمض عينيه. ينزع نظارته ويفتح عينيه. البياض يتكاثف، والظلال المتماوجة تحت المصابيح العالية تغدو مستطيلةً رهيفة. يتلمس «ميران» الجدار عائداً إلى الحانة. يدخلها ونظارته في يده. يتوجَّه في الضباب الذي يغشى محجريه إلى كرسيِّه دون اصطدام بالأشكال الكُرَيَّةِ للمناضد. يجلس شاحباً.

«أكنتَ تسرقُ دكاناً؟ ما بكَ شحبْتَ؟» قالت ماريانا،

والتفتت إلى «ميكي»: «حضِّري شراباً ساخناً لهذا المُعذَّب»، ثم اقتربت بصدرها من «ميران»، مادَّةً جذعَها من فوق المسطبة، محدِّقةً - عن قرب - في عينيه الحُرَّتين من حجابيهما الزّجاجيين: «أرى سراويل نساء تتطاير في بؤبؤيك». ولمّا وجدته سادراً، تصنَّعت لهجةً أكثر رصانة: «أرأيت أحداً يقتل أحداً؟ ما بك؟».

أعاد «ميران» نظارته إلى موضعها فوق أنفه، وتمتم لا يعرف إن كان لكلامه ثِقَلٌ مّا: «هنالك جَمْع في الخارج، تحت مصابيح الساحة»، ولمّا أدرك أنْ ليس لكلماته وَقْعٌ على عيني ماريانا وأساريرها، صاغَ الأمرَ على دعابة: «سيّاحٌ يستحمّون مجاناً»، فارتدَّت ماريانا بجذعها إلى الخلف، عن المسطبة، وحرّكت الهواء بمروحتها التايلندية الصغيرة، ثم نادت بصوت خشن: «أتطبخين، أم تسخنين شراباً؟» قالت، ملتفتةً بوجهها إلى ستارة عريضة في زاوية من الحانة، فما لبثت أن خرجت «ميكي» من ورائها تحمل كأساً صفراء على صحن، واتجهت بها إلى «ميران».

ارتشف «ميران» من شراب الأزاهير العَطِرة الجافة، فتوغل البخارُ دافئاً إلى رئتيه، وأفاقت ينابيع أعضائه المنكمشة. الجداولُ الخفيّةُ فَتحت مجاريَ أخرى إلى مصبِّ السِّحْر: «أنا بحيرةٌ. الآن، فقط، صدَّقتُ أنني بحيرة» قال «ميران». هزَّت ماريانا رأسها دون سبب، فاهتزت طبقةُ الشحم الهانئة تحت فكَّيْها:

- كيف هي حرارتكَ؟

لمس «ميران» عنقَه براحته: «حرارة حمار».

اندفع هواء بارد من باب الحانة، الذي انفتح وانغلق دافعاً بشخصين إلى الداخل. لم يتطلّع «ميران»، لكنه كان يتابع

عيني ماريانا، اللتين تتبَّعتا الداخليْنِ حتى اتخذا ركناً من زاوية شمالية شرقية وجلسا. أومأت صاحبةُ الحانة بطرف مروحتها إلى «ميكي» التي حلَّقت بجناحين ذهبيين إلى الشمس، ثم حطَّت على منضدة الوافِدَيْن: «مساء الخير. بمَ أخدمكما؟»، قالت بالانكليزية.

- .....

«عفواً؟»، سألَتْهما.

- .....

«لحظة من فضلكما» قالت «ميكي»، وعادت أدراجها حتى وقفت لصق «ميران». اتَّكأَت بصدرها على حافة المسطبة الخشبية ونادت:

- يا سيدة ماريانا...

اقتربت ماريانا. قالت «ميكي»: «هذان يتكلمان لغة غريبة. لم أفهم طَلَبَهما».

استدار «ميران» من فوق كرسيّه يتأمَّل الغريبين، فاقشعرَّ جلده. انصفقَ بابٌ مّا في داخله، وتدافعت السحالي خشنةً، جافَّة الحراشف، إلى رئتيه. سعل، ثم نزل عن كرسيّه متوفِّزاً تتمازج خلف نظارته أقواسٌ من الدَّهش، والنفور، والتساؤل: «تريدان مترجماً... ها؟» قال بنبرةٍ صارخة أجفلت عاملات الحانة وروّادَها الجالسيْنَ.

ازداد الشابان تحديقاً فيه: الشاحبُ ذو النظرة المُحْرِجة، والآخر المبتسمُ ابتسامتَه العصبية الكئيبة. وهما كانا يحدِّقان فيه، على الأرجح، مُذْ دخلا الحانة، واختارا تلك الزاوية التي تجعل «ميران» مكشوفاً لاستطلاعهما المقصود.

كانا في معطفين رقيقين، أصفرَيْن، التصقا من البلل بأعضائهما النحيلة الخشنة، متهدِّلي الشَّعر خصَلاً متنافرة،

طويلة، على رقبتيهما وخدودهما. ينقران، معاً، على الطاولة بأنامل يديهما اليسريين المفرطة في طولها.

«أتعرفهما؟» همست «ماريانا» إلى «ميران» من خلف المسطبة الخشبية، فارتفع صوت «ميران» صاخباً، من جديد، كأنما يريد أن تسمعه الحيواناتُ الخفية في أزقَّة ليدرا: «أَمَا مِنْ مترجم هنا؟» قالها بالانكليزية، ودار بوجهه على الرواد الجالسيْنَ: «هذان يبحثان عن مترجم لا لغة له»، واقترب من الشابين بحركةٍ مندفعةٍ، لكنها ملجومة أيضاً: «أَعْطِياني العقدَ الذي أريتمانيه من قبل. سأترجمه لكما واقفاً».

تمتم الشاب الشاحب باليونانية: «نراكَ تعلَّمت».

«تعلَّمتُ ماذا؟» سأله «ميران» مستنكراً، فتطلَّع أحدهما إلى الآخر بالتفاتتين كسولتين.

«ماذا يشربان؟» نادت «ماريانا» من مكانها، متوجهةً بكلماتها إلى «ميران».

«لا يشربان شيئاً ماريانا» ردّ «ميران» دون أن يلتفت إليها، وأضاف بصوت أكثر اتزاناً:

«هما هنا لعقد صفقةٍ مع الوقت». ثم استدار منصرفاً عنهما، على عجل، صوبَ باب الحانة، وخرج يعصفُ بالريح وتعصفُ به.

* * *

البرقُ، الذي أضاءَ الشارعَ الطافح بالماء، أضاءَ شَعْرَ «فارو» أيضاً، تحت المظلَّة الخافقة مثل شراعٍ مهزوم. وكانت المرأة تدفع نَفْسها دَفْعاً في الهبوب القويّ للريح وللمطر معاً، في اتجاه بيت «ميران»، بعدما أبى سائق سيارة الأجرة الانعطاف بها إلى المسيلِ المُنْحَدِر للمياه، فترجّلت

تقطع ما تبقّى من مسافةٍ مشياً.

أشجار الزنزلخت تلاطمت بقسوة على الرصيف، ولو قَدِرت المرأةُ المترنحة أن ترفع وجهها عالياً قليلاً، من تحت المظلّة، لبدت لعينيها، في الهزيع الرَابع للّيل، أبراجُ المياه الثلاثة عشر مرتسمةً بشحوبٍ فوق القوس الصلد للظلام، عالياً، حيث يعبر تنِّينُ العماءِ فَلَكَ الأزل الثاني المهجورَ. لكن «فارو» كانت تقي عينيها بيديها تارةً، وتغمضهما تارة أخرى، مطأطئةً برأسها إلى أسفل تُرْدِفُ خطوةً بخطوةٍ في حذرٍ، وقد وصل الماء إلى أرساغ قدميها.

سبع عشرة مرة أُضيءَ شَعْرُ «فارو» القادمة من الحانة متأخّرةً، في تلك الليلة التي غادرها «ميران» باكراً. قهقهاتُ الرعد الكبيرة تتنقّل من حنجرة السماء إلى حنجرة الشارع، فتنكمش البيوت، على الجانبين، تحت دروع قرميدها. الليمون الأصفر، الناضج، المُهْمَل، يتساقط بكثافة يمكن سماعها في عبور «فارو» أمام البوابات الواطئة. حديد البوابات يتماحك ويئن ويتلاسن. اليقظةُ شاملة. النومُ يقظان. الأضواء منطفئة في البيوت، لكنها أضواء يقظىٰ. شروخٌ متشعّبة، كثيرة، في لوح الظلام. شروخٌ يمكن «فارو» أن تمدّ منها يدَها اليسرى إلى النهر الذهبيِّ المزدحم بالإِوزِّ الذهبيِّ: «الشَّكُّ مَصْدَرُ العقل. الحقيقةُ هي الشَّكُّ». كلماتٌ من «تسويات العقل» أثقلَ بها «ميران» على دماغ «فارو» التي لا تجد في العقل والشَّكِّ، معاً، أكثر من حمّالة ثديين في حجمي ثدييها. «هُمَا لا يؤكلان. العقلِ، والشّكُّ، لا يؤكلان»، تقول «فارو». «أعطني نَفْسَك أُعْطِكَ نَفْسي يا ميران؛ هذا، وحده، هو العِلم». كاهنةٌ خجولةٌ تتحدث بلسان قلبها حين تنطق «فارو» تلك الكلمات.

سبع عشرة مرّة أضيئت مظلّة «فارو» المُتخلْخِلةُ من صدمات الريح، قبل أن تنعطف يميناً إلى البوابة المفتوحة لبيت «ميران». هرولت حتى صارت تحت سقيفة الباب. أغلقت مظلّتها، ثم جَمَدت من فجاءَةِ استغرابها:

الباب مفتوح على مصراعيه. البيت مضاءٌ من كل ناحيةٍ. ثمراتُ النُّور الناضجةُ تتدحرج على صفيح السكون، و«ميران» في وسط صحن الدار، هناك، في كامل ثيابه، مُسْدل الشَّعر على الكتفين، واقفاً يواجه الباب المشرع، كأنما ينتظر إذناً خفيّاً ليعبره إلى نَفْسِه الثانيةِ، ما وراء العتبة بأشبارٍ.

تفرَّست فيه «فارو» صامتةً. دارت من حوله وهي تغلق مظلَّتها التي تقطر ماءً، فاسْتَرْعَتها حقيبتان مُعَدَّتان، كما ينبغي، بإتقان؛ محزومتان من وسطيهما. على طَرَف إحداهما الحجرُ الآجرّيُّ، وعلى طرف الثانية جواز سفره الذي تصفَّحاه، معاً، من قبل، بضع مرات، يتفكَّه «ميران» من تاريخ انتهاءِ صلاحيّته، باستعراضٍ أمامها لمقدرته على المكوث، إلى الأبد، بلا وساطةٍ تجيزُ له العبورَ من أرض إلى أرض: «الجغرافيا فكرةٌ يا فارو؛ استطراداتُ خيالٍ مُتْرَفٍ ينبغي أن يظلَّ مُتْرَفاً، وجواز السَّفَر نداءٌ إنتهازيٌّ، واستخفافٌ بالحقيقة»؛ هذا ما خَطر ببالها من كلماته مشوَّشاً، بعيداً ومُمَزَّقاً من التكلُّف الذي طالما أَبهظَ بها محاوراته مع عَقْلها المُنْسَرِحِ بسيطاً على فجر العالم، كأنّما يتدرَّب، في خلاء أعماقها، على انتشال اليأسِ العريق من هاوية اللغة اليونانية، التي يزداد فيها المعنى إِصغاءً إلى الأملِ المُسْرفِ في استعراض رعونته.

لمست «فارو» كتفه جانبياً بيدها اليسرى، فلم يلتفت

إليها، بل ظلَّ على تحديقه في الفراغ المغسول. مالت بعنقها أمام وجهه تتأمّل عينيه، في وقفتها إلى جواره، فلم تستطع اعتراضَ نظرته، أو كَسْرَ مسارها. تمتمت: «ما بكَ، ميران؟».

تحرَّكت عيناه. عادتا من فراغهما إلى وجه «فارو».

«ما بكَ؟» سألتْهُ ثانيةً وهي تلمحُ احتشادَ بروقٍ بليلةٍ في عينيه فتدمعان.

«لا شيء» ردّ متمتماً، ثم زرَّر سترته بهدوء ثقيل: «لا شيء، فارو»، وأضاف سارحاً: «أنا ذاهبٌ إلى تاف».

من شباط ١٩٩٤
إلى كانون الثاني ١٩٩٦

صدر للمؤلف

- كل داخل سيهتف لأجلي، وكل خارج أيضاً (شعر)
- هكذا أبعثر موسيسانا (شعر)
- للغبار، لشمدين، لأدوار الفريسة وأدوار الممالك (شعر)
- الجمهرات (في شؤون الدم المهرّج، والأعمدة، وهبوب الصلصال) (شعر)
- الكراكي (شعر)
- الجندب الحديدي (سيرة الطفولة)
- هاتِهِ عالياً، هاتِ النَّفيرَ على آخره (سيرة الصبا)
- فقهاء الظلام (رواية)
- أرواح هندسية (رواية)
- بالشِّبَاكِ ذاتها؛ بالثعالب التي تقود الريح (شعر)
- الريش (رواية)
- البازيار (شعر)
- معسكرات الأبد (رواية)
- الفلكيون في ثلاثاء الموت: عبور البشروش (رواية)
- الديوان (الأعمال الشعرية في مجلّد واحد)
- طيش الياقوت (شعر)

لغاتٌ تتطاحنُ. إرثٌ مذعورٌ. حقيقة تتمادى. وجود يتمادى. يقينٌ لا محتملٌ. زائرون يحملون إليك أختام العبث كلّه. ترجمانٌ يصل الكلمات بالكلمات. تائهاً إلى لُغته. نداءٌ أزليّ كي يستغاثَ باليأس من الأمل. شخوصٌ مقيمون في الحكاية بلا ذكْر. نساءٌ. أسلحةٌ. خُوذٌ. حيلٌ. علومٌ، ومتاهاتٌ إلى علوم. أقدار كخزائن الثياب.

كثيرٌ آخر يدعوك إلى شراكته في هذه الرواية، التي تحكي حروب اليقين، حيثُ لا أملَ للموت أن ينجو من هرطقة المكانْ.

2-94283-156-9